الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أدرار
كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية
قسم التاريخ

الحياة الاجتماعية والثقافية بإقليم توات من خلال نوازل الجنتوري في القرن 12هـ/18م

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ العام

تخصص : التاريخ المغاربي الاجتماعي والثقافي

إعداد الطالب :
أحمد بوسعيد

إشراف الأستاذ الدكتور:
محمد حوتية

أعضاء لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة	الصفة	الجامعة الأصلية
أد/ الطاهر دراع	أ.التعليم العالي	رئيساً	جامعة أدرار
أد/ محمد حوتية	أ.التعليم العالي	مشرفاً ومقرراً	جامعة أدرار
أد/ عبد المجيد بن نعمية	أ.التعليم العالي	عضواً مناقشاً	جامعة وهران
د/ خير الدين شترة	أستاذ محاضر أ	عضواً مناقشاً	جامعة المسيلة

السنة الجامعية :

1432 – 1433 هـ / 2011 – 2012 م

" ولا يصلح الخلقَ إلاّ خالقُهم ، ولا يعلم أحد من مصالحهم ما يعلم ، وما لم يحكمه لهم لا مصلحة فيه ، وإنْ ظهرت لنا مصلحة في غير ما شرع لنا فلا يحملنا ذلك على مخالفته ، بل يجب علينا اتّهامُ آرائنا وما سوّلت لنا أنفسنا ، وأين ما تسوّل لنا أنفسنا ممّا اختاره اللّهُ لنا ؟ فإن قيل إنّا نجد مسائل خولف فيها الشرع واتُّبِعت فيها المصلحة الظاهرة فاستقام أمرُ الناس بها ، قلنا إنّما ذلك فتنة واستدراج "

عبد الرحمن الجنتوري

الإهـداء

إلى من لولاهما ما رسمتُ بِخط ولا أهديتُ قط

والدي الكريمين حفظهما الله على الدوام

إلى من كانت على العهد نعمَ العون والسند

زوجتي الغالية أمّ الأبناء : محمد علي ، عبد الهادي وعبد النور

إلى من شاركني طعم الأيام ورافقني على ممرّ الأعوام

أخواتي جميعاً ، وإخوتي : مختار ، محمود وعبد المالك

إلى منتسبي الدار الكبيرة حيثما وُجدوا ، أقاربَ وأصهاراً

إلى زملاء الدراسة والتدريس ، وكلّ من سلك طريقاً يبتغي به علماً

إلى قناديل الهدى وأنوار الدجى : شيوخ توات وعلمائها

إلى روح العالم المجدّد : سيدي أبي زيد عبد الرحمن الجنتوري

إلى كلّ من ساهم في إخراج هذا العمل من العدم

أهدي ثمرة هذا الجهد المقلّ المتواضع

أحمد

التشكرات

" شكر المولى هو الأولى "

ما دام شكر الناس من شكر الله فإني أتوجه بجزيل معانيه وأسمى مبانيه إلى :

الأستاذ الدكتور محمد حوتية على تفضّله بالإشراف ، وعلى ما أسدى من نصائح وتوجيهات طيلة فترة الإعداد .

أ د / عبد الكريم بوصفصاف على متابعته وتأطيره خلال السنة النظرية ، و أ د / الطاهر دراع على دعمه المستمر ، رفقة أساتذة قسم التاريخ جميعاً .

السادة الأساتذة الزوّار ، الذين تكبدوا عناء السفر ، وأفادونا أيّما إفادة ، وأخصّ بالذكر الأستاذ الدكتور أبا القاسم سعد الله ، ومَن فقدناها غيلة وغدراً المرحومة بإذنه تعالى * عائشة غطّاس *

الأساتذة الأفاضل : أ د / محمد دباغ ، د / أحمد جعفري ، أمبارك جعفري ، عبد الرحمن بعثمان ، عبد الله بابا ، خديجة حالة ، ومصطفى بوسعيد .

كما أتوجه بشكر خاص إلى كافة الباحثين في التراث التواتي وأرباب الخزائن :

- السيد الحاج محمد سالم بن عبد الكريم بأدرار .
- السيد الحاج الطيب بن عبد الكبير وابنه عبد الحميد بالمطارفة .
- السيد الحاج الطيب شاري بكوسام .
- السيد الحاج عبد القادر بن الوليد بباعبد الله .
- السيد امحمد الجوزي بأولاد سعيد .
- السيد الحاج عبد الله حامد لامين وأخيه إبراهيم بأولف .
- السيد الحاج عبد الرحمن العماري بإينغر ، تمنراست .
- السيد مولاي عبد الحي امحمدي بشروين .
- السيد عبد الرحمن الشيخ إبراهيم بأولاد سعيد .
- السيدين لحبيب ويعقوب عقباوي بآقبلي .

المقدمة

حظي إقليم توات (ولاية أدرار وأجزاء من تمنراست حالياً) في السنوات الأخيرة بكمٍّ وافر من الدراسات والأبحاث ، توزّعت بين ثنايا الرسائل والأطروحات ، والندوات والملتقيات ، حمل لواءَ بسطها وتخريجها ثلّةٌ من الباحثين الأكاديميين والشيوخ المجتهدين ، عكست جميعُها مدى غِنى هذا الإقليم ثقافياً واجتماعياً وتنوّع تراثه ، وسَعَت إلى نفض الغبار عن ذلك الموروث ونقل أجزائه ومكوّناته من ضيق المكتبات والخزائن الخاصة إلى رحاب أفقٍ واسع .

لكنّ الغموض ـ رغم ذلك ـ لا يزال يكتنف جوانب متعددة من تاريخ المنطقة ، خاصة الاجتماعي والثقافي والحضاري ، و هي مجالات حُبلى بالحقائق والمعطيات والأفكار ، تغري الباحثين وتستنهض هممهم وتتيح لهم قدرا كبيرا من الشواهد والوثائق والمخطوطات .

التعريف بموضوع البحث :

انطلاقاً من تلك المعطيات تبلورت لديَّ فكرة إعداد دراسة اجتماعية ثقافية عن إقليم توات خلال القرن 12 هـ (18 م) ، استناداً إلى نوازل الشيخ أبي زيد عبد الرحمن الجنتوري المتوفى سنة 1160هـ / 1747م . وهي نوازل نفيسة قيّمة ، جامعة للفتاوى والفقه والأحكام ، عاكسة لأوضاع المجتمع وتقلّباته مصوّرة لمكوّناته وفعالياته ، دالّة على أعلام المنطقة وتنافسهم في الفكر والاجتهاد . وتلك سمة طبعت القرن 12هـ / 18م ، الذي يعتبر بحق قرن أعلام توات وعلمائها ، من أمثال العالم النوازلي عبد الرحمان الجنتوري (ت1160 هـ /1747 م) ، والفقيه الرحّالة عبد الرحمان بن عمر التنلاني (ت 1189هـ / 1775 م) والأديب اللغوي محمد بن أبّ المزمري (ت 1160 هـ / 1747 م) ، والمفتي الشيخ أبي الأنوار بن عبد الكريم التنلاني (ت 1168 هـ / 1755 م) ، والمدرّس القاضي عبد الكريم بن البكري بن عبد الكريم (ت 1174 هـ / 1761 م) ، والعالم القاضي محمد بن الجوزي (ت 1162 هـ / 1749 م) . وغيرهم ممّن حفظ الزمان أسماءهم بفضل جهودهم العلمية كثيرون .

والدراسة في مجملها تسلّط الضوء على واقع المنطقة خلال تلك الفترة ، اعتماداً على ما تضمَّنته النوازل المذكورة من دلالات وإشارات اجتماعية ، وعلى ما رصدته من جهود ثقافية . دون إغفالٍ لطبيعة المنطقة الجغرافية ، وإسهاماتها وعلاقاتها بامتدادها الجغرافي ومجالها السياسي وبُعدِها الحضاري .

دوافع اختيار الموضوع

جاء اختياري لموضوع " الحياة الاجتماعية والثقافية بإقليم توات في القرن 12 هـ / 18 م من خلال نوازل الجنتوري المتوفى 1160 هـ / 1747 م " نتيجةَ تراكم جملةٍ من الأسباب والدوافع الموضوعية والشخصية ، أهمّها :

– مواءَمة الموضوع لتخصّص البحث والدراسة خلال السنة النظرية ، وهو التاريخ الاجتماعي والثقافي ، الذي أصبح يمثّل توسعاً رأسياً للدراسات السياسية والإدارية . كما أنّ هذا التخصّص هو السمة الغالبة على تاريخ المنطقة وتراثها ، ومَكمنُ فخرها وريادتها .

– تبيان أهمية كتب النوازل في إثراء الدراسات التاريخية ، واعتبارها مخطوطا مصدراً لتاريخ المنطقة ، على غرار مخطوط نوازل الزجلاوي ونوازل البلبالي الموسومة بعنوان " غنية المقتصد السائل فيما وقع في توات من القضايا والمسائل " .

– المساهمة في نفض الغبار عن المصادر المحلية المخطوطة ، وتمكين الباحثين الدارسين من التعرّف على مظانها والإطّلاع عليها والاستفادة منها ، كلّ في مجاله .

– إثراء وتنويع الكتابات التاريخية حول المنطقة ، وإبراز دور الدراسات المحلية باعتبارها رافدا من روافد المعرفة ، وَلبِنة هامة في صرح التاريخ الوطني والمغاربي .

وما زاد في غبطتي وتشجيعي – شخصياً – هو رأي الأستاذ الدكتور أبي القاسم سعد الله حول هذا النوع من الكتابات ، في لقاءٍ جمعنا وإيّاه بجامعة أدرار في تاريخ 20 أبريل 2010 م ، حيث أكّد لنا بأنه أصبح يحبّذ الدراسات التأريخية المحلية ويحضّ عليها ، بعدما كان متحفّظاً بشأنها .

– التمرّن على استنباط المعطيات الاجتماعية والثقافية من كتب النوازل الفقهية وغيرها ، والتعوّد على مناهج الدراسة وطرائقها .

– التأكيد على دور البحوث الجامعية في إثراء الحياة الاجتماعية ، وتسليط الضوء على أعلام الثقافة والمعرفة بالمنطقة ، والانخراط في المسيرة الثقافية المنبعِثة ، الهادفة إلى الخروج بذاكرة توات من دائرة النسيان .

إشكالية البحث :

يسعى هذا البحث في تفاصيله إلى طرح ومن ثَمّ معالجة إشكالية تاريخية ذات طابع ثقافي اجتماعي عبر التساؤلات التالية : ما مدى إمكانية التوصّل إلى قواسم مشتركة بين الفتاوى والأحكام الفقهية من جهة ، والممارسات الاجتماعية الثقافية من جهة أخرى ، وهل عكست كتب النوازل – ومنها هذا المخطوط – الحياة الاجتماعية والثقافية بالإقليم بتجلّياتها وحيثياتها ؟ ثم ما هي الدلائل على تميّز هذه الفترة الزمنية من تاريخ المنطقة وهي القرن 12هـ / 18م ؟ و ما هي المؤشّرات الاجتماعية ذات الدلالات الإيجابية أو الدلالات السلبية التي طبعت حِراك المجتمع التواتي ؟ وما مدى إسهامات علماء المنطقة في تنشيط الحقل المعرفي والعلمي ؟ وما حدود تلك الإسهامات والتأثيرات ؟ وما مكانة الزوايا العتيقة والعائلات العريقة في خضمّ ذلك النشاط ؟

إطار البحث :

إذا كان الإطار المكاني للدراسة هو منطقة توات ، المندرجة ضمن ولاية أدرار بالجنوب الجزائري بأقاليمها الثلاثة : توات ، قورارة وتيديكلت ، فإن الإطار الزماني هــو القرن 12 هـ (18 م) الذي يُعتبر ثاني قرن بوّأته الدراسات والأبحاث حظوةً ومكانة ، بعد القرن التاسع الهجري ، قرن المصلح والمجدّد الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي (ت 909هـ / 1503م) .

تميّز القرن 12هـ بكثرة الزوايا والمدارس القرآنية العامة المنتشرة في كل أقطار الإقليم ، إضافة إلى الخزائن والدور الخاصة ، وحلقات التدريس و التعليم ، وحركة التدوين والنسخ والشروح والتعاليق والإجازات العلمية ، كما أن الوضع السياسي السائد خلال هذه الفترة طبع المنطقة بطابع الاستقلالية وعدم التبعية لأيّ من القوى المحيطة ، سواء الدولة العثمانية التي بسطت نفوذها على إيالات الجزائر وتونس وطرابلس ، أو الدولة العلوية المستقلة بالمغرب الأقصى ، والتي حاولت مراراً توسيع دائرة نفوذها نحو البلاد التواتية .

ولا يمكن بحالٍ من الأحوال عزل هذا المعطى الزماني (ق 12) عن امتداداته في الحواضر العلمية المنتشرة في أرجاء شمال بلاد المغرب وجنوب صحرائها ، كتلمسان وفاس وسجلماسة وتونس والقيروان وطرابلس وبجاية والجزائر وتمبكتو وغيرها ، ولا عن إسقاطاته المكانية ، بحكم وقوع إقليم توات في مفترق تقاطع طريقين حضاريين ، هما طريق القوافل التجارية عموداً ، وطريق ركاب الحجَّاج أفقاً ، لذا يُعتبر هذا القرن بحقّ قرن التجديد والعطاء المديد في شتّى صنوف العلم والمعرفة .

مناهج البحث :

نظراً لطبيعة البحث المتمثلة في الدراسة الاجتماعية والثقافية وخصوصياتها ، فإنّني آثرتُ الاعتماد على منهجين رئيسيين وتغليبهما على بقية المناهج العلمية وهما : المنهج الاستقرائي القائم على رصد وتتبّع الأحداث والمنهج التاريخي النقدي المعتمد على الجانب التحليلي .

فالنوازل تتيحُ كمًّا هائلا من أسماء الأعلام والأماكن والمصنّفات ، ممّا يتطلب القيام بعملية **استقراء** شاملة لتلك المعطيات ولمصادرها المختلفة ، من كتب الموسوعات والتراجم والأعلام ، وأمّهات الكتب الفقهية والمعاجم اللغوية . ومن أجل الخروج كذلك بنتائج ختامية ، فيما يتعلق بالأوضاع الاجتماعية والثقافية ، بعد تتبّع مختلف المؤشّرات والمحطّات ، مستنداً على أفكار بعضِ مَن سبقني في مجال البحث والتنقيب ضمن تراث توات وتاريخها .

أمّا المنهج **التاريخي** التحليلي ، فهو ضروري في فهم المادة التاريخية وطبيعتها ، ومن ثَمّ نقدها وتمحيصها . لذا وظّفته في القيام بعملية التنسيق لربط الاستنتاجات الفصلية ، وكذا في تفسير وتعليل بعض

الظواهر الخاصة والعامة ، التي لها علاقة مباشرة بأعلام المنطقة ، وفهم طبيعة جهودهم ، كما أن هذا المنهج ـ أي التحليلي ـ هو الوسيلة المثلى لترجمة الإشارات والمفاتيح الاجتماعية الواردة في النوازل إلى صور حيّة تعبّر عن الواقع المعيش خلال القرن 12هـ .

صعوبات البحث :

وقد لاقيتُ في سبيل إنجاز هذه الدراسة صعاباً ومتاعب جمّة ، يرتبط بعضها بمرحلة البحث عن المادة وجمعها ، والبعض الآخر بمرحلة التحرّي والتحقّق والتركيب ، يمكن تلخيصها في النقاط التالية :

ـ حتمية التعامل مع مصادر مخطوطة لم يُطبع معظمها أو يُحقّق ، مما شكّل عبئاً إضافيا استلزم منّي القيام بما يمكن اعتباره تحقيقاً مرحلياً جزئياً ، انتهى في بعض الأحايين بخيبة أمل ، نظراً لمحدودية المادة التي وفّرها .

ـ غياب بعض نسخ مخطوط " نوازل الجنتوري " والتباين في أحجام ما وُجد منها ، وقلّة المصادر والمراجع التي ترجمت لمؤلّف النوازل الشيخ عبد الرحمن الجنتوري .

ـ غِنى النوازل المذكورة بأسماء الأعلام من أزمنة وأمكنة مختلفة ، بعضهم مشهورون ، وآخرون مغمورون ، غلب على معظمهم التوجّه الديني الفقهي ، مما يُجانب البحث ـ أو يكاد ـ مساره التاريخي الاجتماعي ، ويستدعي إلماماً بالدراسات الفقهية ، وإطّلاعا على المصادر المذهبية ، خاصة كتب الأصول والمتون والمختصرات المالكية ، وتحرّي مواطن الخلاف في كثير من القضايا المعروضة في النوازل .

ـ مواجهة كلمات صعبة القراءة ، يصعب ضبطها ، وأخرى غير واضحة أو مبتورة ، ممّا يستلزم استنتاجها قياساً ومقارنةً أو تقديراً واجتهاداً .

كما أنّ هناك عائقاً آخر واقعياً ـ لا يمكن إغفاله ـ وهو نظرة بعض أرباب الخزائن والمخطوطات لسعي الباحثين والدارسين المنقّبين عن التراث وكنوزه المعنوية ، كما لو أنّه سعيٌ نحو كنوز مادية ، أو سلب لسلطة أو وصاية تاريخية ، لطالما احتكرتها خاصةُ الخاصّة وحُرمت منها العامة .

الدراسات السابقة حول الموضوع :

ظهرت العديد من الكتابات التاريخية المرتبطة بإقليم توات ، إلاّ أن معظمها أدرج الدراسات الاجتماعية والثقافية في إطارهما العام ، ولم يتخذ من النوازل الفقهية سنداً رئيساً ، على غرار الدراسات الأكاديمية النموذجية التالية ، التي لامست الواقع الاجتماعي ورصدت التطور الثقافي بتوات :

1 – " توات والأزواد خلال القرنين 12 هـ و13 هـ دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية " لمحمد حوتية وهي في الأصل أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ من جامعة الجزائر ، تعدّ من بواكير الدراسات التأصيلية للمجتمع التواتي ، خاصة فيما يتعلّق بتحليل المكوّنات والأجناس والقبائل المستقرة أو الوافدة على إقليم توات ، وطبيعة العلاقات الناشئة فيما بينها .

2 – " إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين " لفرج محمود فرج ، وهي في الأصل أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه الدور الثالث في التاريخ من جامعة الجزائر ، حيث شكّلت البدايات التأسيسية للدراسات الاجتماعية المستقلة ، رغم أنّ معالجتها كانت ضمن سياق عام .

3 – " الحياة الاجتماعية بإقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين " لبهية بن عبد المؤمن ، وهي في الأصل مذكرة ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية من جامعة وهران ، وهي دراسة هامة تناولت البنية الاجتماعية لتوات من حيث عناصر السكان وطبقات المجتمع ، وما يتعلق بالأسرة وأنماط المعيشة والعادات السائدة بالمنطقة .

ويمكن القول ـ رغم ما ذُكر ـ بأن دراسة الحياة الاجتماعية والثقافية بتوات من خلال نوازل الشيخ عبد الرحمن الجنتوري رؤية مركبة ذات أبعاد مختلفة ، قوامها أضلاعٌ ثلاثة : معطيات اجتماعية وثقافية ، نوازل وفتاوى فقهية ، شخصية الشيخ الجنتوري التي طبعت تلك النوازل بميزاتها الخاصة .

أهمّ مصادر البحث ومراجعه :

وقد سعيتُ إلى تخطّي مختلف الصعوبات ، فاستندتُ إلى دراسات مَن كان لهم قصَبُ السبق ، واستفدتُ من جولاتٍ ميدانية إلى أهمّ الخزائن والزوايا بالمنطقة ، وكذا من الحملة الثقافية الناشئة التي تستهدف إعادة بعث تراث توات الثقافي والفكري بشتّى صنوفه ، فتلقّفتُ ما أمكنَ الوصول إليه من المصادر والمراجع ـ رغم قلّتها ـ سواء كانت مخطوطة أو مطبوعة وعضّدتُ بها النسختين المتوفرتين لديّ من مخطوط نوازل الشيخ الجنتوري ، من أجل استنطاق النوازل والفتاوى وتمحيص الاستنتاجات الاجتماعية والثقافية ، ومن أهمّ تلك المصادر المخطوطة :

* مخطوط درّة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام بخزانة كوسام ، لمؤلفه محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق البكري التمنطيطي ، الذي يعتبر من أهمّ المخطوطات التواتية ، التي لا غنى للباحث في تاريخ توات عنها ، حيث يحوي الكثير من المعلومات حول الحياة السياسية و الاجتماعية والعلمية في توات ، في شكل عرضٍ كرونولوجي للأحداث المحلية ، فضلاً عن عديد التراجم للفقهاء والقضاة ، وإن كان الغالب عليها التركيز على عائلة بعينها (آل البكري) .

* مخطوط فهرسة شيوخ عبد الرحمن بن عمر التنلاني التواتي ، فقدُ أفدتُ منه كثيراً ، واعتمدتُ على ما تضمّنه من دُرر في أكثر من مبحث ، فهو يكتسي أهمية بالغة بين مخطوطات الإقليم التواتي ، إذ يصوّر بجلاء الحياة العلمية والثقافية في توات ، وعلاقاتها بالحواضر العلمية المجاورة لها ، ويرصد أهمّ المراكز العلمية المحلية والإقليمية التي كانت على علاقة بتوات ، وطرق التدريس فيها والمصنّفات التي كانت تشكّل مادة الدراسة في حلقات الدروس وكذا الإنتاج العلمي لأشهر شيوخ توات في القرن 12 هـ ، فضلاً عن البسط

المستفيض لحياتهم وتنقلاتهم ومكانتهم والإجازات العلمية التي حصّلوها عن شيوخهم التواتيين أو المغاربة أو التكروريين ، خاصة وأنّ صاحب الفهرسة قد عاصر لسنوات صاحب النوازل محل الدراسة ، وقد حقّق الأستاذ بعثمان عبد الرحمن هذا المخطوط ضمن رسالة جامعية غير منشورة .

* مخطوط الدرة الفاخرة في ذكر المشايخ التواتية بخزانة با عبد الله ، لمؤلفه الشيخ محمد بن عبد القادر المهداوي ، وهو من أهمّ المصنفات التواتية ، التي أتت على ذكر تراجم الكثير من علماء توات ومشائخها وأعيانها ، وقد أفادني في رصد تراجم الكثير من الأعيان الواردة أسماؤهم في نص المخطوط ، فضلاً عن الترجمة لصاحب النوازل نفسه ، كما أورد بين ثنايا التراجم معلومات جزيلة حول الحياة العلمية في توات .

* مخطوط إعلام الإخوان بأخبار بعض السادة الأعيان بخزانة تمنطيط ، لمؤلفه البكري بن عبد الكريم بن سيدي البكري ، إذْ أفادني ـ رغم صغر حجمه ـ بمعلومات هامة عن الشيخ الجنتوري ، وبعض الأعلام البكريين .

* مخطوط الرحلة إلى قبر الوالد بخزانة تمنطيط ، لصاحبه ضيف الله بن محمد بن أبّ المزمّري ، وهو مخطوط قيّم رغم تداخل بعض صفحاته ، وتآكل بعض الكلمات ، خاصة ما تعلّق منها بجانبٍ من حياة الشيخ الجنتوري ، كما أنّه من المخطوطات النادرة التي رصدت بعضاً من الحياة الاجتماعية والثقافية ، وجمعتْ بين الأعلام من مناطق توات الثلاث : تيدكلت ، توات الوسطى وتيكورارين ، ومثّلت نموذجاً رائداً في أدب الرحلة التواتية ، لا يقلّ قيمةً عن النماذج المغاربية .

* مخطوط نوازل الزجلاوي بخزانة كوسام ، المنسوب إلى الشيخ محمد بن العالم الزجلاوي ، وهو مجموعة من الفتاوى المنتقاة ممّا جادت به قرائح الفقهاء في القرن 12 هـ . استفدتُ منها في إطار المقارنة واستبيان طرائق معالجة النوازل ، واستخراج بعض القواسم المشتركة في توجهات علماء توات الفكرية .

أمّا المصادر المطبوعة فقد طغت عليها كتب المسالك والبلدان والتراجم والرحلات ، وكتب الدراسات الاجتماعية في بلاد المغرب بصفة خاصة ، بالنظر إلى ما تقتضيه طبيعة البحث ، ومن أهمّها :

* نسيم النفحات من أخبار توات ومن بها من الصالحين والعلماء الثقات ، للشيخ مولاي أحمد الطاهري الإدريسي ، فقد أفادني في تبيان الخصائص الجغرافية والاجتماعية للقصور التواتية ، وتشكيل شبكة واسعة من الأنساب والمعطيات الديموغرافية ، وفهم القواسم المشتركة بين تلك القصور ، وقد حقّق المخطوط ابنُ المؤلّف وخليفتُه على المدرسة الطاهرية بسالي ، الشيخ مولاي عبد الله الطاهري .

* الرحلة العياشية المشهورة باسم ماء الموائد ، لأبي سالم العياشي ، إذ اعتمدتُ عليها ووظّفتها في الفصل الأول خاصة ، في معرض الحديث عن بعض الخصائص الطبيعية الجغرافية لإقليم توات ، ووصف بعض القصور ، خاصة قصور منطقة تيكورارين ، كما أنّ زمن الرحلة ليس بعيداً عن فترة الدراسة التي يغطّيها

البحث ، والأمر عينه ينطبق على أمهات المصادر التاريخية ، مثل كتاب العبر لابن خلدون ، وتحفة النظار لابن بطوطة ، ووصف أفريقيا للحسن الوزان .

* كتاب القول البسيط في أخبار تمنطيط ، لابن بابا حيدا ، إذ يعدّ من أهم المصادر التي أتت على ذكر جوانب هامة من تاريخ توات ، خاصة فيما يتعلق بمركز تمنطيط أولى المراكز العلمية في توات ، وتكمن أهمية هذا الكتاب في أنه يعدّ من قلة ما حُقق من تراث منطقة توات ، لذا فقد أثرَتْ مادته شتى جوانب البحث

* موسوعة أعلام المغرب لمحمد حجي ، الجامعة للدرر الثمينة وأصول كتب التراجم من النصوص التراثية المغاربية ، حيث حوتْ نُتفاً تعريفية وتراجم وافية لأعلام تواتيين ، ارتبطت أسماؤهم بالحواضر الكبرى ذات الصلة الوطيدة بتوات ، لِذا فقد ركّزت على مصادر الموسوعة المؤرِّخة لأعلام القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين ، على غرار نشر المثاني للقادري ، وتذكرة المحسنين لعبد الكبير الفاسي .

* المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل أفريقية والأندلس والمغرب للونشريسي ، وهو أهمّ ما أُلِّف في فقه النوازل ببلاد المغرب على الإطلاق ، وقد استعنتُ به على فهم المسائل الفقهية المرتبطة بالقضايا الاجتماعية الشبيهة بما ورد في نوازل الشيخ الجنتوري ، وإجراء بعض المقارنات والإسقاطات .

أما المراجع ، فقد وظّفتُ منها الكثير في إطار إعداد الدراسة ، وهي في معظمها مؤلفات لمشايخ وعلماء معاصرين محليين ، تفتقد أحياناً لطابع البحث المنهجي الأكاديمي ، إلاّ أن مادتها على العموم أسهمت كثيراً في إثراء الدراسة ومن أهمها :

كتاب الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام و الآثار و المخطوطات و العادات وما يربط توات من الجهات للشيخ محمد باي بلعالم ، ويعدّ من أضخم وأهمّ ما ألِّف في تاريخ توات ، وهو من جزأين ، جمع فيه صاحبه الكثير من المعلومات حول شتى مراحل تاريخ المنطقة ، ورصد الكثير من تراجم العلماء الذين نشطوا الحركة العلمية بها ، وأورد معلومات هامة عن بعض المخطوطات ، وكلّها معلومات ساهمت في تخطي جلّ العقبات والإشكالات التي وقفت في طريق البحث .

ومن المراجع المعتمدة أيضاً كتاب قطف الزهرات من أخبار علماء توات ، للشيخ محمد عبد العزيز سيدي عمر المهداوي ، وهو كتاب عظيم الفائدة ، جمع فيه صاحبه الكثير من تراجم الأعلام المحليين ، وقد عدتُ إليه في الترجمة لبعض الأعلام الواردة أسماؤهم في مخطوط النوازل ، كما استثمرت ما ورد فيه من معلومات في إثراء الدراسة .

وقد كان كتاب توات والأزواد للدكتور محمد حوتية ، من أهم المراجع التي أفادتني في إعداد هذا البحث ، وذلك بالنظر لغزارة المعلومات الواردة فيه ، المتعلقة أساساً بالحياة الاجتماعية في توات ، وأنساب

بعض الساكنة والقبائل ، والخصائص الطبيعية والجيولوجية لمنطقة توات ، وكذا مظاهر النشاط الثقافي والفكري الحادث بها .

والأمر كذلك يرتبط بكتاب محمد بن أبّ المزمري حياته وآثاره ، للدكتور أحمد جعفري ، فقد ساعدني الفصل الأول منه في إحصاء بعض المواد والمعطيات ، خاصةً وأنه يحيل دائما على أسماء المخطوطات والخزائن التي يقصدها الباحثون ، ممّا سهّل عليّ مشقة التنقيب عن أماكن تواجدها .

أمّا كتاب قصور قورارا وأولياؤها الصالحون في المأثور الشفهي والمناقب والأخبار المحلية ، للمؤلف رشيد بلّيل ، فقد أفدتُ منه أيّما إفادة في رصد المعطيات الاجتماعية والثقافية ، المتعلقة بقصور قورارة (تيكورارين) ، في ظلّ تركيز معظم المراجع على التأريخ لمنطقة توات الوسطى بصفة خاصة .

ومن المراجع الهامة التي عنَتْ بدراسة توات من جوانب متعددة ، كتاب إقليم توات في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين ، لمؤلفه فرج محمود فرج ، فهو كتاب مرجعي ، ساعدني في تكوين صورة نهائية للبحث ، وأمدّني بمفاتيح المعطيات والمعارف الضرورية لكلّ من يروم الغوص في تاريخ توات .

خطة البحث :

ومن أجل إيفاء الدراسة حقّها ، ارتأيتُ تقسيم الرسالة إلى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة ، يحتوي كلّ فصل على ثلاثة مباحث تفصيلية ، يسبقها تمهيد وجيز وتعقبها خاتمة مرحلية ، ثمّ ذيّلتُ الرسالة بملاحق ذات صلة وفهارس متنوعة .

يعتبر **الفصل الأول** بمثابة تمهيد شامل ، حيث خصّصته للدراسة الجغرافية والتاريخية لإقليم توات ، مقسّمةً على ثلاثة مباحث ، أولها الموقع والخصائص الطبيعية ، حيث التمايز بين موقعي توات الجغرافي والفلكي ، ومناطقه الثلاث ذات القصور المتعددة ، إضافة إلى مظاهره التضاريسية المتباينة . ثمّ تحدثت في المبحث الثاني عن الروايات المتواترة المتعلّقة باسم " توات " في حدّ ذاته ، عرضاً ونقداً ، مراعياً تسلسلها الزمني . وأخيراً انتقلت إلى تبيان الأهمية والمكانة التاريخية التي تبوّأها الإقليم ، وجعلته مثار تنافس إقليمي شديد ، بين القوى الصاعدة . تلك الأهمية المتبلورة بجلاء والمستمرة إلى حدود الإطار الزمني المخصص للبحث وهو القرن 12 هـ / 18 م ، والمتجسّدة في محاولات الاستقطاب الحثيثة من لدنْ الخلافة العثمانية القائمة بمعظم بلاد المغرب من جهة ، والدولة العلوية القائمة بالمغرب الأقصى من جهة أخرى .

أما **الفصل الثاني** فهو مخصّص للحديث عن مؤلّف النوازل الشيخ أبي زيد عبد الرحمان الجنتوري من حيث مولدُه ونشأتُه وتعليمه ورحلاته وشيوخه وتلاميذه ومآثره وآثاره وآراؤه العلمية الصارمة ، خاصة في موضوع القضاء بتوات وأحوال القضاة ، حيث اقترن ذكر هذا الشيخ بسجالاته معهم ومحاوراته الشديدة إيّاهم . وذلك بعد أن عرّجتُ على عصر المؤلف (القرن 12 هـ) ،

والخصوصيات التي تميّز بها وأوضاعه السياسية والأمنية والاقتصادية العامة داخلياً وخارجياً ، والتيارات المذهبية والفكرية السائدة خلاله وحظّ إقليم توات منها . وأخيراً أفردتُ الحديث لأهمية كتب النوازل عامة ونوازل الشيخ الجنتوري خاصة في استنباط ملامح الحياة الثقافية والاجتماعية السائدة .

بينما قدّمتُ ضمن مباحث **الفصل الثالث** صورة حيّة عن الواقع المعيش بالمنطقة خلال تلك الفترة ، من خلال النوازل المذكورة ، في ما يرتبط أولاً بمكوّنات المجتمع التواتي وطبقاته والعلاقة الترابطية الناشئة فيما بينها ، ومستوى المعيشة والحظوة الاجتماعية ، ومصادر الرزق أو الدخل الفردي ، والعادات والسلوكيات السائدة حينها سلباً وإيجاباً . مروراً بمكانة المرأة التواتية ، ومدى فعاليتها في الأسرة أولا ثمّ في المجتمع ثانياً ، وهل نجحت في كسر القيود التقليدية ؟ وتخطّي الصور النمطية الراسخة في الأذهان عنها ؟ أم أنّها ظلّت رهينة الطبائع البدوية والنظرات الدونية ، عاجزة عن إثبات وجودها . وأخيراً تطرّقتُ في المبحث الثالث إلى القضاء ، الذي كان محلّ نقدٍ دائم من قِبل الشيخ الجنتوري ، في تحليلٍ لنظامه ورصدٍ لمآثر أعلامه وقضاياه ، واستقراءٍ للمآخذ المسجّلة على القضاة التواتيين .

وفي **الفصل الرابع** استعرضتُ التطور الفكري والثقافي الذي طبعَ توات خلال القرن 12هـ ، وقد رصدت النوازل جانباً هاما منه ، بدءاً بالتعرّف على مكامن الحِراك الثقافي ومواطنه ، المتمثلة في الزوايا والمدارس والمراكز العلمية ، والعوائل العريقة التي أشارت النوازل إلى بعضها ، واحتكاكها الخارجي تأثيراً وتأثراً بالحواضر الإقليمية ، مثل فاس وتلمسان وتمبكتو ، والتي بالكاد يستطيع المرءُ فكَّ ارتباطها بالحواضر التواتية المحلية ، بفضل آثار وجهود العلماء والأعلام التواتيين ، روافد الفكر والمعرفة ، الذين ساهموا في رفع راية الإقليم في المحافل والجوامع العلمية شمالاً وجنوباً ، والذين أعددتُ تراجم لأشهرهم ، ممّن ذُكرتْ أسماؤهم في النوازل . وفي المبحث الثالث والأخير أشرتُ إلى بعض الظواهر الثقافية الإيجابية ، الدّالة على فعالية وتنوّع المشهد الثقافي ، وعلى رأسها ظاهرة الرحلات الحجازية وما ترتّب عنها من نسج شبكة معرفية وتكوين رصيد تاريخي جغرافي ، بفضل حركة النّسخ والتدوين ، وكذا الشأن بالنسبة للرحلات العلمية داخلياً وخارجياً ، وأسلوب المراسلات والمناظرات الجدلية الفكرية القائم على المنطق والحجة القاطعة .

وفي الختام أوجزتُ ما توصّلت إليه من نتائج ، وما خرجتُ به تدريجياً عبر فصول الدراسة السابقة ومباحثها ، في **خاتمة** عامة شاملة ، طعّمتُها بجملةٍ من المقترحات والتوصيات المأمولة ، أرجو من ورائها أن أكون قد وفّيتُ الدراسة بعض حقّها ، أو أحطتُ ـ على الأقل ـ بجانبٍ من مستلزماتها ، إذْ لا مندوحة من الوقوع في الخطأ قط ، ولا سبيل للحُسن وحده فقط ، سائلاً الله ـ عزّ وجلّ ـ التوفيق والسداد وأن يكون ذلك الجهد المتواضع المبذول خالصاً لوجهه تعالى ، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل .

الفصل الأول

البيئة الجغرافية والتاريخية لإقليم توات

– تمهيد

المبحث الأول : الموقع والخصائص الطبيعية

وهو مبحث يتناول بالدراسة والتحليل الموقعين الجغرافي والفلكي لإقليم توات ، وما يترتّب عنهما من معطيات وخصائص جغرافية ، ويرصد القصور التواتية مترامية الأطراف ، المحتواة في مناطق ثلاث هي : تيكورارين ، توات الوسطى وتيدكلت ، مع التركيز على ما اشتهر منها وتناولته كتب الجغرافيا والرحلات ، كما يشير إلى طبيعة تضاريس الإقليم وغلبة المظهر الصحراوي عليها ، وكذا إلى الأودية الشهيرة التي ارتبط اسمها بتوات وأهمّها : واد مسعود وواد امقيدن وواد قاريت ، متتّبعاً منابعها ومصبّاتها .

المبحث الثاني : الروايات المتواتِرة حول تسمية الإقليم

يخصّص هذا المبحث لعرض الروايات المتباينة حول أصل كلمة " توات " ، وكيف أصبحتْ علَماً دالاً على الإقليم ، انطلاقاً من ترتيبها الزمني ، مع محاولة نقدها وتمحيصها بناءاً على ما توفّر من قرائن وشواهد تاريخية .

المبحث الثالث : أهمية إقليم توات تاريخياً

يستعرض هذا المبحث الأخير المصادر التاريخية التي أشارت وأشادت بإقليم توات وأهميته ، مع التركيز على الأهمية التجارية لمختلف المقاطعات ، خاصة : تمنطيط ، بودة ، تسابيت ، آقبلي وغيرها ، ويُظهر التنافس الإقليمي الشديد حولها ، من خلال التطلعات العثمانية المستمرة ، والرغبة في ربط الجنوب الجزائري بالإيالة العثمانية القائمة بالشمال من جهة ، ومحاولات الاستقطاب المغربي الحثيثة من جهة أخرى .

– خلاصة الفصل

الفصل الأول : البيئة الجغرافية والتاريخية لإقليم توات

يمكن استكشاف إقليم توات واستعراض خصائصه الاجتماعية ومميّزاته الثقافية بناءً على الدراسة الجغرافية الشاملة ، واستنطاق الحقائق التاريخية والسياسية المتتالية ، الخاضعة لتأثيرات المكان في تجلّياته والزمان في دوله ودورانه . ذلك أن " الإنسان ابن بيئته " ، والمحيط يتعدّى الأسوار إلى صناعة الأفكار . ورغم أنّ البيئة التواتية صحراوية جافة ، إلاّ أنّ ذلك لم يحُلْ دون ارتباط الإقليم بامتدادٍ خارجي واسع ، وتحوّله مركزَ استقطابٍ للدول والأفراد . تلك الرؤية ستعالجها مباحثُ هذا الفصل الأول الثلاثة : وأولها الموقع والخصائص الطبيعية ، حيث التمايز بين موقعي توات الجغرافي والفلكي ومناطقه الثلاث ذات القصور المتعددة والمتباعدة ، إضافة إلى مظاهر الإقليم التضاريسية المتباينة ، ثمّ الحديث عن الروايات المتواترة المتعلّقة باسم " توات " في حدّ ذاته ، عرضاً ونقداً ، وأخيراً الأهمية والمكانة التاريخية التي تبوّأها الإقليم وجعلته مثار تنافس بين الدول القائمة ، وهي مكانة شملت حدود الإطار الزمني المخصص للبحث وهو القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) .

المبحث الأول : الموقع والخصائص الطبيعية

01 – موقع إقليم توات :

يحمل مصطلح " توات " أبعاداً ودلالات جغرافية تتناسب طرداً مع المتغيرات التاريخية التي عرفها الإقليم ، إذ يُطلق على أجزاء عديدة من ولايتي أدرار وتمنراست الجنوبيتين حالياً ، بينما رسم له المؤرّخون السابقون حدودا ذات معالم متباينة ، اتّسمت بالبساطة أحيانا وبالتركيب أحايين أخرى [1] .

تحتلّ منطقة توات موقعاً جغرافيا استراتيجيا ما بين شمال الصحراء والساحل الإفريقي المسمّى من قبل الجغرافيين والرحالة العرب بلاد السودان ، إذ يحدها شمالاً واد الساورة ، الذي يربطها بحواضر المغرب الأوسط وكور المغرب الأقصى ، شاقّا مجراه بمحاذاة العرق الغربي الكبير ، وجنوباً رقّ [2] تنزروفت المنبسط

---

[1] – اعتبر العياشي (ت 1090هـ / 1679م) قرى تسابيت أول عمالة توات من جهة الشمال . يُنظر : أبو سالم العياشي ، الرحلة العياشية ، ماء الموائد ، تحقيق : سعيد الفاضلي و سليمان القرشي ، أبو ظبي : دار السويدي للنشر والتوزيع ، 2006 م ، ج 01 ، ص 79 . **بينما** تمتد توات في نظر محمد بن عبد الكريم البكري (ت 1374هـ / 1955م) من تبلكوزة (70كم شمالي تيميمون) شمالاً إلى عين صالح جنوباً . يُنظر محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق التمنطيطي ، درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام ، مخطوط بخزانة سيدي عبد الله البلبالي ، كوسام ، أدرار ، ص 10 . **في حين** حصره مارتان (MARTIN) بين مقاطعتي بودة شمالا و رقّان جنوبا .
A.G.P. MARTIN, Quatre siècles d'histoire marocaine , France : Librairie Félix Alcan , 1923 , P : 10 .

[2] – **الرّق** : منطقة مستوية تغطّيها الحصى ، تسمى . مجازاً . السهل الصحراوي . يُنظر : محمد الهادي لعروق ، أطلس الجزائر والعالم ، الجزائر دار الهدى ، 1998 م ، ص 14 .

نحو أصقاع بلاد السودان ، وشرقاً واد امقيدن (امكيدن) مركز استقطاب القبائل الوافدة نحو الصحراء ، وغرباً عرق شاش [1] .

02 – الموقع الفلكي :

يقع إقليم توات بين خطي الطول **01** درجة شرقاً و **04** درجة غرباً ، وبين دائرتي العرض **26** درجة و **30** درجة شمالاً [2] . مما يعني اشتماله على خط الطول الرئيس " غرينتش "وامتداده شمال العروض المدارية الحارة . وهو تحديد واسع يتيح تقسيم الإقليم إلى ثلاث جهات محلية متباينة جغرافياً ومتمايزة ديمغرافياً ، ارتبط اسمها ـ غالباً ـ باسم " توات " الشامل ، وهي : قورارة في الشمال وتيدكلت إلى الجنوب الشرقي وتوات الوسطى أو تسوات في الوسط .

03 – التقسيم الجغرافي لإقليم توات :

يتوزّع الإقليم على ثلاث جهات في شكل هلال – من الشمال إلى الجنوب – على النحو التالي :

أ– جهة تيكورارين [3] :

وتعرف تاريخياً أيضا باسمي تينجورارين والقُورارة ، لكنَّ الاسم الحديث الغالب عليها هو القورارة ، حدّد ابن خلدون (ت 808هـ / 1406م) موقعها على مسافة عشر مراحل من تلمسان ، في بسيط وادٍ منحدر من المغرب إلى المشرق ، واصفاً إيّاها بأنها " منطقة غاصّة بالسكان ، مستبحرة في العمران ، قصورها كثيرة تقارب المائة ، تسمّى تيكورارين " [4] .

أمّا الحسن الوزّان (ت 957هـ / 1550م) ـ المعروف بليون الإفريقي ـ فقد أشار إلى موقعها شرق تسابيت بنحو 120 ميلاً ، و أنها " منطقة مأهولة بالسكان بين حدائق النخيل ، ذات أراض كثيرة صالحة للزراعة إذا ما تم تسميدها بالسماد ، مشتملة على ما يقرب من خمسين قصرا وأكثر من مائة قرية " [5] .

---

[1]– محمد باي بلعالم ، الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام و الآثار و المخطوطات و العادات وما يربط توات من الجهات ، الجزائر : دار هومة ، ج 01 ، ص 09 .

[2]– محمد حوتية ، توات و الأزواد خلال القرنين 12 هـ و13 هـ دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية ، الجزائر : دار الكتاب العربي ، 2007 م ، ج 01 ، ص 28 .

[3]– **تيكورارين** كلمة أمازيغية تعني المعسكرات أو المخيّمات . ينظر : ثياقة الصديق ، نمط العمارة القصورية ومراحل الاستيطان البشري بإقليم توات ، أعمال الملتقى الوطني الأول المشترك بين جامعتي أدرار وتيارت : العلاقات الحضارية بين إقليم توات وحواضر المغرب الإسلامي ، جامعة أدرار : 14 أبريل 2009 م ، ص 109 .

[4]– عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ، تحقيق : خليل شحادة ، مراجعة سهيل زكّار ، بيروت : دار الفكر ، 2001 م ، ج 07 ، ص 77 .

[5]– الحسن بن محمد الوزّان ، وصف إفريقيا ، ط 2 ، ترجمة : محمد حجي و محمد الأخضر ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، 1983 م ، ج 02 ، ص 134 .

وفي أزمنة متأخرة . نسبياً . أحصى البوداوي الجعفري (ت 1312هـ / 1894م) قصورها في حدود الثلاثمائة قصر ، حيث يقول " وفي شرق تسابيت قصور تيكرارين تنتهي إلى ثلاثمائة أو أكثر ، في واد واحد ينحدر من المغرب إلى المشرق " [1] .

والواقع أن الزيادة في عدد قصور تيكورارين وقراها أو النقصان فيها يُحيلنا إلى صعوبة تصوّر مجال ثابت لهذه المنطقة ، بل السمة الجغرافية الجامعة ـ في نظر عديدٍ من كتبوا عنها ـ أنها متداخلة مع مظاهر تضاريسية متباينة : شرقاً هضبة تادمايت الممتدة حتى شمال تيديكلت ، غرباً واد الساورة ، جنوباً توات الأصل أو توات الوسطى . حيث التماثل على صعيد السكان والمسكن وأسلوب المعاش يكاد يمتد إلى واحات تيديكلت لولا الفوارق اللغوية ، إذ تسود اللهجة الزناتية معظم قصور تيكورارين ، بينما تعرّبت بصفة متدرجة كل من توات وتيديكلت [2] .

- **قصور تيكورارين :**

تنتشر أعداد كبيرة من القصور بين تابلكوزة في الشمال والمطارفة في الجنوب ، يمكن ترتيبها في مناطق رئيسية كما يلي :

01 – منطقة تينركوك : تُجاور العرق الغربي الكبير ، قرب واد امقيدن ، سكنتها قبائل زناتة في مساكن محصّنة ، ثم زحزحتها عن مضربها قبيلةُ المحارزة [3] ، التي استقرّت بالمنطقة بدءاً من القرن الحادي عشر الهجري ، لذا تدعى تينركوك أيضا " بلاد محارزة " [4] .

ومن أهمّ قصورها : تابلكوزة الذي يمثل آخر قصر في الشمال الشرقي ، يرتبط بالمنيعة من خلال طريق غير رئيسية تقطعها الجمال ، وزاوية الدباغ التي أسّسها الشيخ محمد الدباغي ، الوافد من جنوب المغرب الأقصى حوالي سنة 1028هـ / 1619 [5] .

إضافة إلى قصور : فاتيس . عين حمو . تعنطاست ، وقصر قدور القريب منها .

02 – منطقة أولاد سعيد : تعتبر من أقدم مقاطعات تيكورارين وأكثرها أهمية ، تتكون من مجموعة حصون مسكونة من قِبل جماعات من أصول مختلفة أهمها : أولاد لحسن ، أولاد بامحمد ، أولاد القاضـي ،

---

[1] – محمد بن عمر الجعفري البوداوي ، نقل الرواة عن من أبدع قصور توات ، مخطوط بخزانة بن حسان ، تنيلان ، أدرار ، ص 08 .

[2] – للتعرّف على تفاصيل التركيبة السكانية للمجتمع التواتي ومستوى المعيشة يُنظر : الفصل الثالث من هذه الرسالة .

[3] – **المحارزة** : قبيلة عربية من بني عامر ، ارتبط وجودها في تينركوك بمجيء شيخها علي بن مسعود المحرزي من تونس بغية نشر العلم والمعرفة ، كما تنتشر بقصور سالي وتسابيت . ينظر : محمد حوتية ، المرجع السابق ، ج 01 ، ص 70 .

[4] – رشيد بلّيل ، قصور قورارا وأولياؤها الصالحون في المأثور الشفهي والمناقب والأخبار المحلية ، ترجمة : عبد الحميد بورايو ، الجزائر: منشورات المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الإنسان والتاريخ ، 2008 م ، ص 38 .

[5] – رشيد بلّيل ، المرجع نفسه ، ص 193 .

الجازوليون ، يتوزّعون على قصور أهمها : حاج غلمان . الشيخ . كالي . إيغزر . آغلاد [1] .

03 – منطقة تيميمون : هي عاصمة تيكورارين وأهمّ مدنها على الإطلاق ، اعتبرها عبد الرحمان بن إدريس التنلاني (ت 1233هـ / 1818م) قاعدة قرى قورارة [2] ، والممّر الهام للرحّل نحو الشمال ومنه . وهي " مدينة كبيرة منفتحة على الزوّار ، ليس لها أسوار ، منازلها متراصّة مبنية بالطين والطوب ، ذات أسواق عامرة ، أما سكّانها فهم مزيج من أجناس مختلفة ، فهناك البشرة البيضاء والحمراء والسوداء " [3] .

واختلاف الألوان مقترن في تيميمون باختلاف الألسن ، فبعض القبائل يتكلم اللسان العربي الدارج، وصنف آخر يتكلم البربري الزناتي . وبها دور من قبائل الشعانبة [4] ، وبعض أهلها مشهورون بحفر الآبار في الصحاري والقفار [5].

كما تتوزّع على جانبي تيميمون قصور منها : قصر بادريان المرتبط بزاوية آل صوفي . ماسين . بابا عده . تيليوين . تاغيارت . سموتة . أومراد . تين جلاّت . فرعون أومسعد . تلالت . قصبة الكاف . بني مهلال . زاوية سيدي الحاج بلقاسم . تاورسيت . الواجدة ...الخ .

04 – منطقة شروين [6] : تقع قصورها غرب سبخة تيميمون ، شكّلت حيّز استقرار مجموعات مختلفة عبر الأزمنة ، ونقطة انطلاق نحو قصور أخرى ، أهمّها : آت عيسى [7] . آجدير الشرقي (القبلي) . آجدير الغربي . تبو . تاسفاوت . تاوريحت . تينكرم . تاجلزي . تاوريرت . لحمر . حيحا . كالي . آجنتور

---

[1] – يعتبر قصر **آغلاد** موقعاً أثريا ومعلماً سياحيا ، ذا حصون مهدّمة ، حيث وقفتُ على قبرين يُشار إليهما بفخر من قِبل الساكنة المحلية ، ينسبونهما إلى كلٍّ من : السيدة زينب زوجة الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي (ت 909هـ / 1503م) . وهي كريمة شيخه عبد الرحمان الثعالبي (ت 875هـ / 1471م) . وعلي أحد أبناء الشيخ المغيلي .

[2] – عبد الرحمان بن إدريس التنلاني ، الرحلة من توات إلى الجزائر ، مخطوط بخزانة سيدي عبد الله البلبالي ،كوسام ، أدرار ، ص 01 .

[3] – الحاج ابن الدين الأغواطي ، رحلة الأغواطي ، ترجمة : أبو القاسم سعد الله في كتابه أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ، ط 02 ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، 1990 م ، ج 02 ، ص 257 .

[4] – **الشعانبة** : بطن من قبيلة علاّق العربية العدنانية ، من عوف ، من سُليم بن منصور ، كانوا يقيمون بأفريقية الشمالية . توافد قسم منهم من متليلي على توات واستقروا في : تيميمون . زاوية الدباغ . بوعلي . النفيس . أولف . عين صالح . ينظَر : عمر رضا كحّالة ، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ط 8 ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، 1997 م ، ج 02 ، ص 595 . أيضاً : محمد حوتية ، المرجع السابق ج 01 ، ص 73 .

[5] – مولاي أحمد الطاهري الإدريسي ، نسيم النفحات من أخبار توات ومن بها من الصالحين والعلماء الثقات ، تحقيق : مولاي عبد الله الطاهري ، الجزائر : دون دار النشر ، 2010 م ، ص 119 .

[6] – يقرّب سكّان شروين بين اسم قصرهم والتعبير بالعربية : سرّ وين ، أي بمعنى هناك حيث يوجد السر .

[7] – يقابلها بالعربية أولاد عيسى ، كما يقابل أولاد سعيد آت سعيد ، وآت القاضي أولاد القاضي ، إذ أنّ آت كذا تعني أهل كذا ، والقياس على ذلك . حسب إفادة السيد عبد الله الجوزي من أولاد سعيد .

05– منطقة طلمين : تدعى قصور العرق ، وتقع على تخوم تيكورارين الغربية ، أهمّها :
تاغوزي . الساقية ، إضافة إلى تعربين . نعامة . عين جلو وغيرها .

06 – منطقة أوقروت : ذكر العياشي (ت 1090هـ / 1679م) أوقروت باسم أوكرت ، ووصف كثرة نخلها محدّدا انتماءها قائلاً : " وهي قرى كثيرة ذات نخيل جمّ ، وهي معدودة من بلاد تجورارين " [1]
ومن قصور أوقروت الشهيرة : دلدول . إقسطن . البركة . توكي . تبرغامين . تالة . تنقلين .

07 – منطقة المطارفة : توجد قصور المطارفة بمحاذاة الأوقروت ، فهي الحدّ الفاصل بين تيكورارين وتوات الأصلية ، وهي بلاد ذات رمل ، وتسمّى قرى الدغامشة [2] ، ومنها :
أولاد محمود . أولاد راشد . أولاد علي . الساهلة . أوفران . كبرتن .

ب – جهة توات الوسطى وقصورها :

هي قاعدة أضلاع مثلث توات الكبرى ، ومصدر التسمية الجامعة ، لذا تسمى توات الأصلية ، تبدأ من أعالي قصور تسابيت . عريان الراس . شمالا إلى غاية انتهنت (رقان) جنوبا [3] ، وتشتمل على سلسلة مترابطة من المناطق أهمها :

01 – منطقة تسابيت : ذكرها الحسن الوزّان (ت 957هـ / 1550م) باسم تسبت ، واعتبرها من الأقاليم المأهولة في الصحراء ، تضمّ أربعة قصور وقرى عديدة ، أمّا أرضها فتنبت التمر وقليلا من الشعير [4] لكنّ عدد قصورها بعد القرن العاشر يتجاوز الأربعة وأهمّها :
عريان الراس . برينكان . حماد . لعياد . أوجلان . لمعيز . الهبلة . لقصابي . بن طلحة . اسبع . القرارة .

02 – منطقة بودة : وصفها ابن بطوطة (ت 779هـ / 1377م) في رحلته بأنها " من أكبر قرى توات، وأرضها رمال وسباخ وتمرها كثير ليس بطيّب " [5] ، وتضمّ بودة أو بودى قصورا عديدة أهمها :
ابنيلو . زاوية الشيخ ابن عمر . بن دراعو . الغماريين . الغمارة . القصيبة . المنصور . زاوية سيدي حيدة . بني وزال . أولاد إعيش .

---

[1]– أبو سالم العياشي ، المصدر السابق ، ج 01 ، ص 81 .

[2]– في رواية الدرامشة ، وفي أخرى الدغامسة ، وفي ثالثة الدعامشة ، وهي قرى كثيرة بقرب أوكرت من توات . ينظر : أبو سالم العياشي ، المصدر نفسه ، ج 01 ، ص 81 .

[3]– محمد باي بلعالم ، المرجع السابق ، ج 01 ، ص 09 .

[4]– الحسن بن محمد الوزان ، المصدر السابق ، ج 02 ، ص 133 .

[5]– محمد بن عبد الله ابن بطوطة ، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، تحقيق : عبد الهادي التازي ، الرباط : أكاديمية المملكة المغربية ، 1997 م ، ج 04 ، ص 279 .

03 – منطقة تيمي [1] : هي أحد مراكز توات الكبرى ، كانت في القرن 12 هـ / 18 م محلّ الحل والعقد ومجتمع الحرب والسلم ، تتنافس الرئاسة مع عين صالح وتيميمون . كانت بها أسواق يقصدها التجار من كل مكان ، للبيع والشراء بجميع السلع المتنوعة [2] . وقصورها معروفة ذات صيت منها :

أولاد بوحفص . مهدية . منصورية . أولاد ابراهيم . أولاد أحمد . أولاد عيسى . أولاد علي . أولاد أوشن . أولاد أنقال . بني تامر . آدغا . بربع . أوقديم . كوسام . ملوكة . ميمون . واينه .

إضافة إلى قصر تينيلان [3] القديم المشهور القريب منها .

04 – منطقة تمنطيط : تواترَ ذكرها في عديد المصادر ، مما يشير إلى أقدميتها وأهميتها ، ارتبط اسمها بواقعة إجلاء اليهود على يد الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي (ت 909هـ / 1503م) وقصتها مشهورة . تقع جنوب تيمي ويحاذي سبختَها المنخفضة عن مستوى سطح البحر مدرجُ قصبات ، على هضبة صخرية ، مغطاة بطبقة من الرمال والحجارة ، محاطة بالبساتين وواحات النخيل [4] .

اعتبر ابن خلدون (ت 808هـ / 1406م) تمنطيط آخر قصور توات من جهة المشرق ، وأنها حاضرة ذات تجارة وعمارة ، تنطلق من طريقها القوافل نحو بلاد السودان ذهابا وإياباً ، بعدما دالت الأيام على طريق بودة ، حيث قال : "...يسميّ تمنطيت ، وهو بلد مستبحر في العمران " ، إلى أن قال " فتركوا تلك ، ونهجوا الطريق إلى بلد السودان من أعلى تمنطيت " [5] .

أمّا محمد الطيب بن عبد الرحيم التمنطيطي (ت بعد 1210هـ / 1795م) صاحب " البسيط في أخبار تمنطيط " ، فقد أوجز وصفها في كلمات جامعات ، حيث قال : " فاعلم أن تمنطيط اسم المدينة في إقليم اتوات وهي بها قاعدة ، فيها العلم والولاية والإمارة والديانة والرياسة ، انتصبت بها الأسواق والصنائع والتجارة والبضائع ، وكاد أن لا يستغني عنها غني ولا زاهد " [6] . وهو وصف يُحيلنا إلى المهام ذات الأوجه المتعددة التي اضطلعت بها حاضرة تمنطيط .

---

[1] – لا يزال العوام يسقطون اسم تيمي على حاضرة أدرار الحالية ، معتبرين تيمي المدينة القديمة وأدرار المدينة الجديدة .

[2] – مولاي أحمد الطاهري الإدريسي ، المصدر السابق ، ص 105 .

[3] – **تينيلان** من المراكز الثقافية الهامة في تاريخ توات ، لفظها مركب من مقطعين : تين و إيلال ، وتعني مكان الأحرار . ينظر : محمد باي بلعالم ، المرجع السابق ، ج 01 ، ص 20 .

[4] – محمد بن سويسي ، العمارة الدينية الإسلامية في منطقة توات تمنطيط نموذجا من القرن 6 هـ إلى 13 هـ ، مذكرة ماجستير في الآثار الإسلامية ، إشراف : أ د . عبد العزيز محمود لعرج ، معهد الآثار ، جامعة الجزائر ، 2007 / 2008م ، ص 31 .

[5] – عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج 07 ، ص 77 .

[6] – محمد الطيب بن عبد الرحيم (ابن بابا حيدة) ، القول البسيط في أخبار تمنطيط ، مخطوط بخزانة الحاج محمد بكراوي ، زاوية سيدي البكري ، أدرار ، ص 02 .

كما أنّه أحصى قصورها ـ المتصلة بنياناً والمتلاصقة عمراناً ـ ثلاثمائة وستة وستين قصراً [1] ، حيث يحلُّ الضيف كلَّ يوم بأحد القصور على مدار أيّام السنة [2] .

ومن تلك القصور المتصلة بتمنطيط والمرتبطة بها نذكر ما يلي :

زاوية سيدي البكري . أولاد الحاج مامون . بالحاج . بوفادي . توكي . نوم الناس . آنكير . أبنكور ...

05 – منطقة فنوغيل : تشتهر هذه المقاطعة بالقصر العتيق ، زاوية سيدي عبد القادر الكنتي ، الملازم لتسمية المقاطعة وشهرتها ، إضافة إلى قصور قديمة ، على غرار :

عزّي . باعمور (أبّا عمر) . مكرة . قصبة أولاد مولاي بوفارس . سيدي يوسف . قصبة أولاد مولاي لحسن . أولاد برشيد . تسفاوت . اعباني . العلوشية . ودغة . بن هني .

وتتركّز جنوب فنوغيل مجموعة قصور وقصبات [3] ، مبنية فوق الحجارة الصلدة منها : بويحيا . الجديد . لحمر . اكيس . تماسخت . أغيل . تيطاف . غرميانو .

06 – منطقة زاوية كنتة : تتوسط توات الحنة (الوسطى) ، وتتميز بوجود زاوية الرقّادي [4] ، ينتشر على جانبيها 17 قصراً أهمّها :

المناصير . أولاد الحاج . بوحامد . زاقلو . تيوريرين . مكّيد . أغيل . تماسخت . تاخفيفت . تازولت . آظوى . أغرماملال . زاوية الشيخ بن عبد الكريم المغيلي ، وبمحاذاتها قصر بوعلي حيث استقرّ الشيخ المغيلي أواخر حياته . وهو قصر قديم نزل به البرامكة [5] ، الوافدون من المشرق بعد نكبتهم على يد الخليفة العباسي هارون الرشيد (170هـ . 194هـ) وتشرذمهم في الأمصار ، وكان حلولهم بهذه المنطقة المعروفة بتوات الحنّة حوالي 432هـ / 1040م [6] ، واتخذوا بوعلي مركزا لتجارتهم نحو البقاع والأصقاع المجاورة . فهو بذلك أكبر قصر للبرامكة في توات .

---

[1] – هذا الكمّ الهائل من القصور في مقاطعة تمنطيط وحدها يجعلنا نستقلّ العدد الإجمالي لقصور توات بأكملها ، المذكور في معظم الروايات التاريخية ، ومنها درّة الأقلام . ينظر : محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق التمنطيطي ، المصدر السابق ، ص 01 .

[2] – ابن بابا حيدة ، المصدر السابق ، ص 02 .

[3] – **القصر** في الصحراء فضاء مشترك بين مجموعات بشرية ، ذات مصلحة واحدة أو انتماء واحد . أمّا **القصبة** فهي قلعة يحيطها سور ، مشيّدة على أساس دفاعي ، وهي جزء من القصر . ينظر : محمد بن سويسي ، المرجع السابق ، ص 37 .

[4] – من الزوايا البارزة بالإقليم خلال القرن 12 هـ ، للمزيد حول تأسيسها ودورها ينظر : الفصل الرابع من هذه الرسالة ، ص 120 .

[5] – **البرامكة** أحفاد برمك الفارسي ، من أعظم الأُسر تاريخاً وأشهرها اسماً في صدر الدولة العباسية ، منهم خالد ويحي والفضل وجعفر وزراء بني العباس ، تضاربت الآراء حول أسباب إيقاع الرشيد بهم سنة 187هـ / 803م . ينظر : محمد الخضري ، الدولة العباسية ، ط 3 بيروت : دار المعرفة ، 1997 م ، ص 106 .

[6] -Bernard Saffroy , chronique du Touat , Ghardaia : C-D-S , P : 02 .

07 – منطقة آنزجمير : آنزجمير قصران كبيران : قصر يسكنه العرب ، وقصر يسكنه الأنصار المنتسِبون إلى الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري الخزرجي [1] ، وتقع جنوبها قصور عامرة أهمّها :

تيدماين . أوغزير . الخلفي . زاوية بلال . تيطّاوين . تيلولين القرية الكبيرة ذات القصور الجزئية العديدة .

08 – منطقة سالي : تتكون من ثمانية عشر قصراً ، جلّها يشكّل هلالاً خصباً من الواحات ، أقدمها وأكبرها قصر المنصور ، حيث استقرّ بعض البرامكة القادمين من العراق مع من سبقهم من قبائل زناتة وصنهاجة البربريتين [2] ، وترتبط به قصور أخرى وقصبات أهمها :

برماتة . قصبة الجنة . قصبة النجّار . قصبة أولاد مولاي علي . المحارزة المتفرّعة عنها قصبة القائد المسماة (أبّابلة) . العلوشية . قصبة سيدي الشريف . القصر الجديد . قصبة أولاد مولاي عبد الواحد وأخيراً أولاد مولاي العربي .

أما الجزء الآخر من منطقة سالي فهو منعزل . جغرافياً . يضمّ قصورا مأهولة مرتبة كما يلي :

تينورت ذات القصبات المتعددة . برّيش . قصبة الحاج امبارك (المعروفة باسم بريش التحتاني) . باحو . ميمون . المستور . زاوية الحشف .

09 – منطقة رقّان : تُذكر كذلك باسم الرّكّان ، وهي آخر مناطق توات الوسطى جنوباً ، والمنعطف الأخير نحو منطقة تيدكلت شرقاً ، ونحو تنزروفت جنوباً ، ارتبط اسمها بالعالم الشيخ مولاي عبد الله الرقاني (ت 1148هـ / 1735م) ، وابنه الفقيه مولاي عبد المالك الرقاني (ت1207هـ / 1793م) نزيلي زاويتها المشهورة . ويقابل هذه الزاوية شمالاً قصرٌ كثير السكان يسمى تمادنين ، يمتد على أحياء وقصبات ، يقطنه بعض الكنتاويين [3] والفلانيين [4] ، وتتفرّع عن المنطقة قصور أخرى منها :

النفيس . آيت المسعود . آنزقلوف . تاوريرت . ازرافيل . تينولاف . تاعرابت .

---

[1] – **أبو أيوب الأنصاري** اسمه خالد بن زيد بن كليب ، خصّه النبي . صلى الله عليه وسلم . بالنزول عليه في بني النجّار ، وقد روى عدة أحاديث ، مات غازياً بلاد الروم سنة 52 هـ ، وقبره معلوم يُزار في مدينة اسطنبول التركية . ينظر : شمس الدين محمد بن أحمد الذّهبي ، سير أعلام النبلاء ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط ، ط 11 ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، 1996 م ، ج 02 ، ص 402 .

[2] – مولاي أحمد الطاهري الإدريسي ، المصدر السابق ، ص 82 .

[3] – **الكنتاويون** ينتسبون إلى عقبة بن نافع الفهري القرشي ، فاتحِ بلاد المغرب ومؤسّس القيروان ، استشهد في معركة تهودة قرب بسكرة سنة 63هـ / 683م ، خلّف ابناً يسمى العاقب ومنه تفرّق نسله في بلاد المغرب ، وهذا ما يشير إليه الشيخ سيدي محمد بن بادي :

كنتة أتت بالاتفاق الشائعِ للمستجاب عقبة بن نافعِ

جدّ قريش كلها الأصـــح وقيل من نضر جميعها وصح

ينظر : محمد الصالح حوتية ، المرجع السابق ، ج 01 ، ص66 .

[4] – **فلان** بطن من عرب حِمير . ينظر : كحّالة عمر رضا ، المرجع السابق ، ج 03 ، ص 927 .

ج ـ جهة تيديكلت وقصورها :

تيدكلت مصطلح بربري يعني راحة اليد (الكف) ، تقع هذه المنطقة جهة الشرق من توات الوسطى باتجاه الهقار " بلاد الطوارق " ، تنتشر بها واحات النخيل وحوالي 50 قصراً وتنقسم إلى شرقية عاصمتها " عين صالح " وغربية عاصمتها " أولف " [1] . ربطت هذه المنطقة لقرون عديدة بين مقاطعتين تنتميان ـ حالياً ـ لولايتين مختلفتين هما أولف بالنسبة لأدرار ، وعين صالح بالنسبة لتمنراست ، ولعلّ تميّزها عن المنطقتين الأخريين جعل الاسم المرادف لها هو " بلاد تدكلت " [2] على غرار " البلاد التواتية " ، أمّا مناطقها فتبدو أقلّ من مناطق نظيرتيها ومنها :

01 – منطقة أولف : تكاد المصادر التاريخية تخلو من ذكر أولف خلافاً لما وجدناه بالنسبة لجهتي تيكورارين وتوات ، غير أنّ الأغواطي (ت 1244هـ / 1828م) بسط الحديث في رحلته عن موقعها وأهميتها ، إذ اعتبرها " البلدة الرئيسة في واحة توات ، ولها نفوذ على المنطقة ، والسلطان فيها له جنود تضرب بين أيديهم الطبول ، وله سلطة توقيع العقوبة والسجن ، وهو يمتلك الخيول والرجال ، ولكن ليس له خزانة دراهم " [3] . وتلك إشارة ضمنية إلى نوعٍ من الاستقلال الإداري والسياسي من جهة ، مقابل تبعية جغرافية إقليمية للواحات التواتية من جهة أخرى .

وأمّا بخصوص تفاصيل بنائها وأسوارها ومميّزات سكانها فيقول الأغواطي "وبلدة أولف محاطة بأسوار مبنية بالطين وفيها الماء الوافر والتمر ، وللسكان عدد كبير من العبيد " [4] .

وبالنسبة لتاريخها واختطاطها فإنّ الآراء تتضارب حول أسبقيتها لمدينة أقبلي تأسيساً ، في حين يرجع تاريخها بناءً على ما حملته جدران أحد مساجدها العتيقة إلى سنة 164هـ / 781م [5] ، ومن قصورها : زاوية حينون . قصبة بلال . عمنات . قصبة ميخاف . الركينة . الجديد . تقراف . قصبة حبادات .

02 – منطقة تمقطن : وهي أكبر المناطق قصوراً وسكانا ، كانت خلال القرن 12 هـ المدخل الحتمي لبلاد تيدكلت ، يعبرُ منه التجّار والزوّار والطلبة والحجّاج [6] . تحوي قصوراً أهمها ـ معاينةً ـ :

أولف الكبير . أخنوس . أولاد الحاج . زاوية مولاي هيبة . قصبة السيد . إينر . تمقطن . قصبة الجنات أولاد مولاي رشيد . المرقب . الميمون (قوقو حالياً) . عين بلبال . مطريون .

---

[1]– الصديق ثياقة ، المرجع السابق ، ص 109 .

[2]– عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، رحلة حجية لعام 1188 هـ ، مخطوط بخزانة قصر باعبد الله ، تيمي ، أدرار ، ص 03 .

[3]– الحاج ابن الدين الأغواطي ، المصدر السابق ، ص 257 .

[4]– المصدر نفسه ، ص 258 .

[5]– محمد باي بلعالم ، المرجع السابق ، ج 02 ، ص 333 .

[6]– تقع تمقطن في مسار قوافل الحجاج على الطريق السفلية . ينظر : عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، المصدر السابق ، ص 03 .

03 – منطقة تيط : وهي منطقة صغيرة تذكر أيضاً باسم طيت ، وهو جذر لكلمة تمنطيت المركبة ، ومعناه العين . غير أن قصورها قليلة تزاحم رمال الصحراء ومنها : قرية تيط . قصبة الشرفاء .

04 – منطقة أقبلي : أقبلي بلاد شهيرة في تيدكلت ، ذاع صيتها كمحطّةٍ ومركزٍ عبور للحجاج القادمين من بلاد السودان ، وسوقٍ تجارية هامة بين تلك البلاد وتوات . وهي عبارة عن قصور متوارية بين العروق ، يسكنها كثير من السكان ذوو أنساب مختلفة ، فهناك " الكنتاويون العقباويون ، وهناك عرب هلاليون ، وهناك موالٍ صالحون ، وهناك شرفاء برّيشيون علويون .. " [1] . وتتكون أقبلي من القصور التالية :

ساهل . أركشاش . المنصور . زاوية أبي نعامة التي اشتقّت اسمها من اسم الشيخ سيدي محمد بن عبد الرحمن أبي نعامة ، المعروف بشيخ الرّكب النبوي ، وهو الذي أحيا سنّة الحج من بلاد توات والتكرور [2] منذ تأسيس تلك الزاوية سنة 1137هـ / 1725م [3] ، حيث أصبحت نقطة تجمّع لحجّاج الصقعين ذهاباً ، وعلامة افتراق ووداع بعد أداء المناسك إياباً .

05 – منطقة اينغر : هي الحدّ الفاصل بين تيدكلت الشرقية وتيدكلت الغربية ، تقع في المنحدر الموالي لهضبة تادمايت ، فلا عجب إذاً أن يحمل اسمها معنى الشعبة أو المكان المنخفض [4] . وتنتشر قصورها بين واحات النخيل الباسقة ، ويحمل بعضها أسماء تدلّ على جغرافيتها ومنها :

السبخة . أقبور . لكحل . مليانة . الشويطر ، بالإضافة إلى قصبات وزوايا اندثر بعضها وأصبح أثراً بعد عين ، على غرار قصبة سيد البكري (ت 1133هـ / 1721م) واجهة إينغر من الجهة الجنوبية [5] .

وهي منطقة كبيرة عرفت بالصلاح والصالحين قديماً ، وبالصمود والجهاد حديثاً . وما معركة إينغر الشهيرة سنة 1317هـ / 1900م . حيث ألحقت القبائل التواتية مجتمِعة بالعدو الفرنسي خسائر جسيمة في الأرواح والعتاد . إلاّ صورة عاكسة لتلك المدينة العامرة ، فحقّ لها الفخر بلقب " مدينة الشهداء " [6] .

---

[1]– مولاي أحمد الطاهري الإدريسي ، المصدر السابق ، ص 73 .

[2]– **التكرور** إقليم واسع جنوب الصحراء يمتد شرقاً إلى أدغاغ وشمالا إلى آدرار (شمال مالي) ، من أهم مدنه تنبكتو وأروان .
ينظر : أبو عبد الله الطالب محمد البرتلي ، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور ، ط 1 ، تحقيق : ابراهيم الكتاني ومحمد حجي ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، 1981 م ، ص 26 .

[3]– محمد باي بلعالم ، المرجع السابق ، ج 01 ، ص 421 .

[4]– المرجع نفسه ، ج 01 ، ص 18 .

[5]– لا يدلّ على ماضي تلك القصبة وتاريخها سوى آثارُها وأطلالها القابعة على بعد 07 كم جنوب إينغر ، فقد شاهدتُ بها بقايا خانٍ مبني بالحجارة ذي غرف متسلسلة تَسَعُ المسافرين ورواحلهم ، تجاوره مقبرة تكاد معالمها تندرس .

[6]– مولاي أحمد الطاهري الإدريسي ، المصدر السابق ، ص 71 .

06 – منطقة عين صالح [1] : تعتبر عاصمة تيدكلت الشرقية ، وهي مدينة كبيرة يُدرجها بعض المؤرخين خارج الديار التواتية ، ومنهم الأغواطي (ت 1244هـ / 1828م) حيث قال " وبعد توات تأتي عين صالح في الجنوب ، ثم تأتي بلاد السودان في أقصى الجنوب " [2] ، لكنَّ الرأيَ محلّ الإجماع أنها جزء من الإقليم التواتي . ترتفع عن مستوى سطح البحر بسبب وقوعها بمحاذاة هضبة تادمايت . كانت خلال القرن 12 هـ محطّة رئيسة لقوافل الحجّاج المنطلقين من زاوية أبي نعامة صوبها عبر طريق الغابة [3] ، تشتهر بوفرة النخيل والمياه الباطنية الهائلة المتفجّرة في عيونها وآبارها ، ولعلّ " عين " صالح إحدى تلك العيون .

أمّا قصور عين صالح فعديدة ، تتخللها واحات النخيل منها :

قصر لعرب . أولاد الحاج . الدغامشة . البركة . حاسي لحجار . الساهلة . إيكسطن . فقارة لعرب . الزاوية . فقارة الزوى ، وهو آخر القصور التواتية من جهة منطقة تيدكلت [4] .

هذا ويتبين من خلال إحصاء القصور السابقة الذكر أنّ عددها ـ موزّعة على الجهات الثلاث ـ يتجاوز ثلاثمائة وثلاثين قصراً [5] ، بالإضافة إلى عشرات القرى والقصبات والأحياء الصغيرة المتناثرة على جوانبها . وسواء نقصَ العدد أو ازداد ، فإن الثابت هو تنوّع تلك القصور وغناها جغرافيا وديموغرافياً وارتباطها الوثيق ببعضها في شكل وحدات أو خلايا هي جوهر النسيج التواتي .

ومن تصاريف الأقدار أن يرتبط اسم العالم الشيخ عبد الرحمن الجنتوري (ت 1160هـ/1747م) وعائلته بتلك الجهات الثلاث ، فهو ينتمي إلى توات الوسطى اعتباراً بأصله المنحدر من قصر تيطاف ، وهو تيدكلتي ارتباطاً بعين صالح حيث درس وتعلّم ، وهو تيكوراري دفين قصر اجنتور ، لذلك كان يُعبّر عن انتمائه الجغرافي في نوازله وفتاواه بالاسم الجامع " بلاد توات " [6] .

---

[1]– يرى الشيخ محمد باي بلعالم (ت 1430هـ / 2009م) أنّ اسم عين صالح مرتبط باسم صالح باي (ت 1206هـ / 1792م) حاكم قسنطينة في العهد العثماني ، ولعلّ في هذا الانتساب نظراً ، حيث ورد ذكر عين صالح في عديد المصادر المحلية المخطوطة السابقة لعصر صالح باي بسنين . ينظر : محمد باي بلعالم ، المرجع السابق ، ج 02 ، ص 41 / عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، الرحلة الحجية ، ص 03 / عبد الرحمن الجنتوري ، نوازل الجنتوري ، مخطوط بخزانة قصر با عبد الله ، تيمي ، أدرار ، ص 74 .

[2]– الحاج ابن الدين الأغواطي ، المصدر السابق ، ص 258 .

[3]– عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، الرحلة الحجية ، ص 03 .

[4]– اعتمدتُ في رصد جميع القصور المذكورة وترتيبها على المعاينة الشخصية الميدانية ، وعلى معلومات الأعيان الشفهية ، ومطابقتها مع ما ورد في المصادر والمراجع ذات الصلة ، على غرار نسيم النفحات ونقل الرواة والرحلة العلية وتوات والأزواد ... الخ .

[5]– محمد باي بلعالم ، المرجع السابق ، ج 01 ، ص 18 .

[6]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 20 ، ص 65 ، ص 66 .

04- التضاريس والمناخ :

يقع الإقليم التواتي في عمق الصحراء الكبرى ، والرمال هي المظهر التضاريسي الغالب [1] ، إذا ما استثنينا مئات الواحات المنتشرة هنا وهناك ، وتحيط به كثبان رملية عالية ومتحركة تتمثل في العرق الغربي الكبير وعرق الشاش وعرق إيقدي ، أمّا من الجهة الشرقية فتحيط به هضبة تادمايت ، أكبر الهضاب الصخرية الجيرية الصحراوية ، والتي ترتفع بـ 836 متراً عن مستوى سطح البحر [2] .

وبما أنّ التضاريس صورة عاكسة للمناخ السائد ، فإن الغالب هو مناخ صحراوي جاف ، يتميز بارتفاع درجة الحرارة صيفاً والبرودة شتاءً ، ممّا جعل المدى الحراري [3] كبيراً شاسعاً . أما كمية تساقط الأمطار فتقلّ عن 25 ملم سنوياً ، وهذا ما يجعل السنة تتكون من فصلين فقط ، أحدهما بارد يمتد من ديسمبر إلى فبراير ، أما باقي شهور السنة فتتميز بارتفاع درجة الحرارة ، التي تتجاوز الخمسين درجة مئوية ، ويرجع ذلك إلى تأثيرات الموقع الفلكي القريب من مدار السرطان ، وهبوب الرياح الحارة المعروفة علمياً برياح السيروكو ومحلياً بـ " آريفي " .

وقد تركتْ تلك الظروف المناخية القاسية أثرها على الغطاء النباتي ، فاقتصر على التشكيلات النباتية المتآلفة مع الجفاف وارتفاع الحرارة ، كالنخيل والدرين والصبّار ، إضافة لبعض الشجيرات الموسمية التي وجدتْ في مجاري الأودية مرتعاً خصباً ، فتنمو بسيلانها وتختفي بجفافها . والغابات ـ رغم ندرتها ـ لم تعدم وجوداً ، بل هناك طرق ومسارات شُقّت بين أشجارها مثل طريق الغابة بين آقبلي وعين صالح [4] .

والإنسان التواتي لم يقف عاجزاً مكتوف الأيدي أمام تلك الصّعاب ، بل تحدّى الرمال وطوّع الحجارة ، فإذا هي تشقّق فيخرج منها الماء ، وابتكر عجيبة فريدة في استخراج تلك المياه وتوزيعها ، أصبحت نظاماً قائما يثير الدهشة والإعجاب يُعرف بالفقّارة [5] ، وذاك ما ذكره ابن خلدون في معـــــرض

---

[1]- يتندّر العياشي (ت 1090هـ / 1679م) في رحلته بكثرة تلك الرمال قائلاً " وعلمنا عند ذلك حسنَ مبالغة القائل : اللهمّ صلِّ على سيدنا محمد عدد الرمال " . ينظر : أبو سالم العياشي ، المصدر السابق ، ج 01 ، ص 107 .

[2]- يسمى هذا النوع من الهضاب الصحراوية بالحمّادات . ينظر : محمد الهادي لعروق ، المرجع السابق ، ص 12 .

[3]- **المدى الحراري** : الفرق بين أعلى درجة حرارة وأدنى درجة حرارة مسجلتين في السنة الواحدة . المرجع نفسه ، ص 13 .

[4]- عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، الرحلة الحجية ، ص 03 .

[5]- **الفقّارة** مجموعة من الآبار المتسلسلة الموصَلة بعضها ببعض ، تبدأ باثنين أو ثلاث من مكان مرتفع ، وينتهي ماؤُها جارياً في ساقية على وجه الأرض . قيل أن أصلها **الفجّارة** من تفجير المياه والأنهار . ينظر : مولاي أحمد الطاهري الإدريسي ، المصدر السابق ، ص 57 . وقيل أنها تشبيه لصفة **فقارة الظهر** أي العمود الفقري . ينظر : محمد بن عمر الجعفري البوداوي ، المصدر السابق ، ص 14 . وفي لسان العرب : من **الفُقُر** وهي آبار تُحفَر وينفُذ بعضها إلى بعض . ينظر : ابن منظور ، لسان العرب ، تحقيق : عبد الله علي الكبير وآخرون ، القاهرة : دار المعارف ، ج 05 ، ص 3446 .

حديثه عن قبائل المنطقة ونشاطاتها قائلاً " وفي هذه البلاد الصحراوية غريبة في استنباط المياه الجارية ، لا توجد في تلول المغرب ، وذلك أن البئر تحفر عميقة بعيدة المهوى ، وتطوى جوانبها إلى أن يوصل بالحفر إلى حجارة صلدة ، ... ثم يجري على وجه الأرض وادياً " [1] .

05 – الأودية في توات :

الأودية شكل من أشكال المجاري المائية ، وهي في الصحراء قاطبةً غيرُ قارّة ، ترتبط بسقوط الأمطار وتفجّر العيون والينابيع ، لذا يسمّونها الأودية الكاذبة أو الفجائية ، أمّا إقليم توات ـ تحديداً ـ فتنتهي به ثلاثة أودية من جهات متباينة [2] ، تصبّ مياهها في رماله مغذّية تلك الآبار والفقاقير ، وهي : وادي امقيدن ، وادي مسعود ، وادي قاريت .

أ– وادي امقيدن [3] :

ينطلق من منبعه في المنيعة ، وينتهي بمنطقة تيكورارين مكوّنا سبخة قورارة ، وهو امتداد لواد سفور ، ويظهر في مجراه الأخير باسم واد شيدون ، كان هذا الوادي قبل القرن 12 هـ فضاءً للرعي ، من قِبل الرحل القادمين من جهتي الشمال و الشمال الشرقي . ذكره العياشي (ت 1090هـ / 1679م) في رحلته باسم وادي ايمكيدن ، مندهشاً من غزارة مياهه وكثرة معاطنها ، وافتخار السكّان به وبمائه العذب الرقراق ، يقول العياشي : " ومعاطن المياه كثيرة في هذا الوادي ، قلَّ ما يخلو يوم من منهل ، وماؤه عذب غزير ، وفيه يقول أعراب ذلك البلد :

واد امكيدن ما نعطش فيه كل يوم نجيه على ماء " [4]

ورغم افتخار الأهالي بواد امكيدن ، إلاّ أنهم كانوا يضطرون في بعض الأحيان إلى طمس مناهله ، خوفَ استغلالها من قِبل القبائل المغيرة المتعدّية عليهم ، وبالتالي قطع الطريق أمام أيّ محاولة للتوغّل نحو توات . أمّا قوافل الحجّ فإنها لم تزلْ تسير بمحاذاة ذلك الوادي ترِدُ الماء يوماً بعد يوم [5] .

ب– وادي مسعود :

تنتشر معظم قصور توات الوسطى ـ خاصة ـ بمحاذاة وادي مسعود شرقاً ، الذي يعتبر امتدادا لـــواد

---

[1]– عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج 07 ، ص 77 .

[2]– فرج محمود فرج ، إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين ، أطروحة لنيل دكتوراه الدور الثالث في التاريخ ، إشراف أبي القاسم سعد الله ، الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية ، 1977 م ، ص 02 .

[3]– **امقيدن** مشتقة من أمقيد ، وهي كلمة بربرية تعني المكان الرطب الذي توجد به المياه . ينظر : رشيد بلّيل ، المرجع السابق ، ص 35 .

[4]– أبو سالم العياشي ، المصدر السابق ، ج 01 ، ص 107 .

[5]– المصدر نفسه ، ج 01 ، ص 107 .

الساورة الوافد من جهة الشمال ، أمّا واد الساورة فهو بدوره مجمع لواديين كبيرين هما : واد قير وواد زوزفانة النابع من منطقة فقيق بالمغرب الأقصى [1] .

والمصدر الرئيس من المياه لواد مسعود هو وادي **قير** ، الذي ينحدر من جبال الأطلس بالمغرب ، ثمّ يلتقي ـ كما ذكرنا سابقاً ـ مع واد زوزفانة ، مكوّنين رافداً جديداً منطلقاً من منطقة إقلي ، هو واد الساورة الذي يجري نحو الجنوب إلى مشارف إقليم توات ، حيث يحمل اسمه الأخير " وادي مسعود " ، وعندما يصل قصور تاسفاوت ـ جنوب غرب تمنطيط ـ يكوّن سبخة كبيرة ، وبعد اختراقه لهذه السبخة يتجه نحو مقاطعة رقان غائراً في سهل (رقّ) تنزروفت [2] .

وحدث أن سجّل هذا الوادي ـ وادي مسعود ـ حالات كثيرة من السيول والفيضانات ، غمرت أجزاء عديدة من القصور والواحات ، وصلت في سنة 1121هـ / 1709م إلى غاية رقّان [3] .

وقد رصد ابن خلدون (ت 808هـ / 1406م) رحلة ذلك الوادي الطويلة من منبعه جنوب المغرب الأقصى موازياً لنهر ملوية الشهير ، وباسمه الأصلي وادي كير (قير) ، دون الإشارة إلى الأسماء السابقة ـ والتي قد تكون محدَثة ـ وصولاً إلى البلاد التواتية في ما نصّه : " وينبع مع هذا النهر من فوهته نهر كبير ، ينحدر ذاهباً إلى القبلة مشرقاً بعض الشيء ، ويقطع العرق على سمته إلى أن ينتهي إلى بودة ، ثمّ بعدها إلى تمنطيت ، ويسمّى لهذا العهد **كير** وعليه قصورها ، ثمّ يمرّ إلى أن يصبّ في القفار ويروغ في قفارها ويغور في رمالها ، وهو موضع مقامه قصور ذات نخل تسمّى ركّان " [4] .

أمّا العياشي (ت 1090هـ / 1679م) فقد وصف وادي **جير** (**قير**) بأنه كبير أفْيَح ، من أطول أودية المغرب مسافةً ، ملتفّ الأشجار ، قليل الأحجار ، وذكر وادي الساورة باسم " الأساور " الذي تتصل قراه نحو من عشرة أيام إلى قريب من توات ، لكنّه جعل مُنتهاه بعد ذلك الانعطاف يميناً في رمال كثيرة [5] ، دون تفصيلٍ لمساره ومصبّه في أرجاء توات .

ج- وادي قاريت :

وهو ثالث الأودية المرتبطة بإقليم توات ، ينطلق من الشمال الشرقي لتيدكلت ، مستفيداً من الانحدارات المتتالية لهضبة تادمايت ، عابراً بعض أجزاء المنطقة ، ليصُبَّ مياهه في الأخير بالجهة الجنوبيـــة

[1]- فرج محمود فرج ، المرجع السابق ، ص 02 .

[2]- المرجع نفسه ، ص 02 .

[3]- Bernard Saffroy , op.cit , p 13 .

[4]- عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج 06 ، ص 134 .

[5]- أبو سالم العياشي ، المصدر السابق ، ج 01 ، ص 76 .

الغربية للإقليم ، حتى يتصل في نهايته بوادي مسعود ، ويصبح رافداً له [1] . ويتضّح أنه أقلّ قيمة إذا ما قورن بالواديين السابقين ، نظراً لطبيعة مجراه الأفقي (من الشرق نحو الغرب) وندرة روافده .

ورغم أن تلك الأودية الثلاثة تَرِدُ الإقليم التواتي من جهات متباينة ، إلاّ أن مفعولَها ضئيل ، بسبب بُعدِ منابعها واستواء التضاريس من جهة ، وغلبة الحرّ والرمال على المنطقة من جهة أخرى ، أمّا في عصرنا الحالي فَبِالكادِ تُعرف مساراتها ومجاريها فضلاً على أن تمتلئ وتسيل .

المبحث الثاني : الروايات المتواتِرة حول تسمية الإقليم

اختلف المؤرّخون والرواة في أصل التسمية (توات) ، وتباينت آراؤهم وتفسيراتهم حولها ، وسلكوا في ذلك طرائق قِددا ، لكنّهم اتّفقوا على أنّ تاريخ عمارتها واختطاطها قديم ، يسبق زمن حملِها هذا الاسم ، بدليل الشواهد والبقايا الأثرية [2] وكتابات الرحّالة والجغرافيين القدماء من أمثال : هومير " Homére " وهيرودوت " Hérodote " و بتوليمي " Ptolémée " ، إضافة إلى تقييد ووصف المؤرخين العرب أو المسلمين أمثال : اليعقوبي (ق 3 هـ) ، الاصطخري . المسعودي . ابن حوقل . المقدسي (ق 4 هـ) ، البيروني . البكري (ق 5 هـ) ، الإدريسي (ق 6 هـ) ، البغدادي . ياقوت الحموي . ابن سعيد . العبدري . المراكشي (ق7 هـ) ، التجاني . ابن بطوطة . ابن خلدون (ق 8 هـ) ، الحسن الوزّان (بين ق 9 هـ و ق 10 هـ) والعياشي (ق 11 هـ) .

وإن كان معظم أولئك المؤرّخين المسلمين لم يُشِرْ في كتاباته إلى توات مبنىً ، فإنه أشار إليها معنىً بذكرِ حدود ومواصفات مطابِقة لتركيبة الإقليم وجغرافيته ، أمّا التفسير اللغوي أو الاصطلاحي لـ " توات " فقد أخذ مسارات متعددة أعرِضها ـ مرتبة ترتيباً زمنياً ـ كما يلي :

01 ـ الرواية الأولى :

انفرد بها المؤرّخ التواتي محمد بن عمر البوداوي الجعفري ، حيث أرجع السبب في تسمية هذا الإقليم بتوات إلى القرن الهجري الأول : " على ما يحكى أنه لما استفتح عقبة بن نافع الفهري بلاد المغرب ووصل إلى ساحله ، ثم عاد لواد نون ودرعة وسجلماسة والفائحة ، ووصلت خيله توات وذلك في تاريخ 62هـ / 682م ، فسألهم عن هذه البلاد يعني توات وعن ما يُسمع ويُفشى عنها من الضعف هل **تُواتي** لنفي

---

[1] – فرج محمود فرج ، المرجع السابق ، ص 02 .

[2] – يُرجِع الباحث محمد بن سويسي زمن تعمير الإقليم إلى بواكير مرحلة ما قبل التاريخ ، حيث عاشت الكائنات في مساحات شاسعة انطلاقاً من الأطلس الصحراوي باتجاه الجنوب ، وانتشرت البحيرات والأنهار التي جفّت اليوم وتحجّرت بسبب عوامل متعددة ، ولا أدلّ على ذلك من وجود بقايا حضارية في ناحية آولف وقرب رقان ، وزاوية الحاج بلقاسم جنوب غرب تيميمون . ينظر : محمد بن سويسي ، المرجع السابق ، ص 17 .

المجرمين من عُصاة المغرب ، يُنزله بها أو يجلّيه بها ، فأجابوه بأنها **تُواتي** لهذا الأرب ، فانطلق اللسان بذلك أنها **تُواتي** ، فتغير اللفظ على لسان العامة لضرب من التخفيف لجري العادة بذلك " [1] .

لا يمكن الاعتداد بهذه الرواية أو الاعتماد عليها لسببين رئيسيين هما :

أ – أنها تخلو من سند تاريخي منسوب إلى مصادر تاريخية ذات صلة ، كابن الأثير أو البلاذري أو ابن خلدون أو البكري أو المراكشي ... ، بل اعتمدت على ما يحكى .

ب ــ أن المؤرّخين الذين تتبعوا حملة عقبة الثانية بين سنتي 60هـ / 680م و 63هـ / 683م لم يذكروا انحداره جنوباً نحو أقاليم صحراوية بالمغرب الأوسط ، أو المغرب الأقصى ، بل سلك طريقا ساحلياً في غدوّه أشرفَ من خلاله على المحيط الأطلسي ، ثم عاد أدراجه عبر طريق الداخل كثيرِ الشعاب والهضاب والمفاوز حتى وصل تهودة من بلاد الزاب (قرب بسكرة) ، وهناك استشهد سنة 63 هـ / 683 م [2] .

ولو كان مصدرُ نسبة هذا الاسم شخصيةً عظيمة مثل عقبة بن نافع ، لَرَسخ في الأذهان وتناولته كتب المسالك والبلدان ، وذلك ما لم يتمّ ، حيث أشار اليعقوبي (ق 3 هـ) ـ وهو أقرب زماناً لتلك الرواية ـ إلى صحراء دون ذِكر توات " ومن سجلماسة لمن سلك متوجها إلى القبلة يريد أرض السودان . من سائر بطون السودان . يسير في مفازة وصحراء مقدار خمسين رحلة ، ثم يلقاه قوم يقال لهم أنبية من صنهاجة ، في صحراء ليس لهم فيها قرار ، شأنهم كلهم أن يتلثّموا بعمائمهم ، سنّة فيهم ... " [3] .

أمّا الاصطخري (ق 4 هـ) فقد أشار إلى الجزء الجنوبي من بلاد المغرب إشارة مماثلة لليعقوبي ، حيث قال : "... ثم إلى أزيلة ثم إلى السوس الأقصى ، ثم يمتد على بريّة ليس وراءها عمارة ، وجنوبيّه رمل من حدّه البحر المحيط ، حتى يمتد من وراء سجلماسة إلى زويلة " [4] .

02 ـ الرواية الثانية :

ذكرها المؤرخ التواتي محمد بن عبد الكريم التمنطيطي (ت 1374هـ / 1955م) ، وأرجعها إلى بداية الدولة الموحدية [5] (ق 6 هـ) حيث يقول : " حكي عن بعض القدماء أن أهل الصحراء لما طالبهم المهدي ملك الموحدين بالمكوس والمغارم استضعفوا وقالوا لم يكن بأرضنا ذهب ولا فضة ، وكان ذلك شهر

---

[1] – محمد بن عمر الجعفري البوداوي ، المصدر السابق ، ص ص : 04 ـ 05 .

[2] – يُنظر تفاصيل هذه الحملة في : حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية ، ص ص : 177 ـ 207 .

[3] – أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي ، البلدان ، ليدن : مطبعة بريل ، 1890 م ، ص 151 .

[4] – أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الكرخي ، مسالك الممالك ، ليدن : مطبعة بريل ، 1927م ، ص 37 .

[5] – **الدولة الموحدية** : من أعظم دول المغرب الإسلامي شأناً ، أسّسها محمد بن تومرت الملقب بالمهدي ، أما أشهر حكّامها إطلاقاً فهو عبد المؤمن بن علي الندرومي التلمساني ، الذي قضى على المرابطين ودخل مراكش سنة 541هـ / 1147م ، ووطّد دعائم الدولة الموحدية . يُنظر : علي محمد الصّلابي ، دولة الموحدين ، عمان : دار البيارق للنشر ، 1998 م ، ص 111 .

الخريف فأمر عامله أن يقبض في المغارم الرطب والعنب وسائر أثمار الكروم ففعل ، ثم باعه السلطان للبدو النازلين قرب تلمسان فحملوه وعظمت بذلك المصلحة ، فصدر الأمر منه في العام الثاني بتخريص الأشجار وقبض الأتوات كيلاً ووزناً على حسب التخريص ، فعُرف أهل هذا القطر بأهل **الأتوات** لأن السلطان قبلها منهم في المغرم ، وهذه الرواية أصحّ .. قال في المصباح التوت هو الفاكهة والجمع أتوات ، فعُرف أهل هذه البلاد بأهل **الأتوات** ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه " [1] .

ورغم أن هذا التفسير اعتمده كثير من المؤرخين أمثال [2] : محمد بن عمر الجعفري البوداوي ومولاي أحمد الطاهري الإدريسي ومحمد باي بلعالم ، إلا أنّه يبدو مضطرباً . إذ لا يُعقل أن يحمل قطر اسم مكوس وأتوات فرضت عليه في فترة محددة طول تاريخه ، وإلاّ لحمَلت معظم الأقطار اسم توات ، ولَسَارع ساكِنوها إلى محوِ ذلك الاسم من ذاكرتهم لأنه مرتبط بضرائب قدّموها عن غيرِ طيب خاطر ، وهم الذين وصفهم ابن خلدون بأنهم أهلُ عدد وعدّة وبُعدٍ عن هضمة الأحكام وذلّ المغارم [3] . ثمّ أن هذه الرواية مركّبة من روايتين ، تاريخية متعلقة بالأتوات ، ولغوية مُشار إليها بفاكهة التوت وجمعها .

كما يُستبعد أن تلجأ الدولة الموحدية (541هـ / 1146م ـ 668هـ / 1270م) ذات الشأن العظيم والإقليم الواسع إلى استغلال خيرات أقاليم صحراوية بعيدة ، من أجل إرضاء قبائل بدوية قريبة من مركز السلطة ، وقد انصرفت همّتها في مبتدأ أمرها إلى إقامة العدل ومحاربة الجور وتوحيد الأمصار .

وإن كان قد ثبُت في بعض المصادر أن الموحدين فرضوا على القبائل والأمصار الجنوبية بعض المغارم والمكوس ، فإنما اقتصروا على الزكاة والعشور وأخماس الغنائم والمعادن والخراج [4] .

أضِف إليه أنّ الذي قام بذلك ليس المهدي محمد بن تومرت ، وإنما خليفته عبد المؤمن بن علي الكومي التلمساني سنة 554هـ / 1159م ، بعد أن دانَتْ له بلادُ المغرب كلّها من برقة شرقاً إلى بلاد السوس الأقصى غرباً وإلى الأندلس شمالاً . يقول في ذلك صاحبُ الأنيس المطرب : " وفي هذه السنة أمر عبد المؤمن بتكسير بلاد أفريقية والمغرب ، من برقة إلى بلاد نول من السوس الأقصى بالفراسخ والأميال طولاً وعرضاً ، فأسقط من التكسير الثلث في الجبال والأنهار والسباخ والطرقات والحزون ، وما بقي قسّط عليه الخراج وألزم كلّ قبيلة قسطها من الزرع والورق ، فهو أول من أحدث ذلك بالمغرب " [5] .

---

[1]– محمد بن عبد الكريم التمنطيطي ، المصدر السابق ، ص 08 .

[2]– أحمد جعفري أبّا الصّافي ، محمد بن أبّ المزمّري حياته وآثاره ، ط 1 ، الجزائر : دار الكتاب العربي ، 2004 م ، ص 27 .

[3]– عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج 07 ، ص 77 .

[4]– جمال أحمد طه ، مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين ، الإسكندرية : دار الوفاء ، 2001 م ، ص 222 .

[5]– ابن أبي زرع الفاسي ، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، الرباط : دار المنصور للطباعة والوراقة 1972 م ، ص 199 .

03 ـ الرواية الثالثة :

تُرجع التسمية إلى منتصف القرن 6 هـ ، حيث يذكر المؤرّخ محمد بن أمبارك صاحب " تاريخ توات " أن كلمة توات أطلقتها على المنطقة قبائل لاجئة من لمتونة [1] ، وفدتْ عليها في منتصف القرن 06 هـ ، فوجدتها مناسِبة **تواتي** للإقامة والاستقرار ، ومن ثمّ شاع الاسم وانتشر [2] .

لقد شهد منتصف القرن 6 هـ سقوط دولة المرابطين اللمتونية ، ويُحتمل هجرة بعض قبائلها نحو الصحراء موطنِها الأصلي فراراً من تعقّب الموحدين وبطشهم ، لكن من المستبعد استقرارهم في توات معقل قبائل زناتة المعادية ـ تاريخياً ـ للصنهاجيين ، والأقرب إلى التحقيق عبورهم منها نحو أبناء عمومتهم قبائل الطوارق الملّثمين . أمّا الإدريسي (ق 6 هـ) صاحب " نزهة المشتاق في اختراق الآفاق " ، فقد اعتبر المنطقة جزءاً من " صحراء خالية لا عمارة بها ، أكثر أرضها رمال تنسفها الرياح ، كثيرة الحرّ حامية جداً ، ألوان أهلها سود وشعورهم متفلفلة " [3] ، في معرض حديثه عن الأقاليم بين المغرب وبلاد السودان .

ولِأحد الكتّاب المجهولين من مراكش ـ وقد عاش في نفس الفترة (ق 6 هـ) ـ كلام شبيه ، حين يتحدث عن مدينة سجلماسة ، التي ارتبط ذكرها كثيراً بإقليم توات قائلاً : " وهي على طرف الصحراء ، لا يُعرف في قبليّها ولا غربيّها عمران ، بينها وبين غانة صحراء مسيرة شهرين في رمال وجبال غير عامرة قليلة المياه ، يسكنها قوم من مسوفة رحّالون لا يستقرّ بهم مكان ، ليس لهم مدن ولا عمارة يأوون إليها إلا وادي درعة ، وبينه وبين سجلماسة خمسة أيام " [4] .

وهذا المراكشي (ق 7 هـ) ينحو نحوَ الإدريسي وصاحب " الاستبصار في عجائب الأمصار " ، فيُدرِجُ توات وما يجاورها من الجهات ضمن إقليم الصحراء الشامل الواسع المرتبط ـ دوماً ـ ببلاد السودان جنوباً فيقول : " ... وحدّها إلى جبل درن ، وإذا جُزْتَ هذا الجبل فعَنْ يمينك بلاد السوس الأقصى ويقال لها بلاد ماسّة ، ويتصل السوس الأقصى ببلاد الصحراء إلى بلاد السودان ، وهي بلاد الزنج " [5] .

04 ـ الرواية الرابعة :

تعود ـ زماناً ـ إلى أوائل القرن 8 هـ ، حيث أورد السعدي في تاريخه قصة متعلقة بسلطان مالي المدعو

---

[1] – **لمتونة** : إحدى قبائل صنهاجة البربرية ، وإخوتهم جدالة ، وهم صحراويون ولهم بطون ضخمة ، ومنهم يوسف بن تاشفين المؤسّس الفعلي لدولة المرابطين . يُنظر : ابن عِذاري المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، ط 3 ، تحقيق : إحسان عباس ، بيروت دار الثقافة ، 1983 م ، ج 04 ، ص 07 .

[2] – فرج محمود فرج ، المرجع السابق ، ص 02 .

[3] – الشريف الإدريسي ، من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، ليدن : مطبعة بريل ، 1863 م ، ص 02 .

[4] – مجهول ، الاستبصار في عجائب الأمصار ، نشر وتعليق : سعد زغلول عبد الحميد ، بغداد : دار الشؤون الثقافية العامة ، ص 200 .

[5] – ابن عِذاري المراكشي ، المصدر السابق ، تحقيق : ليفي بروفنسال وكولان ، ج 01 ، ص 06 .

" كنكن موسى " [1] ، مؤدّاها أنه عزم حجّ بيت الله الحرام في أوائل القرن 8 هـ ، واصطحب معه قوة عظيمة وجماعة كثيرة ، وأثناء مروره بموضع توات تخلّف كثير من أصحابه عن الرّكب ، بسبب وجع أصابهم في أرجلهم من شدة المشي ، يُسمى **توات** في لغتهم ، فسُمي الموضع باسم ذلك المرض (**توات**) [2] .

تبدو هذه الرواية التي انفرد السعدي بها مضطربة ومجتنِبة للمنطق لعدة أسباب ، منها أن قافلة ملِك مالي إنما قصدت الحج ، ولم تقصد الاستيطان ، ومن تعذّر عليه ذلك بسبب الوجع المذكور ، لاشكّ أنه سيعود قافلاً من حيث أتى . كما أن المرض أصاب بعض القوم في موضعٍ بعينه ، وآذان السكان المحليين ستأنَفُ من أن تتلقّف كلمة قيلت في ظروف خاصة وفي موضع خاص ، لتجعلها رديفَ بلاد عامرة ، آهلة من زمنٍ سابق ، قائمة بذاتها . أمّا المؤرخون التواتيون [3] فإنهم لم ينقلوا هذه الرواية ، ولم يولوها اهتماما أو يلقوا لها بالا في مؤلفاتهم ، رغم حرصهم على كتابة كلّ ما يتعلق بتاريخ إقليمهم وما يقال عنه .

ثمّ إنّ الأمر الهام الذي يقلّل من شأن هذه الرواية ـ رواية السعدي ـ هو كون المنطقة عُرِفت قبلُ باسم توات ، وذُكرت في عديد المصادر التاريخية ، فقد ذكر الناصري صاحب الاستقصاء أنّ الأميرَ أبا علي ابن السلطان المريني أبي سعيد ارتحل إلى سجلماسة سنة 715هـ / 1315م ، بعد صراع مرير على السلطة مع والده [4] . حيث عزم على فتح الأقاليم الجنوبية لسجلماسة ومنها توات ، تعويضاً عمّا ضاع منه في أقاليم الشمال : " وارتحل [أبو علي] إلى سجلماسة سنة خمس عشرة وسبعمائة ، فأقام بها دولة فخيمة واستولى على بلاد القبلة ، ودوّن الدواوين واستلحق واستركب واستخدم ظواعن العرب من بني معقل ، وافتتح معاقل الصحراء وقصور **توات** وتيكرارين وتامنطيت وغير ذلك " [5] .

واستفتاحُ الأميرِ المريني أبي علي قصور توات . المعروفة حينذاك . سبقَ عبور السلطان منسى موسى المنطقة برسمِ الحج ، والذي كان في سنة 724هـ / 1324 [6] .

05 ـ الرواية الخامسة :

---

[1]- **كنكن موسى** : هو أبو بكر الثاني المسمّى مَنْسَى موسى ، أعظم ملوك مالي على الإطلاق ، تولّى الملك سنة 738هـ / 1337م . حجّ حجة مشهورة ، مرّ بالقاهرة وأفاض على الناس هدايا الذهب ، مما أذاع في الدنيا شهرة مالي بالثروة ، توفى سنة 742هـ / 1341م . يُنظر : حسين مؤنس ، ابن بطوطة ورحلاته تحقيق ودراسة وتحليل ، القاهرة : دار المعارف ، 2003 م ، ص 232 .

[2]- عبد الرحمن بن عبد الله السعدي ، تاريخ السودان ، باريس : مطبعة هوداس ، 1981 م ، ص 07 .

[3]- أمثال : محمد البوداوي في نقل الرواة ، والبكري التمنطيطي في درة الأقلام ، ومولاي أحمد الطاهري في نسيم النفحات وغيرهم .

[4]- لمعرفة تفاصيل هذا الصراع في الأسرة المرينية بين السلطان أبي سعيد وابنه الأمير أبي علي وما آل إليه ينظر : أبو العباس أحمد بن خالد الناصري ، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، تحقيق وتعليق : جعفر الناصري ومحمد الناصري ، الدار البيضاء : دار الكتاب ، 1954 م ، ج 03 ، ص ص : 105 . 107 .

[5]- أحمد بن خالد الناصري ، المصدر السابق ، ج 03 ، ص 107 .

[6]- Bernard Saffroy , op.cit , p 05 .

ذكر الرصّاع (ت 894هـ / 1489م) أن توات اسم لأحد بطون الملثمين في الصحراء قائلاً [1] : " والملثمون هم قبائل الصحراء بالجنوب ، عرفوا بهذا الاسم لأنهم يتلثمون بلثام أزرق ، ومنهم طوائف التوارق ولمطة ولمتونة و**التوات** " .

رغم أن هذه الرواية تشير إلى اسم توات وتأصيله اللغوي ، إلا أنها لا تعتبره إقليما قائما في حدّ ذاته بل اسماً لأحد بطون الملثمين الصنهاجيين ، وهو أبعد ما يكون عن إقليم توات المستقلّ عن بلاد التوارق ، والذي اختطه زناتة حسب ابن خلدون الذي يقول متحدثاً عن عرب المعقل [2] : " وملكوا قصور الصحراء التي اختطها زناتة بالقفر مثل قصور السوس غرباً ، ثم توات ثم بودة ثم تامنطيت ، ثم واركلان ثم تاسبيت ثم تيكورارين شرقاً ، وكلّ واحد من هذه وطن منفرد ، يشتمل على قصور عديدة ذات نخيل وأنهار ، وأكثر سكانها من زناتة " .

ومنه نستنتج أن القبائل التواتية الأولى فرع من زناتة ، ولا علاقة لها بقبائل الملثمين الصنهاجيين .

06 ـ الرواية السادسة :

أوردها صاحبُ نسيم النفحات مولاي أحمد الطاهري الإدريسي (ت 1399هـ / 1979م) ، حيث نحى بالاسم منحىً لغوياً ، فتوات . في نظره . مشتق من الفعل " واتى . يواتي . تواتي " ، بمعنى تناسب وتليق . يقول عن ذلك [3] " سُميت توات بهذا الاسم لأنها **تواتي** للعبادة ، أي تليق بها ، لأن كل من قدِم إليها من الأولياء المنقطعين تواتيه للعبادة ، فلذلك سكنها كثير من أولياء الله الكُمّل العارفين ، وقيل من الأتوات أي المغارم والمكوس أو الفواكه ، والله أعلم " .

رغم التفسيرات اللغوية لهذه الرواية إلا أنها لم تقطع الأمر أو تحسم فيه ، بدليل إيراد احتمالات أخرى بين ثناياها كالمكوس أو الفواكه .

كما أنّ توات وإنْ كانت تواتي للعبادة والانقطاع عن الدنيا والتفرّغ لذكر الله ، فإنها تواتي أيضاً لنفي المجرمين من عُصاة المغرب كما تزعُم الرواية الأولى سابقة الذكر ، وتحمل كتب التاريخ ما يشير إلى ذلك الغرض ، حيث ذكر الناصري (ت 1312هـ / 1894م) أنّ المنصور الذهبي السعدي (ت 1012هـ / 1603م) ضرب على قبائل " الخلط " العربية مغرماً ، بعد أن عاثوا في تلك البلاد وأكثروا فيها الفساد ،

---

[1]– نقلاً عن : بهية بن عبد المؤمن ، الحياة الاجتماعية بإقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين (18 . 19 م) ، مذكرة ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية ، إشراف : د . محمد بن معمر ، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية ، جامعة وهران ، 2005 / 2006 م ، ص 02 .

[2]– عبد الرحمن ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج 06 ، ص 78 .

[3]– مولاي أحمد الطاهري الإدريسي ، المصدر السابق ، ص 57 .

فلم يزيدوا إلا شدّة ، فكثرت الشكاية بهم إليه ، فضرب عليهم بعثاً إلى تيكورارين من بلاد توات بالصحراء فامتنعوا من ذلك ، فانتزع منهم الخيل وأبقاهم رجّالة ، ثم حكم فيهم السيف ومزّقهم كلّ ممزّق [1] .

ولا يمكن تفسير تلك الغاية التي كان يبتغيها بعض القادة والأمراء من توات ، بكونها المنفى الرهيب المناسب للعصاة والمارقين والخارجين الشّاقين عصا الطاعة بحالٍ من الأحوال ، إنما يرجع بالدرجة الأولى لِعُمقها وبُعدها عن حواضر الشمال ودوله من جهة ، وإلى ارتباط قبائل الأعراب بصحرائها وقصورها قرونَ عديدة من جهة أخرى .

07 ـ الرواية السابعة :

هذه الرواية نظّر لها مؤرّخون أوروبيون . فرنسيون على الخصوص [2] . من بينهم مارتان Martin ، الذي يرى بأن اسم توات Touat هو مفردُ المصطلح البربري وا . oua المتطابق بدوره مع المقطع الإغريقي oa ، الذي يشير إلى OASIS أي بمعنى الواحات ، ويُعضّد ذلك الرأي . في نظرهم . ما شاع من تعبير مُشابِه على اللسان البربري الزناتي مثل : تواتن عبو Touat'n ebbou ومعناها واحة الماء ، ومثل هذا التركيب موجود في اللهجة الزناتية ، والمحصّلة أن لفظ توات بربري الأصل يعني الواحات [3] . وهي رواية تتطابق ووقوع الإقليم ضمن واحات الحوض الشرقي لواد الساورة .

تبدو هذه الرواية الأجنبية مُضطرِبة ، لا تخلو من التركيب والاصطناع ، إذ تحاول الربط بين ثلاثة معطيات متباعِدة علمياً ، هي الإغريقية والفرنسية والبربرية (الزناتية) . والغرض منها ليس تاريخياً معرفياً بالدرجة الأولى ، بقدر ما هو تنظيري استعماري ، يحاول . عبثاً . إيجاد علاقة مُفترَضة بين قبائل شمال إفريقيا البربرية من جهة وسكان جنوب أوروبا من جهة أخرى .

يظهر من خلال عرض الروايات السابقة الاختلاف الجليّ البيّن في تفسير أصل تسمية توات ، ما بين اشتقاق لغوي أو تأصيل اصطلاحي ، لكن الأرجح والأقرب إلى الصواب أن اسم توات بربري قديم قِدَم قبائل زناتة التي اختطّت الإقليم [4] ، وتقلّبت في رمالِه وعمّرت فَيافِيه ، ثمّ أعقبتها قبائل بني معقل العربية التي ساهمت في تعريبه وصَهْرِ ساكِنته في بوتقة واحدة . فلا تمايزَ واضحاً إلا ما احتفظت به أسماء

---

[1]– أحمد بن خالد الناصري ، المصدر السابق ، ج 02 ، ص 158 .

[2]– منذ احتلال الجزائر تمّ بذل جُهد معرفي بخصوص الصحراء عامة وتوات خاصة ، من قِبل كتّاب فرنسيين معظمهم ضبّاط في الجيش لأهداف سياسية إستراتيجية تخدم أغراضهم الاستعمارية ، توّج بظهور كتاب الصحراء الكبرى للفريق Daumas سنة 1856 م ، وتوالت كتابات Deporter و Lacroix ثم A.G.P. Martin الذي نشر كتابيه الهامّين : الواحات الصحراوية ، وأربعة قرون من تاريخ المغرب سنتي 1908 م و 1923 م . يُنظر : رشيد بلّيل ، المرجع السابق ، ص 05 .

[3]– Mario vivarer , Au Sujet du Touat , Alger : librairie Michel Ruff , 1896 , p 03 .

[4]– أحمد بن خالد الناصري ، المصدر السابق ، ج 02 ، ص 159 .

القصور التي عرضناها ، ومعظمها لا يزال يحمل إلى اليوم معانٍ بربرية مثل طلمين (النواق) ، تسابيت (المكان المعزول) تنيلان (مكان الأحرار) ، آدرار (الجبل) ، تامست (النار) ، تيلوليـن (منبت الكلأ) سالي (علاق الراحلة) ، ركّان (الجمل الراقد) ، تيط (العين) ، إينغر (الشعبة) وغيرها كثير [1] ، وبعضها الآخر يحمل معانٍ عربية مثل : زاوية الدباغ ، أولاد محمود ، أولاد علي ، أولاد إبراهيم ، عين صالح ... الخ ، وقد ساهمت كتابات كلٍّ من : ابن بطوطة وابن خلدون والحسن الوزّان والعياشي في تداول اسم توات ونشره على نطاقٍ واسع ، فتضاعفتْ أهمية الإقليم وزادت الرغبة في سبرِ أغواره .

المبحث الثالث : أهمية إقليم توات تاريخياً

01- توات في المصادر التاريخية :

رأينا . سابقاً . ذكراً لإقليم توات في عديدِ المصادر والمخطوطات ، سواء بطريقة مباشِرة مستهدِفة ، أو غير مباشِرة ضمن إطار جغرافي عام يشمل المنطقة ، من قِبل رحّالة ومؤرّخين يمكن اعتبارهم شهوداً على تاريخ التنقّل والتعمير لقرون عديدة عبر الصحراء .

وعلى ذكر الشهود فإنّ أول من قدم لنا بعض المعلومات عن الإقليم هو ابن بطوطة (ت 779هـ / 1377م) الذي مرّ به في طريق عودته من رحلته الشهيرة إلى بلاد السودان [2] ، إذ استعدّ ومن معه لِعبور صحراء شاسعة لا عمارة فيها ولا ماء ، بالتزوّد والإعداد ، واضعين الوصول إلى توات هدفاً يرجون تحقيقه يقول ابن بطوطة " ورفعت زاد سبعين ليلة ، إذ لا يوجد الطعام بين تكدا وتوات " [3] . وبعد عبور أرض الهقار نحو الشمال وصلت القافلة إلى بودة ، وهي من أرض توات ، وكانت إذْ ذاك باباً من أبواب المغرب يُعتبر الوصول إليها علامةً على سلامة القافلة ، وإيذاناً بِولوج تراب المغرب الأقصى ، ممثلاً في أولى حواضره مدينة سجلماسة ، ويؤكّد ذلك ابن بطوطة في متمّ حديثه إذْ يقول " ..ثم وصلنا بودا وهي من أكبر قرى توات ، وأرضها رمال وسباخ ، وتمرها كثير وليس بطيب ، لكن أهلها يفضّلونه على تمر سجلماسة ، ولا زرع بها ولا سمن ولا زيت ، وإنما يجلب لها ذلك من بلاد المغرب ... وأكل أهلها التمر والجراد ، وهو كثير عندهم يختزنونه كما يختزنون التمر ويقتاتون به " [4] .

---

[1]- محمد باي بلعالم ، المرجع السابق ، ج 01 ، ص ص : 11 . 24 .

[2]- تفاصيل الرحلة ذهاباً وإياباً . تحليلاً ونقداً . ومميزات بلاد السودان يُنظر : حسين مؤنس ، ابن بطوطة ورحلاته تحقيق ودراسة وتحليل ، ص ص : 224 - 236 .

[3]- محمد بن عبد الله ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ج 04 ، ص 277 .

[4]- حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص 236 .

والظاهر أن ابن بطوطة لم يعبُر الإقليم في فصل الخريف ، حيث جنيُ المحاصيل الجديدة الطازجة من التمر ، بل زارها حين كان الوقت شتاءً والبرد قارساً [1] ، وإلاّ كيف نفسّر رأي العياشي (ت 1090هـ / 1679م) في تنوّع مذاقِ ذلك التمر وقيمته وهو القائل [2] " ... واشترينا ما يُحتاج إليه من التمر ، وبها من التمر أنواع كثيرة ، ووجدنا التمر فيها رخيصاً " . أمّا الجراد فلا تخفى حملاتُه المتتالية على توات في موجات وأسراب كبيرة ، وقضاؤه على الأخضر واليابس ، وانتشار القحط والمجاعات بسببه [3] ، ممّا يفسّر كثرته ومن ثَمّ اتّخاذه غذاءً جاهزاً بديلاً عن المحاصيل التي تمّ إتلافها .

أمّا المصدر الثاني الهام ، الذي أشار إلى هذا الحيّز الجغرافي العامِر بصفة أكثر تفصيلاً ، هو ابن خلدون (ت 808هـ / 1406م) ، حيث أورد الأهمية التاريخية لإقليم توات في مظهرين ، أحدهما محلّي يتمثل في العمران الذي يعتبره ابن خلدون أساس الحضارة ، والثاني إقليمي يتجلّى في كونه همزة وصل بين المغرب والسودان ، يبرز ذلك في قوله [4] " ... يسمّى وطن توات ، وفيه قصور متعددة تناهز المائتين ، آخذة من المشرق إلى المغرب ، وآخرها من جانب المشرق يسمى تمنطيت ، وهو بلد مستبحر في العمران ، وهو محطّ ركاب التجّار المترددين من المغرب إلى بلد مالي من السودان لهذا العهد " .

وعلى غرار تمنطيت وبودة فقد استهوت مثيلاتُها من قصور تيكورارين ابنَ خلدون المولع بالعمارة والعمران ، فأفرَدَ لها مقطعاً جاء فيه [5] " ... قصور تيكورارين وهي كثيرة تقارب المائة ، في بسيط واد منحدر من المغرب إلى المشرق ، واستبحرت في العمران وغصّت بالساكن " .

ونجد الحسن الوزان (ت 957هـ / 1550م) يشاطر ابن خلدون رأيَه في عمارة تيكورارين وتعدّد قصورها ، حيث وصفها بأنها [6] " منطقة مأهولة في صحراء نوميديا ، تحوي خمسين قصراً وأزيد من مائة قرية منتشرة بين حدائق النخيل " . كما أشار إلى منطقة أخرى ذات موقع استراتيجي بين حاضرتي فاس وتلمسان من جهة وبلاد السودان من جهة أخرى ، لا تقلّ في عمارتها وأهميتها عن تيكورارين مشتمَلة في قوله [7] " تْسَبِتْ إقليم مأهول في صحراء نوميديا ، على بُعد نحو مائتين وخمسين ميلاً شرق سجلماســـة ،

---

[1]- حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص 236 .

[2]- أبو سالم العياشي ، المصدر السابق ، ج 01 ، ص 79 .

[3]- Bernard Saffroy , op.cit , p 05 .

[4]- عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج 07 ، ص 76 .

[5]- المصدر نفسه ، ج 07 ، ص 77 .

[6]- الحسن بن محمد الوزان ، المصدر السابق ، ج 02 ، ص 133 .

[7]- المصدر نفسه ، ج 02 ، ص 133 .

ومائة ميل من الأطلس ، يضمّ أربعة قصور وقرى عديدة في تخوم ليبيا ، على الطريق المؤدية من فاس وتلمسان إلى مملكة أغدس في بلاد السودان ، سكانه فقراء جدا ، لا تنبت أرضهم غير التمر وقليل من الشعير ، بشرتهم سوداء ، إلا أن نساءهم سمراوات جميلات " .

ولعلّ الحسن الوزان في وصفه للنساء التسابيات قد أصاب ، أمّا نعتُه السكّانَ بالفقر الشديد فالظاهر أنه قد جانبَ الصواب ، إذْ لا يُعقل أن توسمَ بلاد بالفقر الشديد وهي معبر هام ، لا يخلو من الزوّار وركب الحجيج ، ورجالها يتعاطَون التجارة في بلاد السودان .

كما أنّ للعياشي (ت 1090هـ / 1679م) رأياً آخرَ مخالفاً لوصف الوزان ، حيث اعتبر ساكِنة تسابيت من العوام أهلَ تجارة ، يعيشون مما يكتسبونه من بيع التمر ذي الأنواع الكثيرة ، ويوجد عندهم من البضائع والسلع التي تُجلب من أطراف السودان شيءٌ كثير [1] .

وقد مكَثَ العياشي بِقُرَى تسابيت . التي اعتبرها أول عمالة توات . ستة أيام كاملة أثناء رحلته للحج ممّا مكّنه من التعرف على أهلها وإدراك بعض طبائعهم . وهو مصدر هام أشار إلى المنطقة قائلاً [2] " ودخلنا إلى أول عمالة توات وهي قرى تسابت ، وزرنا بأول قرية منها قبر الولي الصالح المتبرك به حيّاً وميتاً سيدي محمد بن صالح المعروف بعريان الرأس [3] ، ... وأقمنا بها ستة أيام وبعنا بها خيلنا وما ضعف من إبلنا ، واشترينا ما يُحتاج إليه من التمر ، وبها من التمر أنواع كثيرة ، ووجدنا التمر فيها رخيصا " .

فالطابع الغالب على هذه البلاد في نظر العياشي هو التجارة ، لأنها مَجمَعُ القوافل الآتية والعابرة إلى مختلف الأصقاع ، وهي سوق رائدة في صرف الذهب والعملات . ذلك ما يؤكّده قوله [4] " وعدد المثقال عندهم أربع وعشرون موزونة ويقولون للمثقال الأربعيني مثقال شريفي...وسبب إقامتنا في هذه البلاد في هذه المدة أن كثيراً من الحجاج لما غلا صرف الذهب في تافيلالت أخّروا الصرف إلى توات ، فإن الذهب فيها أرخص وكذلك سعر القوت من الزرع والتمر " .

وهذا الفشتالي (ت 1031هـ / 1622م) يؤكّد ويثبت تلك الأهمية والشهرة اللتين حظي بهما الإقليم التواتي وميزاته السكنية والسكانية ، حين وصفه قائلاً [5] " هذا الإقليم المفرّع إلى قطر توات وهو

---

[1]- أبو سالم العياشي ، المصدر السابق ، ج 01 ، ص 80 .

[2]- المصدر نفسه ، ج 01 ، ص 79 .

[3]- **عريان الرأس** هو الفقيه محمد بن صالح بن محمد بن علي بن موسى ، الولي المكاشِف صاحب الكرامات ، من عباد الله الصالحين ، توفي في العام 1027هـ / 1618م . يُنظر : أبو عبد الله الطالب محمد البرتلّي الولاتي ، المصدر السابق ، ص 111 .

[4]- أبو سالم العياشي ، المصدر السابق ، ج 01 ، ص 79 .

[5]- أبو فارس عبد العزيز الفشتالي ، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا ، دراسة وتحقيق : عبد الكريم كريم ، الرباط : مطبوعات وزارة الأوقاف ، ص 73 .

أوسع وطنا وأفسح مجالا وأقرب للسودان اتصالا وجوارا وإلى قطر تيكورارين ، وهو أعظم اشتهارا وأعرف نقيبا وأشدّ شوكة وأخشن جانبا ، وأعظم أقاليم المغرب وأكثرها أمما وأفسحها خطة ، انتظم عرانه واتصلت قصوره وتراصفت نخيله على مسافة ثلاثين مرحلة أو أكثر ... " .

02- الأهمية التجارية للمقاطعات التواتية :

ارتبط اسم توات بالممارسات والمعاملات التجارية منذ القِدم ، تلك المعاملات ازداد نشاطها وأهميتها منذ القرن الثامن الهجري ، بعد أن أصبح الإقليم التواتي الممر المفضّل لقوافل التجّار المتجهين من شمال بلاد المغرب إلى بلاد السودان الغربي ، مثلما يشير إل ذلك ابن خلدون (ت 808هـ / 1406م) في معرض حديثه عن قصر تمنطيط قائلاً [1] " ...وهو محطّ ركاب التجار المترددين من المغرب إلى بلد مالي من السودان لهذا العهد " . وتكمن أهمية تلك المحطة التجارية في كونها تتوفر على المصادر المائية والكلأ للدواب وكذا المؤن والزاد للرحالة إضافة إلى موقعها المتوسط في الصحراء [2] ، وقد تجاوزت الأقاليم التواتية دور المعابر والممرات إلى دورٍ أهمّ ، حيث أصبحت منطلقاً للقوافل التجارية المحلية ، التي يديرها أصحابها بأنفسهم أو يختارون من يسيّرها نيابة عنهم في رحلة الشتاء إلى بلاد السودان [3] .

كما أن العديد من الطرق والمسالك أصبحت تشكل روافد تصبّ في هذه الطريق العمودية ، التي مبدؤها بلاد المغرب شمالاً ومنتهاها بلاد السودان جنوباً ، ومن تلك المسالك والمحاور ما يلي :

أ – محور طرابلس . جنوب تونس . تيدكلت . توات . السودان الغربي ، ومَكْمَنُ الأهمية في هذا المحور هو كونه منفتحاً عبر طرابلس على تجارة البحر الأبيض المتوسط ، متصلاً بالمدن الإيطالية ذات الصيت الذائع في المبادلات التجارية ، ومنها مدينة جنوة مسقط رأس التاجر والمستكشِف الإيطالي أنطونيو مالفانتي الذي عَبَرَ تلك الطريق حتى وصل توات سنة 851هـ / 1447م ، وجمع معلومات على قدرٍ كبير من الأهمية عن الأقاليم التواتية وبلاد السودان جنوب الصحراء الكبرى [4] .

ب – محور مراكش . توات ، مروراً بمدن تافيلالت وسجلماسة في المغرب الأقصى ، حيث كان التجّار التواتيون يفِدون عليها محمّلين بالسلع التي جلبوها من بلاد السودان ، والمتمثلة أساساً في الذهب الخام

---

[1]– عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج 07 ، ص 77 .

[2]– أحمد الحمدي ، محمد بن عبد الكريم المغيلي رائد الحركة الفكرية بتوات عصره وآثاره (870 هـ . 909 هـ) ، رسالة ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية ، إشراف : أ د . عبد المجيد بن نعمية ، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية ، جامعة وهران ، 2000/1999 م ، ص 57 .

[3]– عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج 07 ، ص 77 .

[4]– عبد الكريم الطموز ، فهرس شيوخ سيدي عمر بن عبد القادر التنلاني (ت 1152 هـ) تحقيق ودراسة ، مذكرة ماجستير في التاريخ الوسيط ، إشراف : أ د . بوبة مجاني ، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية ، جامعة قسنطينة ، 2010/2009 م ، ص 11 .

وريش النعام والعاج والأقطان والعبيد ، لأجل مبادلتها بالخيل والأسلحة والفواكه المجففة والملابس المطرزة ، كلّها تُحمل إلى أسواق توات [1] .

ج – محور تكدا . هقار . توات ، وهو خط الرجوع بالنسبة للتجار التواتيين الآيبين من بلاد السودان ، بعد أن اشتروا من مدنها مثل تمبكتو وغاو وتكدا وكاهر أهمّ مقصدهم ، وهي الأغنام واللحوم المجففة . وذلك ما ذكره ابن بطوطة (ت 779هـ / 1377م) أثناء مروره بهذه الطريق [2] " ..يشتري بها الناس من برابرها الغنم ويقدّدون لحمها ، ويحمله أهل توات إلى بلادهم " ، ومن هذه الطريق يمكن للمرء أن يتجه شرقاً نحو الأراضي الليبية ، أو غرباً نحو البلاد المغربية عبر توات . كما تعبر من تلك الطريق أيضا قوافلُ الحجاج الآتية من بلاد التكرور ، والتي طالما تقدّم ركبَها علماءُ من توات منهم الحاج أحمد بن الحاج الأمين الملقب بالتواتي الغلاوي (ت 1157هـ / 1744م) ، حتى تصل إلى مقاطعة آقبلي فيكون الأمر لأبي نعامة [3] .

وقبل انطلاق القوافل من وإلى بلاد السودان ، وقطع القِفار والبوادي الموحِشة ، لا بدّ من استئجار أدلاّء من الطوارق ، قد خَبَروا مسالك الصحراء الواسعة وسَبَروا أغوارها ، حتى لا تضلّ القافلة سبيلَها وتتعرض للهلاك ، وقد أشار ابنُ خلدون إلى ذلك أثناء حديثه عن القوافل التجارية بين توات والسودان قائلاً [4] : " ... وبينه وبين ثغر بلاد مالي المفازة المجهلة لا يهتدي فيها للسبل ، ولا يمرّ الوارد إلا بالدليل الخبير من الملثمين الظواعن بذلك القفر ، يستأجره التجّار على الدربة بهم فيها بأوفر الشروط " .

د – محور شمالي شرقي من بلاد الزاب [5] نحو توات ، وينتهي بمعبرين أحدهما يتجه شرقاً حتى يصل إلى تيدكلت الشرقية ، والآخر يتجه غرباً حتى يصل إلى تيكورارين ، وتنتشر بهذين المسلكين العديد من الآبار والمنابع المائية مثل : حاسي البرانية وحاسي الشبانة وحاسي سيد الجيلالي وعين قطارة وفقارة الزوا أولى القصور التيدكلتية بالنسبة للمعبر الشرقي ، وحاسي النهل وحاسي اللفعاية وحاسي التارقي وحاسي بدمام ، بالنسبة للمعبر الغربي [6] .

---

[1]– فرج محمود فرج ، المرجع السابق ، ص 70 .

[2]– محمد بن عبد الله ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ج 04 ، ص 277 .

[3]– أبو عبد الله الطالب محمد البرتلي ، المصدر السابق ، ص 48 .

[4]– عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج 07 ، ص 77 .

[5]– **بلاد الزّاب** : إقليم كبير في وسط نوميديا (المغرب الأوسط) ، يمتد من بلاد الجريد في تونس إلى تخوم المسيلة غرباً ، ومن جبال مملكة بجاية شمالاً إلى الطريق المؤدية من تقرت إلى وركلة جنوباً ، يحوي عدداً لا يُحصى من حدائق النخيل ، أشهر مدنه : بسكرة . البُرج . طولقة . دوسّن . يُنظر : الحسن بن محمد الوزان ، المصدر السابق ، ج 02 ، ص 138 .

[6]– أحمد الحمدي ، المرجع السابق ، ص 58 .

وقد تدعّمت تلك التجارة الخارجية بسلسلة من الأسواق الداخلية ، التي تضمن انسياب السلع وتنظيم عمليتي التصدير والاستيراد ، حيث لعبت تلك الأسواق دوراً هاماً في حياة السكان ، إذ تلبّي احتياجاتهم من المواد الغذائية والاستهلاكية ، إضافة إلى كونها مركزاً تجارياً لعقد الصفقات والمبادلات التجارية ، فهي القلب النابض للنشاط الاقتصادي ، لذلك لم تخلُ مدينة أو قصر تواتي منها [1] . ومن أشهر تلك الأسواق . موزعةً على الجهات الثلاث . ما يلي :

* **سوق تيميمون** : تيميمون قاعدة تيكورارين ، كانت مَجْمَعَ القوافل التجارية ، يلتقي بها التجار من مختلف الأصقاع . وسكان تلك المناطق أغنياء ، لأنهم اعتادوا الذهاب كثيراً بسلعهم إلى بلاد السودان [2] . أمّا المبادلات التجارية مع الأقاليم الشمالية وخاصة تلمسان خلال العهد الزياني ، فكانت تتمّ في باديء الأمر عبر سوق أولاد سعيد [3] ، ثمّ تحولت بعد ذلك إلى سوق مدينة تيميمون التي وصفها الرحّالة بن الدين الأغواطي (ت 1244هـ / 1828م) بأنها [4] " سوق عظيمة ، يُباع فيها العبيد وتراب الذهب بكميات كبيرة ، ويباع تراب الذهب بوزن المثقال بالأوقية " .

* **سوق تمنطيط** : اشتهرت هذه السوق وأصبحت محطّ السلع والركاب ، بعد أن أفلَ نجمُ سوق بودة بسبب إغارة الأعراب (قبائل الصحراء) المستمرة ، وقطعهم الطريق على سابلتها [5] .

وقد تنوعت بضائع سوق تمنطيط بتنوع مصادرها فشملت : العبيد والذهب والذرة البيضاء ، والملح والمصنوعات النحاسية والحلي وأدوات الزينة والخيل وسروجها والعطور والقمح والزيت والمنسوجات . مما أثار إعجاب الرحالة الألماني جيرهارد رولف Gérhard Rohlf الذي اندهش من تنوع السلع المعروضة وكثرة الحوانيت في منتصف القرن 13 هـ / 19م [6] ، كما انتصبت بها العديد من الحِرف والصنائع فمنها حوانيت الحدّادين وأخرى للنجّارين وأخرى لصنّاع الحلي [7] .

* **سوق عين صالح** : أقيم في أكبر قصورها قصر العرب ، حيث أصبح بمثابة مركز عبور والتقاء للقوافل التجارية العابرة للصحراء ، التي تضع حمولتها لبيعها أو لاستئناف السير بها . وترتبط شمالا بأسواق مدينتي

---

[1]– فرج محمود فرج ، المرجع السابق ، ص 63 .

[2]– الحسن بن محمد الوزان ، المصدر السابق ، ج 02 ، ص 133 .

[3]– رغم التوسّع العمراني المتنامي في تلك المقاطعة ، إلاّ أنّه بالإمكان معاينة بقايا من تلك السوق ، حسب ما وقفتُ عليه رفقة الشيخ إبراهيم عبد الرحمن ، صاحب خزانة المخطوطات في قصر الشيخ بأولاد سعيد ، يوم 22 مارس 2011 م .

[4]– الحاج ابن الدين الأغواطي ، المصدر السابق ، ص 257 .

[5]– عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج 07 ، ص 77 .

[6]– محمد بن سويسي ، المرجع السابق ، ص 49 .

[7]– ابن بابا حيدة ، المصدر السابق ، ص 03 .

المنيعة وورقلة حيث التمور والحلفاء ، عبرَ عددٍ من الآبار بمعدّل مسافة يوم بين البئر والأخرى [1] ، كما ساهمت قوافل الحجيج الوافدة من قصر آقبلي ـ والتي كانت تمكث أياماً بالمدينة [2] وتَرِدُ سوقَها ـ في تنوّع السلع وازدهار النشاط التجاري والمالي .

وهكذا أصبحت توات ميناءً صحراوياً تجارياً هاماً يُضاهي مدن المغربين الأقصى والأدنى ، حيث " كانت الموانئ الصحراوية المغربية في وادي درعة والسوس وتافلالت تعجّ بالنشاط ، ولكن هذه المناطق تعرضت لأضرار اقتصادية جسيمة إثر تحول التجارة الإفريقية نحو توات في المغرب الأوسط وتونس " [3] .

03- التطلّعات العثمانية نحو البلاد التواتية :

بسط الأتراك العثمانيون نفوذهم على الجزائر أزيد من ثلاثة قرون (925هـ – 1246هـ / 1519م – 1830م) ، إلاّ أنّ كثيراً من الأقاليم الجنوبية الصحراوية ظلّت عصيّة على سيطرتهم [4] ، ومن بينها إقليم توات الذي لم يخضع للدولة العثمانية ، وظلّ مترنحاً في إدارته بين حكم الجماعة التواتية المحلية من جهة ، ومحاولات الهيمنة المخزنية المغربية من جهة أخرى . ورغم ذلك لم يشأ العثمانيون التفريط نهائيا في هذا الإقليم البعيد عن مراكز البايلك ومقاطعاته ، بعد إدراكهم ـ على ما يبدو ـ أهميتَه ومكانتَه ، فقد تواترت الزيارات الميدانية الاستطلاعية للإقليم ، ومنها قدوم وفد من أتراك الجزائر إلى توات بدعوة من أهلها سنة 987هـ / 1579م [5] ، دون البتّ النهائي في مستقبل الإقليم وعلاقته بالسلطة المركزية ، أعقَبتها جولة أخرى سنة 990هـ / 1582م ، قادها ابن باي طرابلس جعفر باشا ، مصحوباً بعشرة علماء متضلّعين في أصول المذهب المالكي وفروعه ، فاستقبلهم بعض العلماء التواتيين [6] .

---

[1]- الحاج ابن الدين الأغواطي ، المصدر السابق ، ص 256 .

[2]- عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، المصدر السابق ، ص 03 .

[3]- محمد خير فارس ، تاريخ المغرب العربي الحديث ، دمشق : الجمعية التعاونية للطباعة ، ص 32 .

[4]- رغم ذلك فقد أقام العثمانيون الحاميات العسكرية في بعض المدن الداخلية البعيدة مثل بسكرة ، كما تمكّن حاكم بايلك قسنطينة صالح باي (ت 1206 هـ) من دخول الأغواط ، وإخضاع جبال عمور والصحارى وما حواليها ، أما جماعة بني ميزاب في غرداية ودولة بني جلاب في تقرت فقد رأوا أن لا مندوحة لهم عن الانضمام للسلطة المركزية ، فراسلوا صالح باي بذلك مقابل الاحتفاظ بنوع من الاستقلال والنظام الداخلي . ينظر : أحمد توفيق المدني ، محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766–1791 م ، الجزائر : المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1986 م ، ص 138 . وأيضاً : محمود شاكر ، التاريخ الإسلامي (العهد العثماني) ، ط 4 ، بيروت : المكتب الإسلامي ، 2000 م ج 08 ، ص 520 .

[5]- Bernard Saffroy , op.cit , p 05 .

[6]- مؤلف تواتي مجهول ، تقييد في تاريخ توات (ذكر ما وجد من الأخبار التواتية) ، مخطوط بخزانة الشيخ سيدي عبد الله البلبالي ، كوسام ، أدرار ، ص 01 .

واللافت للنظر في تلك الزيارة هو غلبة الطابع العلمي الديني ، حيث حرص الأتراك على تبيان اهتمامهم بالمذهب المالكي الشائع بالمنطقة ، جنباً إلى جنب مع المذهب الرسمي للدولة العثمانية وهو الحنفي ، ومكث ذلك الوفد سنة كاملة ، ناظر خلالها علماء توات في قضايا مختلفة [1] .

لم يؤثّر الوجود العثماني في الجزائر على التسيير الإداري لإقليم توات ، حيث حافظ على نمطه الاستقلالي مقابل ضريبة رمزية على الساكنة [2] ، في إشارة ضمنية دالة على الاعتراف والولاء . وهو ولاءٌ ضَعُفَ بضعف أتراك الجزائر وتربّص ملوك المغرب السعديين ، حتى إذا ما ظهر حاكم عثماني مَهيب الجانب عاد السكان إلى ممارسة تبعيتهم الرمزية ، التي لم تتعدَّ دفع المكوس المفروضة . وهذا ما انتبه إليه صالح باي قسنطينة (ت 1206هـ / 1792م) في عهد الداي محمد عثمان باشا (ت 1205هـ / 1791م) ، حيث عاقب المستنكفين عن دفع الضرائب ، والتفت إلى جانب مشايخ الطرق وأرباب الزوايا ، فنزع عنهم بالحِلم تارة وبالشدة والقوة تارة أخرى كلَّ نفوذ سياسي وكلَّ سلطان على الناس [3] .

أما سكان توات فقد ألِفوا الوجود العثماني بالجزائر ، وألْفَوه خير حامٍ لديار الإسلام والمسلمين ، وتفاعلوا مع الانتصارات التي كان يحققها آلُ عثمان المسلمون على النصارى الصليبيين في حوض البحر الأبيض المتوسط ، ومنها صدّهم لحملة نابليون على مصر عام 1213هـ / 1798م ، ومقارعتهم للفرنسيين بعدها ودحرهم من على أسوار مدينة عكا بفلسطين ، حيث جادت قريحة الشاعر أبي العباس أحمد زروق الجعفري البوداوي (ت 1244هـ / 1828م) بقصيدة جاء فيها [4] :

قُلْ لِلفرنسيسِ كَبَا جِدّكُـمْ وَرَدتُـمْ ورداً بِلا مَصـــدرِ

البَرّ وَالبَحْرُ بِساطٌ لكُـــمْ لا فَوْتَ إنَّ اللهَ مِنكُمْ بَـرِي

حَسِبتُمْ مصرَ كَمَالطَـــةَ وصَادِقُ اللّهْجةِ كالمفتَـــرِي

هَيْهاتَ هَيهَاتَ لا مَفرَّ لَكُمْ إلاّ عَلَى الصَّارِمِ والسُّمَّـــرِ

---

[1] – بهية بن عبد المؤمن ، المرجع السابق ، ص 13 .

[2] – محمد باي بلعالم ، المرجع السابق ، ج 02 ، ص 41 .

[3] – أحمد توفيق المدني ، المرجع السابق ، ص 139 .

[4] – أحمد جعفري أبّا الصّافي ، أدب المقاومة في توات دراسة في الأعلام والمظاهر ، أعمال الملتقى الوطني الرابع " إسهامات علماء توات في الحركة الفكرية والثقافية إبّان العصر الحديث " ، جامعة أدرار : 19 – 20 أبريل 2010 م ، ص 61 .

مِـــنْ آلِ عُثمانَ أَتاكُم فَتى لأَخذِ ثَأرِ الدِّينِ في مَعْشَـــرِ
أُسُودٌ غِضَابٌ فوقَ صافِنَـــةٍ في طَالِعٍ يَسْمُو عَلى المشْتَرِي
تَحِنُّ لِلهيجَاءِ أَنفُسُهُـــــمْ مِنْ غَيْرِ مَا دِرعٍ ولاَ مَغْفَـــرِ
نُفوسَهمْ بَاعوا وأَمْوالَهَـــــمْ بِجنةٍ وَربُّنا المشْتَـــــــــرِي
كُلُّ فَتًى يَا وَيْلَكُمْ بَاسِـــلٌ نَدْبٌ هُمامٌ طَيِّبُ العُنصُـــرِ
جُموعُكُمْ مَا بَينَ قَتلى وَمَـــنْ في القَيدِ يَختالُ بِلا مِئْـــزَرِ
مَا هي بِالأُولى عَلَيكُمْ لَنَـــا وَما عَدَدْتُمْ قَطُّ بِالخَنْصَـــــرِ

وتلك القصيدة . وغيرها كثير [1] . تعبّر عن المشاعر التواتية الجيّاشة اتجاه الأقطار الإسلامية الواقعة تحت الظلم ، وتهيب بآل عثمان حاملي لواء الخلافة الإسلامية أن يدافعوا عن حِمى الدولة ومحارم الدين . وهو اعتراف ضمني بقوة الدولة العثمانية وصولاتها وجولاتها ، مقارنةً بالدول الأخرى المتعاقبة على حكم المغرب الأقصى ، والتي جعلت ضمن أهدافها السيطرة على الإقليم التواتي .

04- توات ومحاولات الاستقطاب المغربي :

حاول العثمانيون بسط نفوذهم على إقليم توات باحتشام ، أما دول المغرب الأقصى المتتالية فقد جعلت ذلك هدفاً استراتيجيا ، مرتبطاً بسياستها الخارجية ، نظرا للأهمية التجارية التي أثبتناها سابقا من جهة ، وكون الإقليم مفتاحا وقاعدة انطلاق نحو بلاد السودان من جهة أخرى [2] . إلاّ أنّ تلك المحاولات الحثيثة تعارضت مع رغبة التواتيين في الاستقلال ومقاومة أيّ شكل من أشكال الاحتواء ، فظلّت توات لقرون عديدة محلَّ صراع بين الاستقلالية والمخزنية [3] .

---

[1]- منها قصيدة نظمها الشيخ سيدي المختار الكنتي (ت 1226هـ / 1811م) للغرض ذاته يقول فيها :

يـَا أَهْلَ مَغْرِبِنا هُبّـوا لِقارِعـةٍ كانَتْ بِسَاحَتِكُمْ والقَلْبُ وَلْهَانُ
أَينَ الفَوارِسُ مِنْ عُرْبٍ وَمِنْ عَجَمٍ أَيْنَ المُلوكُ وَعَدْنانُ وَقَحْطَانُ

ينظر : محمد حوتية : قبيلة كنتة بين إقليمي توات والأزواد دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية خلال القرنين 12- 13 هـ ، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر ، إشراف أ د ناصر الدين سعيدوني ، جامعة الجزائر ، معهد التاريخ ، 1993م ، ص 183 .

[2]- محمد رزوق ، دراسات في تاريخ المغرب ، ط 1 ، الدار البيضاء : أفريقيا الشرق ، 1991 م ، ص 107 .

[3]- Mario vivarer , op.cit , p 13 .

ظهرت محاولات السيطرة المغربية الفعلية على إقليم توات في زمن الدولة المرينية (668هـ - 961هـ / 1270م – 1554م) أثناء الصراع المرير بين أمرائها على الحكم أوائل القرن 8هـ / 14م . حيث حاول ولي العهد الأمير أبو علي عمر الخروج على أبيه الملك أبي سعيد (ت 731هـ / 1331م) ، ورفض أخوه أبو الحسن نصرته ، وآثرَ جانب أبيه ، ثم كان الصلح والاتفاق على أن يرتحل أبو علي إلى سجلماسة ويستقرّ بها ، ومن سجلماسة توجَّه نحو توات وأخْضعها بالكامل ستة 716هـ / 1316م [1] ، وهذا ما أثبته صاحب الاستقصا في قوله [2] " وارتحل [أبو علي] إلى سجلماسة سنة خمس عشرة وسبعمائة فأقام بها دولة فخيمة ، واستولى على بلاد القبلة ، ودوّن الدواوين واستلحق واستركب واستخدم ظواعن العرب من بني معقل ، وافتتح معاقل الصحراء وقصور توات وتيكورارين وتمنطيت وغير ذلك " .

وحاول أبو الحسن (ت 752هـ / 1351م) بعد توليه الحكم والتمكن من القضاء على ثورة أخيه أبي علي السيطرةَ على الأقاليم الجنوبية ومن ضمنها إقليم توات ، حيث سعى إلى ضمّ أقطار بلاد المغرب وتوحيدها تحت سلطته ، نظرا للضعف الخطير الذي آلت إليه في عهده كلٌّ من مملكة أفريقية الحفصية ، ودولة بني عبد الواد الزيانية [3] ، إلاّ أنه لم ينصّب والياً على الإقليم من قِبَله ، وهكذا زالت السيطرة المرينية على توات بانحسار الحملات العسكرية إلى قواعدها . ثم حكم أبو عنان فارس (ت 759هـ /1358م) الذي ثار على والده أبي الحسن وأشرف على رحلة ابن بطوطة الأخيرة إلى بلاد السودان عبر توات .

أما الدولة السعدية (961هـ - 1069هـ / 1554م – 1659م) [4] التي قامت على أنقاض الوطاسيين أبناء عمومة المرينيين ، فقد نجحت في التوفيق بين توجهاتها نحو حماية الثغور والمدن الشمالية من الاعتداءات الأوروبية . خاصة بعد سقوط غرناطة آخر معاقل الإسلام بالأندلس سنة 897هـ / 1492م . من جهة ، ورغبتها في التوسّع جنوباً نحو بلاد السودان من جهة أخرى .

بدأ اهتمام السعديين بإقليم توات في عهد السلطان محمد الشيخ المهدي (ت964هـ / 1557م)

---

[1]- Bernard Saffroy , op.cit , p 03 .

[2]- أحمد بن خالد الناصري ، المصدر السابق ، ج 03 ، ص 107 .

[3]- إبراهيم حركات ، المغرب عبر التاريخ (من بداية المرينيين إلى نهاية السعديين) ، ط 1 ، الدار البيضاء : دار الرشاد الحديثة ، 1978 م ج 02 ، ص 43 .

[4]- **الدولة السعدية** من الدول القائمة بالمغرب الأقصى ، تُنسب إلى محمد النفس الزكية ، فهم بنو عمّ العلويين ، وهذا ما أثبته اليُفراني في نزهة الحادي ، أما المقرّي صاحب نفح الطيب فقد نسبهم إلى بني سعد بن بكر بن هوازن . وقيل إنما لقّبهم العامة بالسعديين تيمّناً لأنهم سعدوا بدولتهم ، تأسّست جنوب المغرب على يد أبي عبد الله محمد القائم ، إثر حركة شعبية حاربت البرتغاليين والوطاسيين . من ملوكها أبو العباس أحمد الأعرج ومحمد الشيخ السعدي والمنصور الذهبي وابنه زيدان . عرفت ازدهاراً فكريا واقتصاديا ، حتى سقوطها على يد العلويين سنة 1069هـ / 1659م . ينظر : أحمد بن خالد الناصري ، المصدر السابق ، ج 05 ، ص ص : 03 - 07 .

حيث حاول بسط نفوذه عليه ، فأرسل حملة عسكرية واجهَتْها كوكبة من الجنود الأتراك ودحرتها على أعقابها [1] . وظلت المنطقة أسيرة الصراعات العثمانية المغربية في عهد هذا السلطان الذي رفض الاعتراف بسلطة الأتراك على المغرب الأوسط ، ونعتَ السلطان العثماني سليمان القانوني بسلطان الحواتة ، لأن البواخر العثمانية كانت تجوب البحر المتوسط بكثرة ، فتمّ اغتياله بالحيلة والدسيسة على أيديهم [2] .

وبعد اعتلاء أحمد المنصور الذهبي (ت 1012هـ / 1603م) [3] العرش السعدي ، جعل من بين أهدافه الاستيلاء على القطر التواتي ، ومن ثَمَّ الانطلاق باتجاه بلاد السودان ، خاصة وقد استتب الأمن في البلاد بعد انتصاره . تحت إمرة أخيه السلطان عبد الملك المعتصم . على البرتغاليين في معركة وادي المخازن [4] سنة 986هـ / 1578م ، واستقباله الوفود المهنئة من مختلف الأمصار ، محمّلة بالهدايا ومذعنة بالولاء .

كان أهالي توات قبل مجيء السعديين يدفعون الضرائب للمرابطين وأحياناً يدفعونها لحكومة بني مرين لكنّهم منذ زمن بعيد لم يدفعوا شيئاً لأي جهة [5] . كما أنّ الأخبار تتواتر عن كميات الذهب المعتبرة التي تختزنها بلاد السودان ، ودولة المنصور الصاعدة في أمسّ الحاجة إلى تلك الأموال ، كلّ ذلك ساهم في الإسراع باتخاذ قرار مصيري يتعلق بإرسال جيش كبير لغزو الصحراء .

بدأ المنصور الذهبي تنفيذ مشروعه التوسّعي جنوباً ، فأرسل القادة إلى أهل توات يدعونهم للطاعة والإذعان ، إلاّ أن الرد كان سلبياً في ظل الاستقلالية التي كان يتمتع بها الإقليم ، فجهّز المنصور جيشه ليخوض حربا غير متكافئة ، انتهت بسيطرته على توات سنة 989هـ / 1581م . وقد صوّر الصغير اليُفراني (ت 1153هـ / 1740م) ذلك في قوله [6] : " لما استقرّ المنصور بمراكش طمحت نفسه إلى

---

[1]- محمد باي بلعالم ، المرجع السابق ، ج 02 ، ص 54 .

[2]- إبراهيم حركات ، المرجع السابق ، ج 02 ، ص 281 .

[3]- **أحمد المنصور الذهبي** أعظمُ الملوك السعديين وأشهرُهم . يُنظَرُ ترجمته في : عبد العزيز الفشتالي ، المصدر السابق ، ص 25 / أحمد بن خالد الناصري ، المصدر السابق ، ج 05 ، ص 89 / محمد الصغير اليُفراني ، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي ، تحقيق : هوداس ، انجي : مطبعة بردين ، 1888 م ، ص 78 / إبراهيم حركات ، المرجع السابق ، ج 02 ، ص 296 / محمد حجي ، موسوعة أعلام المغرب ، ط 1 ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، 1996 م ، ج 03 ، ص 1124 .

[4]- **وادي المخازن** معركة حاسمة في تاريخ المغرب ، كسر فيها السعديون شوكة البرتغاليين ، وقضوا بذلك على سطوتهم الحربية والسياسية . وقعتْ قرب القصر الكبير بالعرائش ، شارك فيها العلماء والصالحون ، واستخدمت المدافع . تسمّى أيضا معركة الملوك الثلاثة ، حيث قُتل فيها ملك البرتغال دون سباستيان ، ومحمد المتوكل المخلوع ، وعبد الملك المعتصم متأثرا بمرضه . بويع على إثرها أحمد المنصور الذهبي ملكاً . ينظر : إبراهيم حركات ، المرجع السابق ، ج 02 ، ص 292 .

[5]- عزيز سامح التِر ، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية ، ترجمة : محمود علي عامر ، ط 1 ، بيروت : دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، 1989 م ، ص 341 .

[6]- محمد الصغير اليُفراني ، المصدر السابق ، ص 87 .

التغلب على بلاد توات وتيكورارين ، إذ كان أهلهما قد انفكّت عنهم أيدي الملك منذ زمان ولم يستولِ عليهم سلطان قاهر ، فبعث إليهما قائديه أحمد بن بركة وأحمد بن حداد العمري المعقلي ، في جيش عرمرم ... فنازلوهم وقامت الحرب بينهم على ساق وطالت المعركة بينهم أياماً ، وانتهى الفتح للمنصور ففرح بذلك ، وقال في ذلك الشعراء قوافي ، وكان ذلك كله سنة تسع وثمانين وتسعمائة " .

وقد استهدفت الجيوش المغربية في بادئ الأمر قاعدتي تيميمون وتمنطيط ، فروّعت الأهالي المتحصّنين في قصباتهم ، وأنزلت بهم الخسف والتدمير ، وعادت بيوتهم خاوية كأن لم تغنَ بالأمس ، وأطبقَ على الجميع تيارُ الهلكة وأصبحوا مثلاً في الغابرين ، حسبما شهد به الفشتالي (ت 1031هـ / 1622م) مؤرخ السعديين [1] .

والدليل الآخر الدّال على أهمية ضمّ توات إلى أقاليم الدولة السعدية هو تسابقُ الشعراء في قصائدهم إلى تهنئة المنصور الذهبي بعدما تمّت له الغلبة على صقعي توات وتيكورارين ، والإشادة بذلك الإنجاز ، ومنها قصيدة طويلة لمحمد الهوزالي (ت 1050هـ / 1640) جاء فيها [2] :

فُتوحٌ جَنَا المنصور في عَرَصاتهـــا أَزاهِر نَصْرٍ يَانعٍ مِن غِصَانهـــــا
وَلا رَوضَ إلاّ مِن كَثيفِ كَتائبٍ ولا سَقْيَ إلا مَا جَرى مِن طِعَانها
كَتائِبُ مَنصوريةٌ قَذفتْ بِهـــا مَرامٍ نَأَتْ عَن أَرضِها ومكَانِهـــا
فَألقَتْ مقَاليدَ الأُمورِ إلى الـذي نَضَا العزَّ عَنها فارتدّتْ بِهَوانِهـــا

لكنّ التواتيين سرعان ما رفضوا ذلك الهوان والانقياد ، وتاقتْ نفوسهم إلى الحرية من جديد ، فأعلنوا التمرد والعصيان ، وانتفضوا رفقة أجلاب عرب اليمن على قائد البلاد سعيد بن الحسن وقتلوه [3] . فأرسل المنصور الذهبي أجناداً بقيادة مملوكه سليمان وقائده علال بن محمد سنة 997هـ / 1589م ، " فأقاموا في جهات توات لتخريب منازل المارقين من أهلها ، وكانوا قد شردوا أمامهم إلى القفر بأولادهم وتركوا الديار والمنازل ، فعاث فيها الأجناد ونسفوها نسفاً " [4] .

ولعلّ تلك الممارسات القمعية من لَدُنْ الأجناد المغربية ساهمت في ثني السكان المحليين عن الانضمام طوعاً إلى رِكاب السعديين ، فظلت العلاقة متوترة بين الطرفين حتى أدرك المنصور أهمية استرضاء أهل توات

[1]– عبد العزيز الفشتالي ، المصدر السابق ، ص 78 .

[2]– أحمد بن محمد المقري ، روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس ، ط 2 ، الرباط : المطبعة الملكية ، 1983 م ، ص 31 .

[3]– عبد العزيز الفشتالي ، المصدر السابق ، ص 115 .

[4]– المصدر نفسه ، ص 116 .

والصحراء ، حين عزم على تجهيز جيش كبير لفتح بلاد السودان ، متّخذاً من توات قاعدةَ دعمٍ وإسناد ، فنصحه أهل الشورى بتأمين الطريق ووصلِ الأعراب والخلعِ عليهم ، وتمّ للمنصور مُراده سنة 999هـ / 1591م ، وحُمِل له من ذهب السودان ما يحيّر الناظرين ، ولأجل ذلك لقّب بالذهبي [1] .

وفي زمن الدولة العلوية [2] (القائمة منذ 1069هـ / 1659م) استمرت محاولات الاستقطاب المغربية للإقليم التواتي ، من خلال الحملات المتتالية على المنطقة ، وأُولاها كان من طرف المولى محَمد بن علي الشريف (ت 1075هـ / 1664م) ، حيث دخل توات بجيش كبير ، ومكث بها أربعة أشهر ، حدّد خلالها صرف المثقال من الذهب بتسعة مثاقيل من الفضة ، وأرغم مشايخ توات على دفع الإتاوات السنوية لبيت المال العلوي [3] ، وامتدت سيطرته إلى غاية قصور أوقروت شرقاً . وهذا ما كان العياشي (ت 1090هـ / 1679م) قد أشار إليه في رحلته قائلاً [4] "...من بلاد أوكرت وهي آخر البلاد التي هي تحت طاعة الشريف صاحب سجلماسة " .

أما السلطان مولاي إسماعيل العلوي (ت 1139هـ / 1727م) فقد سار سيرة المنصور الذهبي السعدي ، وبسط سيطرته على توات وبلاد السودان لفترة طويلة . لكنّ ذلك لم يكن كافياً لضمان الولاء التام ، حيث اندلعت ثورة كبيرة شملت ربوع توات عقِب وصول نبأ وفاته سنة 1140هـ / 1728م ، تزعمها الشيخ عمر بن محمد من تمنطيط ، وانتهت بطرد القائد المخزني حمدون . ثم تمكن ابنه السلطان مولاي عبد الملك من إخماد تلك الثورة وإعادة توات إلى ربوع البيت العلوي من جديد [5] .

وظلّت توات خلال القرن 12 هـ قبلةً للملوك العلويين ، الذين أدركوا ـ على غرار مَنْ سبقهم ـ أهمية الإقليم وضرورة السيطرة التامة على أجزائه . خاصة وأن السكان كانوا يشتكون دوماً من هجمات وإغارة القبائل العربية المتاخمة لحدوده ، فقدِم مولاي العباس بن مولاي إسماعيل سنة 1157هـ / 1744م ، واستقبله أعيان المحارزة وغيرهم من القبائل [6] .

---

[1]- محمد الصغير اليُفراني ، المصدر السابق ، ص 95 .

[2]- ينتسب **العلويون** الحاليون إلى جدهم الأدنى مولاي علي الشريف المنحدر من سلالة علي بن أبي طالب .كرّم الله وجهه . وقد استقروا في سجلماسة ، وأسّسوا بها إمارتهم الأولى التي كانت غايتها المبدئية الجهاد . ويعتبر المولى رشيد المؤسّس الفعلي للدولة حيث دخل مراكش وقضى على السعديين سنة 1069هـ / 1659م . ومن أشهر ملوكهم : المولى إسماعيل والمولى محمد بن عبد الله والمولى الحسن الأول . ينظر : أحمد بن خالد الناصري ، المصدر السابق ، ج 07 ، ص ص : 32 – 101 .

[3]- بهية بن عبد المؤمن ، المرجع السابق ، ص 14 .

[4]- أبو سالم العياشي ، المصدر السابق ، ج 01 ، ص 107 .

[5]- Bernard Saffroy , op.cit , p 07 .

[6]- أبو عبد الله الفلاني ، الرحلة في طلب العلم ، مخطوط بخزانة مولاي سليمان بن علي ، آدغا ، أدرار ، ص 02 .

وقد استمر ذلك التجاذب ردحاً من الزمن ، لم ييأس خلاله الملوك العلويون من تكرار محاولات الاستقطاب [1] ، ولم يرفع إثرَها التواتيون راية الاستكانة والخضوع والاستسلام ، لِما جُبِلوا عليه .كغيرهم من أبناء الجزائر . من حبّ الحرية ومَقتِ الهيمنة والاستعباد .

[1]– يُنَظِّر بعض الكتّاب المغاربة . المتقدّمين منهم والمتأخّرين . لمغربية إقليم توات وما جاوره عبر التاريخ ، ويسوقون في ذلك حججاً واهية ، ويتناسون الثورات التواتية المتواصلة طيلة حكم العلويين .

يُنظر : أحمد العماري ، توات في مشروع التوسع الفرنسي بالمغرب 1850-1902 م ، فاس : منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، ص 37 وما بعدها .

خلاصة الفصل الأول

من خلال ما سبق عرضه ضمن مباحث هذا الفصل الأول ، يتبين لنا مدى التنوع الجغرافي والثراء التاريخي لمناطق إقليم توات وقصوره ، ممّا حتّم على الجغرافيين والمؤرخين تقسيمه إلى ثلاث جهات متباينة ، وهي منطقة تيكورارين (القورارة) ، ومنطقة توات الوسطى ، ومنطقة تيدكلت . كما أن كلّ واحدة منها ضمّت بين جنباتها مدناً وقصوراً مزدهرة ، حطّت بها الركبان عبر تاريخ الصحراء السحيق ، وخطّت ذكرَها كتب الرحالة القدماء كمناطق جذب للعابرين والوافدين ، مستفيدة من وجود تمايز مناخي ، أتاحَه تقاطع ثلاثة أودية جارية تنبعُ من جهات متعددة ، هي واد مسعود المتصل بواد الساورة وواد زوزفانة ، وواد امقيدن ، وواد قاريت .

ولعلّ ذلك التميّز للقطر التواتي ، وموقعه وخصائصه الطبيعية هو الباعث على الجدل المتنامي بشأن إشكالية حمل الإقليم اسم " توات " ، حيث تنوعت الروايات وتعددت التفسيرات ، ما بين اللغة والاصطلاح . وإن كانت محصّلة نقد تلك الروايات قد أوصلتنا إلى نتيجة مؤدّاها أنّ التسمية مرتبطة بالقبائل الزناتية التي اختطّت قصور الإقليم ، وخلّدت عبورها من خلال أسماء دالة عليها ، ومنه استنتجنا أنّ الكلّ لم يشذ عن المكوّنات والأجزاء .

كما أنّ الأمر الهام الدال على عمق إقليم توات اسماً ومسمًّى ، هو وروده في أمّهات المصادر التاريخية ، كعِبر ابن خلدون ووصف الوزان ورحلة ابن بطوطة وغيرها ، مقروناً بتفاصيل وجزئيات عن أهمّ القصور ومميزاتها الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية ، مع التركيز على الجانب التجاري الذي أضفى عليه مكانة إقليمية خاصة . ممّا كان له الأثر البالغ في احتدام الصراع بين الدولة العثمانية الصاعدة في العالم الإسلامي شرقه وغربه من جهة ، والدول القائمة ببلاد المغرب الأقصى من جهة أخرى ، من أجل الغلبة على حدوده والاستئثار بمزاياه وخيراته .

الفصل الثاني

الجنتوري عصره ونوازله

– تمهيد

المبحث الأول : عصر المؤلِّف وخصوصياته

يُلقي هذا المبحث الضوء على الأوضاع العامة في إقليم توات خلال فترة الدراسة وهي القرن 12 هـ / 18 م ـ عدا الأوضاع الاجتماعية والثقافية ـ حيثُ التركيز على الوضعين السياسي والأمني ، وما ترتّب عنهما من اشتداد حرب " يحمد وسفيان " ، ويبرز لجوء التواتيين إلى تنصيب هيئات قيادية محلية تتولى مقاليد الحكم والفصل في النزاعات ، وكذا انعكاس الحركتين الصوفية والوهابية على المنطقة .

المبحث الثاني : التعريف بالشيخ الجنتوري

يُخصّص هذا المبحث للتعريف بشخصية العلاّمة عبد الرحمن الجنتوري ، صاحب النوازل الفقهية محل الدراسة ، من حيثُ مولدُه ونسبه ، ودراسته ورحلاته وشيوخه ، وصفاته الخُلُقية ومؤهّلاته العلمية ، وصولاً إلى تصدّره للإفتاء ومكانته بين معاصريه ، مع التركيز على بعض آرائه الفقهية ، ومواقفه الحادّة من قضاة زمانه ، وأشهر مؤلّفاته وتلامذته ، حتى وفاته سنة 1160 هـ / 1747 م .

المبحث الثالث : فقهُ النوازل في توات

سأتطرق خلال هذا المبحث إلى تاريخ المذهب المالكي في توات ، وأشهر الفقهاء الذين عملوا على تكريس وجوده بها ، وبعض الخصوصيات التي تميّز بها الإقليم فساهمت في مواءمة ذلك المذهب ، وشيوع فقه النوازل خلال القرن 12 هـ ، وتبيان تعدّد أوجه الأهمية في نوازل الشيخ الجنتوري ، من فقهٍ وثقافة ومجتمع واقتصاد وغيرها .

– خلاصة الفصل

الفصل الثاني : الجنتوري عصرُه ونوازلُه

تعرّفنا في الفصل الأول على المميزات الطبيعية والجغرافية لإقليم توات ، هذا الاسم الذي تضاربت الروايات حول مصدره وتباينت ، وعرضنا الدلائل المتعددة حول أهمية توات سياسيا وتجاريا ممّا جعلها محط صراع مستمّر بين الدول القائمة ، تلكم إذاً بيئة خصبة جديرة بإبراز مكنوناتها ، وتفتّق مواهبها .

في ذلك المناخ المفعم بالنشاط والحِراك . على مختلف أوجههما . برزتْ شخصية الشيخ عبد الرحمن الجنتوري (ت 1160هـ / 1747م) وتبلورتْ مكوّناتها ، وتجلّى تأثيرها على المشهدين الثقافي والاجتماعي في المنطقة . ولكن قبل الخوض في حيثيات تلك الشخصية الفاعلة وعلاقتها بالمكان تأثيرا وتأثراً ، يجدر بنا أن نعرّج أولا على الزمان وهو القرن الثاني عشر الهجري ، فما دلالاته العامة ؟ وما إسقاطاته الخاصة ؟ وهل توفّرت العوامل خلاله لِبعث حركة علمية حضارية يكون الجنتوري أحد أقطابها ؟ وفي آخر هذا الفصل سأبسط الحديث عن النوازل الفقهية التي أصبحت سِمة طبعتْ الإقليم التواتي ، وأهميتها في جرد ومعالجة الظواهر الاجتماعية ، واستظهار التوجّهات الثقافية والفكرية .

المبحث الأول : عصر المؤلّف وخصوصياته

01- الأوضاع العامة خلال القرن 12 هـ / 18 م [1] :

أ – الوضع السياسي :

لم يشذّ الوضع في القرن 12 هـ . سياسياً . عمّا سبقه ، حيث ظلّ إقليم توات رهناً للتقلبات والتغيرات الإقليمية ، مع قيام الدول وسقوطها ، فبعد الثورة العارمة التي خاضها التواتيون سنة 1140هـ / 1728م ضد الحكم المخزني المغربي ، والتي أعقبت وفاة السلطان مولاي إسماعيل ، تمكّن خليفته السلطان مولاي عبد المالك من إخضاع التواتيين لحكمه ، لكنه لم يهنأ بذلك إلا يسيراً ، حيث عادت الثورات من جديد ، كلما تعلّق الأمر بوصول الكتائب العسكرية التي كان يرسلها الحكّام العلويون من أجل جباية الضرائب وقمع الحركات الاستقلالية ، وهذا ما حدث فعلاً سنة 1169 / 1756 هـ [2] .

وخوفاً من اتساع نطاق الثورات وسعياً لتهدئة الأمور ، أمَرَ السلطان العلوي الجديد المولى محمد بن عبد الله (ت 1204هـ / 1790م) بألاّ يتخذ تحديد الجباية واستخلاصها شكلاً تعسفياً ، وأن يُعفى سكان توات من دفع ضريبة المياه ، ويقتصرون فقط على العُشر من إنتاج التمر والشعير [3] .

---

[1]- الحديث بالتفصيل عن الأوضاع الاجتماعية والثقافية في الفصول اللاحقة .

[2]- Bernard Saffroy , op.cit , p 08 .

[3]- بهية بن عبد المؤمن ، المرجع السابق ، ص 16 .

ومع مرور الزمن أصبح حكّام الدولة العلوية يكتفون فقط بجباية الضرائب السنوية التي يجمعها العاملون والمشايخ والأعيان مكرهين ، مقابل التمتّع بصلاحيات سياسية وإدارية ، واستقبال القائد ممثل السلطان وإكرام وِفادته حين يحلّ بالإقليم في زياراتٍ تكاد تكون سنوية بهدف حمل الضرائب إلى فاس [1] . وتبدو تلك محاولة لإيجاد قنوات اتصال مع سكان توات . ومن أشهر أولئك القيّاد الموفدين [2] : أحمد بن عمور ، محمد الصفار ، القائد الغازي ، حمدون الروندي ، الباشا الطاهر ، الجيلالي الصفار .

والظاهر أن تلك الإغراءات المخزنية لم تُرضِ التواتيين ، الذين لم يلامسوا المظاهر الحقيقية للسلطة السياسية المغربية ، وأصبحوا يرفضون البقاء رهن تقلبات سياسية خارجية لا تتعدى فرض الضرائب وتفضيل فئة معينة . وهذا ما يمكن استنتاجه من آراء الشيخ عبد الرحمن الجنتوري (ت 1160هـ / 1747م) المتعلقة بالضوابط الشرعية في التبعية السياسية لسلطة بذاتها ، والتي تضمنتها نوازله الفقهية محلّ الدراسة ، حيث قال [3] " وكل بلد لا سلطان فيه ، أو فيه سلطان يضيّع الحدود ، أو سلطان غير عدل ، فعدول الموضع وأهل العلم يقومون في جميع ذلك مقام السلطان " .

ب – الوضع الأمني :

في ظلّ غياب سلطة فعلية قوية رادعة ، تعرّض إقليم توات خلال هذه الفترة .كما قبلها [4] . لسلسلة من الهجمات والغارات من طرف القبائل المجاورة ، المنتجِعة في البراري وقرب الأودية . مما كان يؤدّي في الغالب إلى ترويع السكان وتهديم القصور وقطع أشجار النخيل ، فلا يجد الأهالي بدّا من مداراتهم بالأموال اتّقاء شرّهم وحفظاً لمصادر رزقهم .

من تلك الغارات السابقة هجوم البدو الرحل سنة 1071هـ / 1661م ، حيث فرضوا على سكان القصور الإتاوات ، ونهبوا كل من امتنع عن أداء الجباية ، واسترقّوا الأحرار وباعوهم عبيداً في سوق النخاسة كما خرّبوا خلالها عدة قصور . ولم ينجُ سكان توات من ذلك إلا بتكتل قبائل الخنافسة [5] مع قبائل المحارزة

---

[1]– فرج محمود فرج ، المرجع السابق ، ص 06 .

[2]– أحمد العماري ، المرجع السابق ، ص 40 .

[3]– عبد الرحمن الجنتوري ، نوازل الجنتوري ، ص 92 .

[4]– تحدّث ابن خلدون عن عرب المعقل الذين تكاثر عددهم في الصحراء ، ونمو نمواً لا كفاء له ، فأصبحوا يغيرون على قصور توات ، ويضعون عليها الإتاوات والضرائب ، وأشار كذلك إلى تسلّط أعراب بادية السوس على طريق بودة واعتراض القوافل التجارية .
يُنظر : عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج 06 ، ص 78 / ج 07 ، ص 77 .

[5]– **الخنافسة** قبيلة عربية ، بطن من بني راشد من الحميديين من جذام ، من القحطانية ،كانت مساكنهم شرق الديار المصرية ، انتشروا في قصور توات مثل زاوية الدباغ وتعنطاس وتابلكوزة وخاصة في القصور بين أوقروت و كبرتن (تالة ، تنقلين ...) ، منذ القرن 6 هـ . ينظر : عمر رضا كحالة ، المرجع السابق ، ج 01 ، ص 363 . وأيضاً : محمد حوتية ، توات والأزواد ، ج 01 ، ص 71 .

وأولاد محمد الذين تعقبوا الغزاة واستردوا منهم المغانم [1] .

أما قبيلة الغنانمة [2] التي لم تكن مضاربها بعيدة عن البلاد التواتية ، فقد استمرت إغارتها على سكان قصور توات وتيكورارين لفترات طويلة [3] ، كلما تعرضت أراضيها للجفاف وأعوزتها الأموال ، خاصة وأن بعض السكان كان يتّخذ ولاءَها مطية لترهيب أهل بلده والتعدّي على أملاكهم ، فقد اشتكت امرأة للشيخ الجنتوري من زوجها بوصفه [4] " كان رجلاً ظلوما ، قد شوّش أهل بلده ، وكلّهم يتقون شرّه حتى شيخ البلد ، لِقوة يده مع الغنانمة " ، وأخذتْ تلك الغارات أشكالا عدة ، وصلتْ إلى حدّ تجهيز جيش عظيم من فرسان البرابر (البدو الغزاة) والزحف بهم على الديار التواتية [5] .

كما كانت توات تتعرض باستمرار لهجمات قبائل أخرى ، منها قبيلة ذوي منيع [6] ، بسبب ما أصابها من القحط والجفاف . وكانت تلك القبيلة تخيّم في الإقليم أياما عديدة ، وتعيث في الأرض فساداً فيلجأ السكان إلى طلب المساعدة من القصور المجاورة ، أو الاستعانة بقبائل مهيبة الجانب مثل قبيلة الخنافسة القوية ، والتي وقعت بينها وبين ذوي منيع وقائع عظيمة من الدماء ونهب الأموال ، فكلُّ فريق من الفريقين قد استحلّ دم الآخر وماله وأملاكه ـ كما ذكر الشيخ الجنتوري ـ [7] .

إلاّ أن تلك الهجمات المستمرة ـ من معظم الجهات ـ لا تعني العداء التام المتواصل ، إذ تمكن أعيان توات بفضل الشيخ القاضي عبد الكريم بن سيد البكري (ت 1174هـ / 1761م) من عقد اتفاق الصلح بين البرابر الغُزاة والقبائل التواتية ، فالتقى الجمعان بين تيمي وتمنطيط . وكان ذلك اليوم مشهوداً عظيما ، واستكملوا بقية يومهم بلعب الخيل والبارود وأنواع الزهو ... وارتفع بذلك الشنآن وكثر في البلاد الأمان ، وذلك في وسط القرن 12 هـ / 18 م [8] .

---

[1]- بهية بن عبد المؤمن ، المرجع السابق ، ص 16 .

[2]- **الغنانمة** نسبة إلى غَنْم ، وهي قبيلة عربية من عبد الله بن غطفان ، من قيس بن عيلان ، من العدنانية ، كانوا ينتجعون قرب واد الساورة (ولاية بشار حاليا) . يُنظر : عمر رضا كحالة ، المرجع السابق ، ج 03 ، ص 893 / رشيد بلّيل ، المرجع السابق ، ص 36 .

[3]- رشيد بلّيل ، المرجع نفسه ، ص 36 .

[4]- عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 72 .

[5]- محمد بن عبد الكريم التمنطيطي ، درة الأقلام ، ص 37 .

[6]- **ذوي منيع** قبيلة عربية عدنانية ، أخذت اسمها من الحاج عبد الكريم **منّاع** بن محمد بن إبراهيم المعقلي ، فهي من عرب المعقل على غرار المغافرة وجرار وغيرهم ، تنتشر مواطنها في مواقع العبادلة وتاغيت وقرب الحدود المغربية ... يُنظر : أحمد بن خالد الناصري ، المصدر السابق ، ج 07 ، ص 58 .

[7]- عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 79 .

[8]- محمد بن عبد الكريم التمنطيطي ، المصدر السابق ، ص 37 .

وقد سئل الشيخ الجنتوري عن الطريقة المثلى التي يكفلها الشرع في التعامل مع هؤلاء الغاصبين ، الذين أصبحوا يوسمون في اللسان الدارج التواتي بـ " الغزّي " أو " السلاّبة " ، وهل السكان ملزمون بدفع تلك المدارات أو الضرائب ، فأجاب [1] " فإن شاءوا (أيْ السكان) قاتلوا على أموالهم وإن شاءوا صبروا ودفعوا من أموالهم...وتلك مصيبة نزلت بهم " .

وتسمّى تلك الضريبة التي كان يؤدّيها السكان لأولئك الغزاة بالوظيف [2] ، ويشتركون في دفعها جميعا الحاضر كما الغائب . وهذا ما بيّنه الشيخ الجنتوري في جوابٍ له حول ذلك قائلاً [3] " ولا يصحّ لأحد لمن كان له مال في بلد الامتناع من ذلك ، لأن المقام بالبلد لا يمكنهم إلا بذلك ، لأنه لولا مقام أهل البلد في بلدهم لم ينتفع من له أصل بأصله " .

ج – حرب يحمد وسفيان [4] :

لم تُقلق التواتيين وتقضّ مضاجعهم تلك الهجمات الخارجية من قِبل أعراب البوادي فحسب ، بل ظهرت خلال هذه الفترة فتنة داخلية ـ أشدّ من القتل ـ بين القبائل التواتية سميت ـ مجازاً ـ بحرب يحمد وسفيان ، قسّمت البلاد إلى مقاطعات وأحلاف متحاربة ، واستنزفت جموع التواتيين وفرّقت كلمتهم ، فأصبحت القبائل التواتية مخيّرة بين الولاء لفرقة يحمد أو الولاء لفرقة سفيان .

وأصل هذه الفتنة الداخلية وتسميتَي يحمد وسفيان خطاب أرسله أحد القادة إلى السلطان العلوي ، يخبره فيه باشتداد الحروب بين قبائل الصحراء وإغارة بعضها على بعض ، مثل الحروب التي دارت في صدر الدعوة المحمدية ، بين النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبي سفيان زعيم قريش قبل إسلامه ، وحكمة التشبيه ليعظم الأمر على السلطان ، فيسعى إلى وأد الفتنة قبل استفحالها [5] .

إلاّ أن السلطان المغربي لم يولِ الأمر أهميته ، فأصبح التشبيه واقعاً ، وأُسقِطت تلك العداوة التاريخية التي كانت بين المسلمين والكفار على المجال التواتي بامتياز ، وظهر التعصب الأعمى للحِلف ، والضغينة والكراهية للمنتسبين إلى الحلف الآخر . وفي ذلك يقول البكري [6] " ... فصارت عداوة يحي وسفيان

---

[1]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 28 .

[2]– المصدر نفسه ، ص 28 .

[3]– المصدر نفسه ، ص 28 .

[4]– من المفارقات أن تشتد وطأة هذه العادة السيئة خلال القرن 12 هـ ، حيث ازدهرت الحركة العلمية والثقافية بتوات ، وهو ما أحبط جهود مصلحين مثل الجنتوري الذي أشار إلى ذلك بقوله " ولا سيما في هذا الزمان الذي كثر فيه التحايل على استئصال أموال الناس " . يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر نفسه ، ص 37 .

[5]– عبد الحميد بكري ، النبذة في تاريخ توات وأعلامها ، الجزائر : مطبعة الطباعة العصرية ، 2010 م ، ص 42 .

[6]– محمد بن عبد الكريم البكري التمنطيطي ، المصدر السابق ، ص 11 .

مخـتصة بالبلاد التواتية ، والعجب كلّ العجب أن تجد بلدين مختلطي النخيل والمرافق بحيث يسمع كل واحد نداء مؤذن الآخر ، ويتعصب واحد لفئة يحمد والآخر لفئة سفيان . والأعجب منه يجتمع الشخصان لم يرَ أحد منهما الآخر قط ، فإذا أخبره أنه من فئة سفيان كرهه أشدّ الكراهة حيث كان هو من فئة يحمد ولعَمْري إنّ ذلك لعداوة شيطانية ونار ظلمانية " ، كما استعانت كلّ طائفة منهما بقبائل وبحلفاء من خارج توات ، إذْ تحالفت فئة يحمد مع عرب ذوي منيع والطوارق ، بينما انضمت فئة سفيان إلى عرب الغنانمة والشعانبة [1].

ومن مظاهر تلك النعرات الطائفية إعلان بعض القبائل انضمامها إلى أحد الطرفين في شكل استعراضي وتعدّيها على قبائل الطرف المعادي . فقد انطلقت قبيلة " أكدوع " المنتمية إلى فئة سفيان من رقان ، وأثناء مرورهم على زاوية سيدي عبد القادر المنتمية إلى يحمد ، رفضوا الضيافة المقدمة إليهم من أهل ذلك القصر ، فنهبوه وسلبوا السكان أملاكهم من ملابس وحيوانات ومعدّات زراعية ، واحتموا بقبائل تمنطيط التي تنتمي إلى حلفهم ، لكن بعض أعيانها سعوا إلى محاولة الصلح بين الطرفين [2] .

وجدير بالذكر أنّ ذلك الصراع استمرّ إلى غاية فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر ، حيث عمدت السلطات الفرنسية إلى تكريس الانقسام الحاصل ، من خلال اعتماد تقسيم إداري يوزّع قصور توات على دائرتين رئيسيتين : دائرة يحمد ودائرة سفيان [3] ، وتعيين القواد على ذلك الأساس .

د- الوضع الاقتصادي:

من بين العوامل الاقتصادية الفاعلة في المشهد التواتي ، يبرز العامل التجاري كمعطىً أضفى على إقليم توات صبغة دولية جعلته محطّ الاهتمام ومقصد التجار ، نظرا لما بيّناه من أهمية الطرق التجارية ، وتعدّد الأسواق الداخلية والخارجية ، وتنوع الصادرات والواردات . وقد استمرت الحركة التجارية في نشاطها المعهود خلال القرن 12 هـ ، لكنها أصبحت عرضة لهزّات عنيفة تبعاً للأوضاع الأمنية في المسالك الصحراوية ، وكذا التقلّبات السياسية كحالة الاضطراب التي أعقبت وفاة السلطان العلوي مولاي إسماعيل سنة 1139هـ / 1727م . وهو ما يعني أننا أمام اقتصاد مندمج في محيطه الإقليمي ، سريع التأثر بمـــــا

[1]- محمد بن عبد الكريم البكري التمنطيطي ، المصدر السابق ، ص 17 .

[2]- محمد حوتية ، المرجع السابق ، ج 01 ، ص 51 .

[3]- اشتملت دائرة يحمد على قصور : زاوية الدباغ ، أولاد سعيد ، شروين ، الهبلة ، تيمي ، تاسفاوت ، فنوغيل ، أنزجمير ، إينغر ...الخ ، بينما اشتملت دائرة سفيان على قصور : تيميمون ، طلمين ، برينكان ، بودة ، تمنطيط ، اعباني ، غرميانو ، بريش ، تينولاف ، ... الخ . ينظر : أحمد العماري ، المرجع السابق ، ص ص : 118 – 119 .

يجري حوله من تطورات ، خاصة في المجالين الأمني والسياسي [1] .

ورغم اعتماد أسلوب المقايضة في التجارة ، فإن تداول عملات مختلفة محلية وأجنبية على نطاق واسع ، ساهم في تيسير المبادلات التجارية ، ووفّر ما يمكن اعتباره بورصة مالية ، مَكَّنتْ التجار والحجاج من صرف الذهب بأثمان رخيصة . وقد جاء في نوازل الجنتوري ذكرٌ للعديد من العملات المتداولة ـ آنذاك ـ منها الريال [2] والدينار الذهبي [3] والمثقال [4] والدراهم [5] والموزونة [6] ...

وفي المجال الزراعي كان الاعتماد في السقي بنسبة كبيرة على نظام الفقارات ، نظراً لقسوة المناخ وجفافه وفقر التربة [7] . ويدرك التواتيون أهمية ذلك المصدر فيقومون بصيانة الفقارات وتنظيفها باستمرار . ويمكن بيع الماء أو كراؤه بمعزل عن الجنان (البستان) ، وقد سئل الجنتوري عن المشتري لا يكيل ماءه حتى تكيل الفقارة [8] ، وعن حكم " من اشترى شيئا من تلك الفقاقير وأجراه لبلده أو تركه في تلك الفقارة " [9] ويتم نقل المياه إلى الحقول بانتظام عبر السواقي . أما نصيب كل فرد فتحدّده فتحات الأحواض الحجرية المسماة القصرية ، ويشرف على التوزيع والكيل مختصّون يسمّون الكيّالين أو الحسّابين ، يستخدمون في ذلك وسائل وأساليب هندسية دقيقة ، يتوصّل بها كلّ ذي حق إلى حقّه بالقدر أو بالأوقات تسمّى " القلد " [10] ووحدات خاصة تعرف بالحبّات أو الأعواد . والعُرف أن كيل الماء يتمّ في شهر أغشت [11] .

وتأتي التمور بأنواعها والحبوب متمثلة في القمح والشعير والذرة على رأس المنتجات الزراعية في الإقليم ، إضافة إلى منتجات أخرى مثل الحناء والقطن [12] . ويمثّل فصلا الخريف والربيع مواسم جني الغلّــة

---

[1]- محمد جرادي ، الحالة الاقتصادية لإقليم توات في القرنين 11 هـ و12 هـ من خلال كتب النوازل ، الملتقى الوطني الأول المشترك بين جامعتي أدرار وتيارت ، العلاقات الحضارية بين إقليم توات وحواضر المغرب الإسلامي، أدرار : 14 أبريل 2009 م ، ص 340 .

[2]- عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 23 .

[3]- المصدر نفسه ، ص 70 .

[4]- المصدر نفسه ، ص 75 .

[5]- المصدر نفسه ، ص 80 .

[6]- المصدر نفسه ، ص 13 .

[7]- أشار الحسن الوزّان (ليون الإفريقي) إلى طريقة معالجة التواتيين لمشكلة فقر التربة قائلاً " ولذلك يُسكِن أهل تيكورارين الغرباء في منازلهم بدون أجر ، ليحصلوا على سماد الخيل ورجيع الناس " . ينظر : الحسن بن محمد الوزان ، المصدر السابق ، ج 02 ، ص 134 .

[8]- عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 13 .

[9]- المصدر نفسه ، ص 20 .

[10]- المصدر نفسه ، ص 64 .

[11]- المصدر نفسه ، ص 41 .

[12]- المصدر نفسه ، ص 15 .

وربح الأموال من عائداتها ، حيث يتحقق الاكتفاء وتُقضى الديون عن المدينين . وهذا ما أشارت إليه النوازل [1] " ... فمن بذمّته دَين فإن عُرفَهم في أكتوبر حتى يبيعوا ثمرهم للعرب ، وإما في أبريل حتى يُحصد الزرع ويكسر ويصفى من تبنه فحينئذ يُقتضى منه دينه " . ورغم ندرة المراعي بسبب الجفاف فإن سكان تيدكلت كانوا يرعون أغنامهم في منطقة خصبة أطلق عليها الأهالي اسم الغابة [2] ، وأمام قلة المراعي والأعلاف اقتُصر في تربية المواشي على عدد قليل من الأغنام والماعز والحمير والإبل والخيل .

أما الصناعات التواتية فتجسّدها الحرف اليدوية التقليدية التي زاولها السكان في سالف الفترات ، ومنها الخياطة والدباغة والفخار والغزل والنسيج [3] . فقد اشتهرت مقاطعة تينركوك مثلاً بصناعة الأغطية والبرانس والأبسطة التي كان يطلق عليها اسم الدكالي [4]، وقد أكسبها إتقانها ومتانتها شهرة كبيرة واسعة داخل توات وخارجها . ويقع عبء كبير من تلك الحرف عل كاهل النسوة اللائي يمارسنها في بيوتهن ، بينما الرجال فقد انتشرت محلاتهم ودكاكينهم عبر الأسواق ، مثل سوق تمنطيط الذي انتصبت فيه حوانيت الصائغين والحدادين والنجّارين [5] .

02- الهيئات والجماعات الحاكمة :

تمتّع التواتيون خلال القرن 12 هـ / 18م بقسط كبير من الحرية والاستقلالية ، في ظلّ انقطاع الحماية العثمانية التركية ، وعجز الدولة العلوية المغربية عن السيطرة المطلقة على الإقليم [6] . فكان لابدّ من إقامة مرجعية سياسية إدارية ودينية ، تحمي الحدود وتقيم الحدود ، تبتّ في الشكاوى وتُرفع إليها المظالم ، وقد سئل الشيخ الجنتوري عن طبيعة تلك الجهة وماهيتها فأجاب " فجماعة عدول العلماء تقوم مقام السلطان في كل موضع لا سلطان فيه ، أو تعذّر فيه الوصول إلى السلطان " [7] .

ويتمّ اختيار هؤلاء العدول الذين يتولون أمور المسلمين والنظر في مصالحهم والقضاء بينهم ، عبـــر

---

[1]- عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 29 .

[2]- فرج محمود فرج ، المرجع السابق ، ص 58 .

[3]- عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 03 .

[4]- فرج محمود فرج ، المرجع السابق ، ص 60 .

[5]- ابن بابا حيدة ، المصدر السابق ، ص 03 .

[6]- ساءت العلاقات المغربية العثمانية في القرن 12 هـ ، بسبب اختراق العلويين الحدود المتعارف عليها ، فقد قامت قوات السلطان مولاي إسماعيل (ت 1139هـ / 1727م) بالتوغل شرقا وجنوبا بحجة مطاردة قبائل عربية معتدية ، فردّت السلطات العثمانية بالمثل ، ودعّمت القبائل المغربية الثائرة على العلويين . وبعد أن قسّم السلطان العلوي المذكور حكم المغرب بين أولاده ، غدوا يتنافسون في توسيع حدود مملكتهم إلى الجنوب الغربي الجزائري . يُنظر : عزيز سامح التِر ، المرجع السابق ، ص 444 .

[7]- عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 88 .

مراحل أولّها توفّر مجموعة من الشروط والمواصفات أهمها العلم والورع والتدين ، وثانيها تزكية كتابية على شكل مبايعة من لدن علماء المنطقة وأعيانها ، تحفظ في رسم مخطوط [1] يتضمن أسماء الشهود المزكّين الكاملة وموافقتهم والقصور التي ينتسبون إليها ، وأخيرا إعلام العامة بأمر التولية ودعوتها للسمع والطاعة .

وقد صوّر لنا عبد الرحمان بن عمر التنلاني (ت 1189هـ / 1775م) ذلك في فهرسته ، حين تحدث عن الشيخ أبي حفص عمر بن عبد القادر (ت 1152هـ / 1739م) الذي تولى القضاء والفصل في أمور الأهالي قائلاً [2] : "...وكثرت الخصومات بتوات فألحّوا عليه في تولية الفصل بين أهل الخصومات ولم يرتضوا غيره ، وخاف من الهرج والفتن ، فقبل ذلك وأحسن السيرة وأظهر العدل ، ولم يخَفْ في الله لومة لائم ، فانقاد مُعظم الناس لحكمه من غير وجود حاكم يُجْبِرهم عليه ، بل هبة من الله تعالى " .

وركون التواتيين إلى ذوي العلم والصلاح ليس بالبدعة المحدَثة ، بل لهم في ذلك سبقٌ وشهرة . والأمر كذلك فإنما ينمُّ عن وعي وإدراك بجسامة المسؤولية الملقاة على عاتق أولي الأمر ، وأحقية العلماء والفقهاء بهذه المهمة ، وهو سلوك حضاري يدلّ على تقديس العلم وأهله ، لذا حرصوا على مخاطبتهم والدعاء لهم بـ [3] " سادتَنا العلماء أدام الله وجودكم وعافيتكم ... " .

يُطلق على العالم الفقيه الذي تم اختياره لهذه المهمة الجسيمة اسم " شيخ البلد " ، في ارتقاء تنظيمي لنمطٍ معهود وهو شيخ القبيلة ، ويتمتع بصلاحيات واسعة ، كما يساعده في أداء مهامه مجموعة من المستشارين والموظفين ، يشكلون مجلس البلدة الشبيه بنظام مجلس القبيلة . وتُلقى على كاهل شيخ البلدة جميع الأمور الإدارية والأمنية والاقتصادية ، مما يحتّم توزيع المهام على ممثلين موزّعين عبر القصور .

وكما جرت العادة عند التواتيين فإن شيخ أكبر المقاطعات كان يعتبر في الوقت نفسه شيخاً على كامل الإقليم ، ولذلك ظلّ مشايخ مقاطعة تمنطيط يحتكرون هذا المنصب حتى القرن 12 هـ ، ثم استأثر بهذا المنصب شيوخ مقاطعة تيمي ، بعد أن صارت هذه المقاطعة مركز الإقليم . ومن صلاحيات شيخ البلد استقبال الوفود والمبعوثين في مهام رسمية وغير رسمية ، ومنهم مبعوثو السلطان المغربي ، دون أن يكون لهم تدخل مباشر في أمور الإدارة والتسيير ، فهو الحاكم الفعلي وصاحب السلطة المطلقة [4] .

---

[1]- من أمثلة ذلك رسم يتضمن تولية السيد الفقيه سيدي محمد عبد الله بن سيدي عبد الكريم بن أحمد التزدايتي أمور المسلمين ، مرفقاً بأسماء عشرات الأعيان من قصور منطقة تيكورارين . مخطوط بخزانة آل الجوزي ، أولاد سعيد ، تيميمون ، أدرار .

[2]- عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، فهرسة الشيوخ ، تحقيق بعثمان عبد الرحمن ، مذكرة لنيل الماجستير في التاريخ الحديث ، إشراف : أ د محمد بن معمر ، كلية الآداب واللغات والعلوم الإنسانية ، جامعة بشار ، 2009/2008 م ، ص 86 .

[3]- عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 22 .

[4]- فرج محمود فرج ، المرجع السابق ، ص 27 .

وتعتبر القصبات التي توزعت على قصور توات موطناً للحل والعقد بين أعيان البلد ، وهي مبانٍ محصّنة ذات أسوار عالية محاطة بخندق كبير ، يتصل بابها الوحيد بالعالم الخارجي عبر قنطرة من الخشب ، يُفتح كل يوم بعد طلوع الفجر ويغلق قبل غروب الشمس ، وهي مدعمة بأبراج للمراقبة ومخازن لجمع المئونة وقت الشدائد ، وتوجد في القصبة أماكن للراحة والتشاور في المستجدات تسمّى الدكّانة [1] . ولا يكاد يخلو قصر تواتي من هذه القصبات التي تمثل دروعاً واقية ضد الهجمات والغارات الأجنبية .

وقد استفاد أهل توات من تلك التنظيمات السياسية والإدارية التي اجتهدوا في وضعها ، من خلال المساهمة في حل المشاكل التي كانت تواجههم ، وضبط الموازين الشرعية . ورغم الثورات التي اندلعت في وجه الكتائب المغربية العلوية خلال هذا القرن (12 هـ / 18 م) ، إلا أن شيوخ المقاطعات دأبوا على إرسال الضرائب المجموعة من القصور إلى ممثل السلطان ، بعد الاحتفاظ بنسبة معينة في بيت مال المقاطعة للاعتماد عليها وقت الحاجة [2] ، في إشارة منهم ـ على ما يبدو ـ إلى حرصهم على تغليب العلاقات الودية الأخوية ، ورغبتهم في أن تبقى الأوضاع على ما هي عليه .

03- توات والصراعات المذهبية الحادة :

تميّزت الفترة محلّ الدراسة (القرن 12 هـ) ببروز تيارات دينية وفكرية ذات توجهات متباينة ، احتدم الصراع فيما بينها في ربوع العالم الإسلامي مشرقه ومغربه ، مما انعكس على طبائع الناس وعوائدهم ، وشغل عقولهم وأفئدتهم حيناً من الزمن ، على رأس تلك التيارات الحركتان الصوفية والوهابية .

وإقليم توات رغم توغلّه في أعماق الصحراء ، إلاّ أنه لم يكن بمعزل عن تأثيرات تلك الأفكار المحدَثة فقد امتدت إليه تداعياتها عبر منافذ متعددة ، أهمها قوافل الحج في غدوّها ورواحها ، وتوافد الرحّالة والدعاة والمصلحين ، وتعاقب التجّار والزوّار من مختلف الأصقاع .

أ – المدّ الصوفي نحو توات :

تضاربت الأقوال في معنى صوفي ، فقيل نسبة إلى الصف المقدّم بين يدي الله عز وجلّ ، وقيل إلى الصفوة من خلق الله ، وقيل إلى الصفاء صفاء القلب ، وقيل إلى أهل الصفة ، والأقرب أنه منسوب إلى الصوف ، فهو شعار النسّاك والعبّاد . أما اصطلاحا فالصوفي هو العارف بالله ، المتحقق بمقامات اليقين ، المتخلّي عن الرذائل ، المتحلّي بالفضائل [3] .

---

[1]– مؤلف تواتي مجهول ، تقييد في تاريخ توات (ذكر ما وجد من الأخبار التواتية) ، ص 12 .

[2]– فرج محمود فرج ، المرجع السابق ، ص 27 .

[3]– عبد الله بن عبد القادر التليدي ، المطرب بمشاهير أولياء المغرب ، ط 4 ، الرباط : دار الأمان ، 2003م ، ص 14 .

تلك المفاهيم السابقة تتلاءم وطبيعة البلاد التواتية ، فهي أرض العلم والعلماء والأولياء والصالحين ، وأهل العلم والصلاح فيها لهم القيادة والريادة والسيادة الاجتماعية والفكرية والروحية والتوجيهية [1] ، لذا فإن التواجد الصوفي بتوات في معانيه السامية قديم قِدم الفتح الإسلامي ، أما من الناحية العلمية والممارسة العملية فقد انتشرت بالمنطقة معظم الطرق الصوفية المعروفة في بلاد المغرب قاطبة ، وأهمها : القادرية والشاذلية والتيجانية والسنوسية .

تعتبر الطريقة القادرية من أقدم الطرق الصوفية ظهوراً ، أسّسها الشيخ محي الدين عبد القادر الجيلاني (ت 561هـ / 1166م) ، وساهم الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي في نشرها داخل توات ، حيث أنشأ زاويته القادرية في قصر بوعلي ، فكانت مركزاً لنشر الإسلام وتدريس تعاليم الطريقة القادرية ، كما كانت منطلقا للجهاد ضد اليهود ومحاربة البدع والخرافات ، ولها العديد من الأحباس المتمثلة في البساتين والأراضي والبيوت التي وقفها أصحابها على الزاوية [2] . وتوسّع نشاطها في القرن 12 هـ بظهور الشيخ المختار الكنتي (ت 1226هـ / 1811م) ، صاحب التآليف في مناهج تلك الطريقة ومنها " الكوكب الوقّاد في فضائل المشايخ وحقائق الأوراد " [3] ، ولشيوخ تلك الطريقة التواتيين أضرحة يتبرّك بها العامة ويقيمون لها الزيارات في قصور الجديد وزاوية كنتة وآقبلي [4] .

تُنسب الطريقة الشاذلية إلى أبي الحسن علي الشاذلي (ت 655هـ / 1257م) وقد أخذها عن أقطاب التصوف الثلاثة المشهورين : عبد السلام بن مشيش ، عن أبي مدين شعيب دفين تلمسان ، عن أبي القاسم الجنيد . ويقوم الذكر في هذه الطريقة على أساس الاستغفار والصلاة والسلام على رسول الله مائة مرة والشهادة عشر مرات كل صباح . وقد لقت الطريقة الشاذلية رواجا كبيراً في إقليم توات ، حيث تفرّعت فيه إلى خمسة فروع ، لكل فرع أوراده ومريدوه وزواياه ، وهي : الموساوية ، الطيبية ، الزيانية ، الشيخية ، الصادقية [5] .

ومن الطرق الصوفية الفاعلة في تلك الفترة الطريقة التيجانية ، المنتسِبة إلى الشيخ أبي العباس أحمد بن

---

[1]– مولاي أحمد الطاهري الإدريسي ، المرجع السابق ، ص 51 .

[2]– إدريس بن خويا ، واقع الطرق الصوفية بإقليم توات بين المرجعية المعرفية والممارسة العملية ، الملتقى الدولي الحادي عشر : التصوف في الإسلام والتحديات المعاصرة ، جامعة أدرار : 11/10/09 نوفمبر 2008 م ، ص 469 .

[3]– توجد نسخة منه مخطوطة في خزانة شيخ الركب النبوي (العقباوية) بآقبلي ، آولف ، أدرار .

[4]– محمد الصالح حوتية ، الطرق الصوفية بإقليم توات وغرب إفريقيا خلال القرنين 18 م– 19 م ، ملتقى التصوف ، ص 446 .

[5]– الزهرة مسعودي ، الطرق الصوفية بتوات وعلاقتها بغرب إفريقيا بين ق 18 وق 20 م ، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر إشراف : أ د عبد الكريم بوصفصاف ، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية ، جامعة أدرار ، 2010/2009 م ، ص 36 .

محمد بن المختار التِّجاني (ت 1230هـ / 1815م) المولود في عين ماضي بالأغواط ، طاف بين مدن فاس وتلمسان وتونس وصولاً إلى توات سنة 1196هـ / 1782 ، حيث جمع عدداً من الأتباع [1] ، وأخذ التصوف عن جماعة من العلماء في الجزائر والمغرب والمشرق ، ينتسب بعضهم لطرقٍ أخرى .، لذا نجد أن التيجانية هي نتاج لتلك الطرق التي أخذ عنها أحمد التّجاني [2] .

أمّا الطريقة السنوسية فقد ظهرت متأخرة ، على يد مؤسسها الشيخ محمد بن علي السنوسي (ت 1276هـ / 1860م) المولود في ضواحي مستغانم ، وكان ظهورها وانتشارها خلال القرن 13 هـ ، حيث أدخلتها قبيلة أولاد باجودة إلى عين صالح بمنطقة تيدكلت [3] ، إلاّ أننا نجد أعلاماً ينتسبون إلى توات ، حملوا مع ابن السنوسي أعباء دعوته ومنهم : أحمد أبو القاسم التواتي ومحمد عبد الله التواتي [4] .

وقد انضوى تحت لواء تلك الطرق الصوفية معظم علماء توات ، ممّا أضفى عليهم قدسية في أعين العامة ورهبة في أنفسهم ، في حياتهم وبعد مماتهم ، وزادهم نفوذا وقوّة ، وألّف بعضهم تآليف في علم التصوف وفنونه ، ومنهم الشيخ عبد الرحمن الجنتوري ، الذي تروي المصادر أنّ له رسالة في علم التصوف وأحوال رجاله وهي منظومة [5] ، كما كان يستشهد بنفسه في بعض رسائله بآراء أبي الحسن الشاذلي [6] .

وبالإضافة إلى رأي الشيخ الجنتوري في التصوف ومنظومته الشعرية ، فقد نُسب إلى الشيخ أبي حفص عمر التنلاني (ت 1152هـ / 1739م) أنّه مالَ في آخر عمره لطريقة الصوفية وأخذها عنه جماعة ، وكانوا يزورنه كل خميس ، فيخرج إليهم ويجلس لتعليمهم وتذكيرهم فظهرت بركته عليهم [7] .

ومنهم كذلك الشيخ النوازلي أبو عبد الله محمد بن العالم الزجلاوي (ت 1212هـ / 1797م) ، حيث سُئل في نوازله عن التطريب الواقع للفقراء [8] في صلاتهم على النبي . صلى الله عليه وسلّم . وما فيه من

---

[1]- Bernard Saffroy , op.cit , p 08 .

[2]- عبد الكريم بوصفصاف ، التصوف مفاهيمه وأبعاده ، ملتقى التصوف ، ص 19 .

[3]- الزهرة مسعودي ، المرجع السابق ، ص 49 .

[4]- علي محمد الصلابي ، الحركة السنوسية في ليبيا ، ط 1 ، عمان : دار البيارق ، 1999 م ، ج 01 ، ص 92 .

[5]- عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، المصدر السابق ، ص 125 .

[6]- من ذلك نقله قول أبي الحسن الشاذلي " قيل لي ... وما على وجه الأرض مجلس في علم الحقائق أبهى من مجلسك " . يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، رسالة حول بيع أصول الهاربين في المغارم ، مخطوط بخزانة سيدي عبد الله البلبالي ،كوسام ، أدرار ، ص 10 .

[7]- عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، المصدر السابق ، ص 86 .

[8]- **الفقراء** من مصطلحات الصوفية ، تعني الافتقار إلى الله تعالى ، والاضطرار إليه في كلّ نَفَس ، فيصير أغنى الخلق بالله عن كلّ شيء . يُنظر : أيمن حمدي ، قاموس المصطلحات الصوفية ، القاهرة : دار قباء للطباعة والنشر ، 2000 م ، ص 53 .

الزيادات الخارجة عن العادة ، فقال للسائل [1] " لا تسأل عن ذلك ، فإنهم يصلّون بالشوق على النبي . صلى الله عليه وسلّم . " ، ممّا يشير إلى علمه ورضاه بتلك الطقوس الشائعة في الممارسات الصوفية .

وممّن حمل لواءَ بسط أفكار ومبادئ تلك الطرق الصوفية عشراتُ الزوايا المنتشرة في ربوع توات ، كما ساهم تقبّل السكان لتلك المبادئ السامية واحتضانها في ازدياد عدد الأتباع والمريدين . لكنّ ذلك الإقبال الشديد أفسدته أعمال بعض الدخلاء الذين لم يفرّقوا بين التصوف السني المحبّب والتصوف البدعي المحظور فأحلّوا العادات مكان العبادات ، وأضلّوا العامة والغوغاء ، وأوهموهم بأنهم يكفونهم مئونة ومشقة طلب العلم ، ويحملون عنهم تقصيرهم في الدين ، فزال الورع وطوي بساطه ، واشتد الطمع وقوي رباطه [2] .

وكان ضمن من تصدّى لتلك الانحرافات والتصرفات الخارجة عن مبادئ التصوف الحقيقية ، زعماء بعض الحركات الإصلاحية والصوفية أنفسهم ، ومنهم محمد بن علي السنوسي (ت 1276هـ/ 1859م) الذي انتقد بعض دخلاء المتصوفة قائلاً [3] " ... ومنها ما كثر به تبجّح كثير من بعض المتنسكين ، من دخلاء المتصوفة وغلاة المتورعين ، من الإعجاب بأعمالهم والتمدّح بأحوالهم ، وكونهم مخصوصين بينابيع الإمداد ، ومواهب الكرامة ، لا يبالون بمن عداهم ولو كانوا على محض الاستقامة " .

ب – تأثير الحركة الوهابية وصداها في توات :

في ظلّ سيادة الأفكار الصوفية وانتشارها بإقليم توات والمغرب خلال القرن 12 هـ ، ظهرت حركة جديدة مضادة في المشرق هي الحركة الوهابية ، المنسوبة إلى الإمام محمد بن عبد الوهاب [4] ، وقد وصلت أفكارها ودعوتها إلى بلاد المغرب عامة وإقليم توات خاصة عبر وفود الحجيج والمؤلّفات والرسائل . فكثيرا ما كانت تردُ الإقليمَ فتاوى لقضايا محلية لم يعهدها التواتيون من قبل . وهذا ما عبّر عنه الشيخ الجنتوري في نوازله [5] " وكما رأينا في أجوبة منسوبة لبعض متحققي الوقت ، علماء القبلة ... " ، إلاّ أنه بيّن بأسلـــوب

---

[1]– محمد بن العالم الزجلاوي ، نوازل الزجلاوي ، جمع : أبي الحسن محمد بن محمد الزجلاوي ، مخطوط بخزانة سيدي عبد الله البلبالي ، كوسام ، أدرار ، ص 10 .

[2]– مبارك بن محمد الميلي ، تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، 1989 م ، ج 02 ، ص 344 .

[3]– علي محمد الصلابي ، الحركة السنوسية في ليبيا ، ص 170 .

[4]– **محمد بن عبد الوهاب** (ت 1206هـ / 1791م) بن سليمان التميمي النجدي ، زعيم النهضة الدينية الإصلاحية الحديثة في جزيرة العرب ، ولد في العيينة بنجد ، زار الشام والبصرة فأوذي فيها ، قامت حركته على الدعوة إلى التوحيد الخالص واتباع منهج السلف الصالح ونبذ البدع ، وتحطيم ما علق بالإسلام من أوهام ، عُرف من والاه وشدّ أزره في قلب الجزيرة بأهل التوحيد ، ومنهم آل سعود الذين تبنّوا دعوته ، فجهرَ بها سنة 1143 هـ ، وكثر أتباعه فأطلق عليهم خصومهم اسم الوهابيين نسبة إليه ، وشاعت تلك التسمية وانتشرت . يُنظر : خير الدين الزِركلي ، الأعلام ، ط 15 ، بيروت : دار العلم للملايين ، 2002 م ، ج 06 ، ص 257 .

[5]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 15 .

هادئ رزين ضرورة التفريق بين المسائل الفقهية الخلافية التي أثارتها هذه الدعوة التجديدية ، وبين الأعراف والعادات التي دأب الناس على فعلها ، فاعتقد العوام أنها جزء من الدين ، يقول الجنتوري في ذلك [1] : " فليس ما جرى به العمل من العلماء كما جرى به العرف بين الناس ، وفرق بين ما جرى به العمل من مسائل الخلاف وبين المسائل التي هي مبنية على العرف الجاري بين الناس " .

وقد ذكر الجبرتي (ت 1240هـ / 1825م) في تاريخه أنّ الحجّاج المغاربة كانوا يأتون بأخبار تلك الحركة وما يفعله الوهابيون من منعٍ للتبرّك بكسوة الكعبة ، وهدم قبة آدم وقباب ينبع والمدينة ، وإبطال شرب التنباك (الدخان) والنارجيلة من الأسواق ، كما ذكروا ـ أي الحجاج المغاربة ـ أنّ " الوهابي " نادى بعد انقضاء الحج [2] " لا يأتي إلى الحرمين بعد هذا العام من يكون حليق الذقن " .

وفي توات انتشرت أخبار تلك الحركة ، وأقبل الناس على قراءة كتبها ورسائلها ، واستعملها بعضهم مرجعا للفقه والفتوى . وحين سئل الجنتوري عن ذلك فضّل قصر الإفادة منها على العلماء دون العوام ، حيث قال [3] " .. وبعد فلا تجوز الفتوى بهذه الكتب ونحوها ، فالتصحيف كثير والعلم قليل ، وكثير من الناس يحسب كل بيضاء شحمة ، وإنما تسوّغ الفتوى بالكتب غير الثابتة الرواية للفقهاء الذين لا تزري بهم النقول لعلمهم بالقواعد والقوانين ، فما وجدوه خارجا عن المذهب تركوه أو نبّهوا عليه " ، بينما حاربها المنتسِبون إلى التصوف ، المنتفعون من شيوعه ، لِما اعتقدوه من ذهاب نفوذهم وسطوتهم ، فأفتى بعضهم بفساد ما يدعو إليه الوهابيون ، نظرا لمخالفتهم الجماعة ومعاداتهم لمذهب أهل المغرب وتحريمهم ما أجازه علماء كثيرون ، مثل الاحتفال بالمولد النبوي والتوسل بالرسول – صلى الله عليه وسلم – .

وقد توسّعت دائرة الرد على الوهابية لتشمل السلطات العثمانية التي خشيت من استئثار الوهابيين ومِن ورائهم السعوديين بالجزيرة العربية ، وانتزاع لواء الخلافة والقيادة من الدولة العثمانية ، فأوعزت إلى ولاّة الأقطار المجاورة لمحاربة تلك الدعوة [4] . ودخل السلطان العلوي المغربي مولاي سليمان (ت 1238هـ / 1823م) بدوره في مناظرات كتابية حادّة مع زعماء آل سعود حول بطلان الفكر الوهابي ، استكملها العلماء والقضاة من تونس وفاس ، من أمثال : إسماعيل التميمي قاضي الجماعة المالكية بالديار التونسية ،

---

[1]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 103 .

[2]– محمد أديب غالب ، من أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي ، ط 1 ، دمشق : دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، 1975 م ، ص 112 .

[3]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 27 .

[4]– علي محمد الصلابي ، الدولة العثمانية عوامل النهضة وأسباب السقوط ، ط 1 ، القاهرة : دار التوزيع والنشر الإسلامية ، 2001م ، ص 353 .

في رسالة سمّاها " المنح الإلهية في طمس الضلالة الوهابية " ، وشيخ الجماعة بفاس الفقيه الطيب بن كيران الفاسي في رسالته " ردّ على مذهب الوهابيين " التي جاء في مقدمتها [1] " ظهرت في هذه الأزمنة الصعبة المدلهمة جماعة قِبَل المشرق ، شوّشوا على عامة المسلمين عقائدهم وكفّروا من خالفهم من الأمة .. " .

والظاهر أنّه كما في الحركات الصوفية غلاة دخلاء ، أماتوا السُنن وأحيوا البدع ، فإنّ في الحركة الوهابية غلاةً متطرّفين أيضا ، ساهموا في تكريس البدع وتشتيت أفكار الأمة ووحدتها ، حين استخدموا أسلوبي التضليل والتكفير ، ولجئوا إلى الشدّة المفرطة وحمل الناس على ما لم يألفوه بالشدة والقوة .

المبحث الثاني : التعريف بالشيخ الجنتوري

إنّ ما أوردته المصادر التاريخية المحلية . مخطوطة كانت أو مطبوعة . عن حياة الشيخ أبي زيد عبد الرحمن بن إبراهيم المشهور بالجنتوري [2] يُعدّ زهيداً ، مقارنة بالمكانة التي تبوّأها في إقليم توات خلال القرن 12 هـ / 18 م ، والصيت العلمي الذي أكْسَبَته إياه آراؤه وأفكاره الفقهية والاجتماعية . كما أن المصادر التي ترجمت له اكتفت بأسطر معدودة ، ونقلت اليسير من حياته وأخباره ، باستثناء ما كتبه عنه تلميذه عبد الرحمن بن عمر التنلاني في فهرسته ، فقد أسهبَ وتميّز في ذلك عن غيره من المترجمين [3] .

01- مولده ونسبُه :

ولد عبد الرحمن الجنتوري بين سنتي 1100هـ و1110هـ / 1689م و1699م [4] بقصر اجنتور ، واسمه الكامل عبد الرحمن بن أبي إسحاق إبراهيم بن عبد الرحمن بن محمد بن علي الإنصالحي [5] ، من عائلة

---

[1]- حمادي الرويسي وأسماء نويرة ، الردّ على الوهابية في القرن 19 م (نصوص الغرب الإسلامي نموذجاً) ، بيروت : دار الطليعة ، ص 169 .

[2]- **الجنتوري** هو اللقب الغالب على العلاّمة أبي زيد ، ويُكتب أحيانا نادرة الكنتوري ، وهو نسبة إلى قصر اجنتور التابع إداريا لبلدية أولاد عيسى ، الواقع على بعد 65 كلم غرب تيميمون ، وهو قصر قديم يرجع تأسيسه لِما بعد سقوط دولة بني زيري الصنهاجية سنة 405هـ / 1014م ، سكنته أولاً قبائل أولاد اعيش الهلالية . حسب ما أفادني به السيد عبد الحي المحمدي أحد أعيان ونسّابة منطقة القورارة ، في لقاء معه بمنزله في شروين بتاريخ : 22-03-2011 م .

[3]- يُنظر ترجمته في المصادر التالية : عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، فهرسة الشيوخ ، تحقيق عبد الرحمن بعثمان ، ص 87 وما بعدها / عبد القادر بن عمر المهداوي ، الدرة الفاخرة في ذكر المشايخ التواتية ، مخطوط بخزانة الوليد بن الوليد ، قصر باعبد الله ، أدرار ، ص 18 / ضيف الله بن أبّ ، الرحلة إلى قبر الوالد ، مخطوط بالخزانة البكرية ، تمنطيط ، أدرار ، ص 67 . 81 / البكري بن عبد الكريم بن البكري ، إعلام الإخوان بأخبار بعض السادة الأعيان ، مخطوط بالخزانة البكرية ، تمنطيط ، أدرار ، ص 16 / عبد الرحمن الجنتوري ، نوازل الجنتوري (النسخة ب) ، جمع وترتيب : محمد بن عبد العزيز المسعدي الجراري ، مخطوط بخزانة بن عبد الكبير ، المطارفة ، أدرار ، ص 01 .

[4]- لم تذكر المصادر سنة بعينها ، لكن يمكن استنباط تاريخ ولادته بناءً على تاريخ وفاته (1160هـ / 1747م) ، وأنه عاش نيّفاً وخمسين سنة . ينظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 02 .

[5]- المصدر نفسه ، ص 01 .

عريقة محافظة مشهورة بالعلم والفقه ، تنحدر من قصر تِطاف [1] في بلاد توات الوسطى ، انتقلتْ لاحقاً إلى مدينة عين صالح من بلاد تيدكلت ، ولذلك حمل بعض أفرادها لقب الإنصالحي ، ثمّ طاب المقام والاستقرار لجدّ الجنتوري القريب في قصر اجنتور من بلاد تيكورارين . فالجنتوري بذلك من الأعلام القلائل الذين يرتبطون بجميع الجهات التواتية منشئاً وقراراً .

وتَنتسِب عائلة الجنتوري إلى أبي أيوب الأنصاري ، حسب ما وُجد بخطّ والده إبراهيم بن عبد الرحمن في إحدى رسائله [2] ، ولِذريّة هذا الصحابي الجليل صلة وطيدة بالعلم وأهله في قُرى توات وقصورها .

02- دراسته وشيوخه :

شبّ الجنتوري وقوِي عوده في بيئة علمية تقليدية ، بين ظهراني علماء وفقهاء منتسبين إلى هذه العائلة التي تحرص على تعليم أبنائها وتنشئتهم تنشئة دينية فقهية ، وهي الحال في معظم البيوتات التواتية العريقة . لذا فقد تلقّى مبادئ علومه الأولى على يد والده الشيخ أبي إسحاق إبراهيم بن عبد الرحمن ، حيث حفظ القرآن الكريم في سنٍّ مبكرة ، وانبرى لدراسة مذهب الإمام مالك وأهمّ أصوله وفروعه ومتونه كعادة أترابه ، كما أخذ على ابن عمه المشارك عبد العالي بن أحمد بن عبد الرحمن ، فتمكّن على يديه من استيعاب مختصر خليل ورسالة ابن أبي زيد القيرواني والتلمسانية والفرائض وألفية ابن مالك وبعض تآليف القلصادي [3] ، ولازمه مدة من الزمن ، ثم رحل طالباً العلمَ متوجها إلى مدينة فاس ، لكنه لم يمكث بها طويلا حتى ردّه أهلُه [4] .

ويبدو أنّ نفس الجنتوري الراغبة في العلم أصبحت توّاقة للترحال وذلك دأب المجتهدين ، حيث عزم هذه المرة على السفر إلى تينلان إحدى المراكز العلمية الهامة بتوات وقتئذٍ ، خاصة بعدما بلغه خبر عودة الشيخ أبي حفص عمر بن عبد القادر التنلاني إلى توات قادماً من فاس ، فرحل إليه وأقام عنده نحو سنة ونصف ، أخذ عليه خلالها دروساً في مختصر خليل وجمع الجوامع والسلم في المنطق وتلخيص المفتاح ولامية الأفعال ، كما أخذ دروساً في صحيح البخاري ورسالة ابن أبي زيد القيرواني وألفية ابن مالك ، ثم رحل إلى

---

[1]- **تِطاف** أو تيطاف من قصور بلدية تامست حاليا ، يقع على مسافة 60 كم جنوب أدرار .

[2]- محمد باي بلعالم ، المرجع السابق ، ج 01 ، ص 161 .

[3]- **القلصادي** أبو الحسن علي بن محمد بن علي القرشي البسطي ، من أئمة الأندلس ، عالم بالحساب ، فقيه من المالكية ، انتقل إلى غرناطة فاستوطنها ، ورحل إلى المشرق ، وتوفي بباجة في تونس ، له " أشرف المسالك إلى مذهب مالك " و " كشف الجلباب عن علم الحساب " و " تنبيه الإنسان إلى علم الميزان " و " هداية الأنام في قواعد الإسلام " و " شرح مختصر خليل " و " النصيحة في السياسة العامة والخاصة "... توفي سنة 891هـ / 1486م .

ينظر : محمد بن محمد مخلوف ، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، القاهرة : المطبعة السلفية ، 1930 م ، ص261 .

[4]- عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، فهرسة الشيوخ ، ص 87 .

اجنتور وأقام بها مدة ، ثم رجع إلى تنلان مرة أخرى فأقام بها ستة شهور ، درس على الشيخ المذكور مختصر السنوسي في المنطق وعقيدته الكبرى ، وحضر في أثناء ذلك دروسه في المختصر وغيره ، وبعد أن أجازه شيخه إجازة [1] عامة وخاصة رجع أخيراً إلى بلاده اجنتور واستقرّ بها [2] .

ومن العوامل التي ساهمت في تكوين شخصيته ونبوغه السريع في شتّى صنوف العلم ، تركيزه ومثابرته وحرصه الشديد على التحصيل ، ومزاحمته الطلبة وسبقه في التلقّي . إضافة إلى ما وهبه الله من سرعة حفظٍ وبديهةِ استحضار . ويشهد بذلك تلميذه المسعدي الجراري قائلاً [3] " وكان رحمه الله تعالى له رواية ودراية وحفظ ، فيستحضر نقول ابن عبد السلام وابن عرفة والشيخ خليل في التوضيح ، ومَن بعدهم كالشارح الكبير وابن غازي والحطاب والأجهوري وغيرهم على ظهر قلب ، ويبحث معهم في نقولهم ويميز بين الصحيح والسقيم وينسِب كل قول لقائله ، ولا يُتهم في نقلٍ وهو أمين فيه ، وليس الخبر كالعيان " .

وإنْ كان أبو حفص عمر بن عبد القادر التنلاني هو الشيخ الأول للجنتوري بلا منازع ، لأنه " تعلّم منه كلَّ ما يُحصد من أنواع العلم " [4] ، فإنّ ثمّة شيوخاً آخرين من داخل توات ومن خارجها ، أقرّ الجنتوري بسبقهم وفضلهم عليه ، وذلك في الإجازة التي منحها لتلميذه أبي زيد عبد الرحمن بن عمر التنلاني . حيث ذكر أنه أخذ الفقه عن والده سيدي إبراهيم بن عبد الرحمن الشيخ النوازلي ، وعن الأديب المحقّق العلاّمة المتفنّن البارع سيدي الحاج عبد الحكم بن العالم العلاّمة سيدي الحاج عبد الكريم بن أحمد ، ثمّ ذكر أنه روى الشاطبية (حرز الأماني ووجه التهاني) بالإجازة عن الشيخين الأجلّين : سيدي أحمد بن الحاج الأمين والسيد محمد بن الحسين القبليين ، وأخبره بالموطّأ الشيخُ الجامع أبو عبد الله البليدي الغرناطي ، مدرس الجامع الأزهر والأشرفية ، وبها يعرف بالقاهرة . ومن علماء القاهرة الذين أجازوه كذلك الشيخ سالم بن محمد النفراوي القاهري [5] في ألفية ابن مالك ، والشيخ الدميري الشافعي الغنيمي الأزهري في صحيح البخاري [6] ، كما التقى الجنتوري أثناء رحلته لأداء الحج علماء كثيرين ، أفادهم واستفاد منهـــم ،

---

[1] – **الإجازة** بمثابة الشهادة التي يمنحها الشيخ لتلميذه عند انتهاء فترة الدراسة ، وهي الرخصة برواية مختلف العلوم والمصنفات التي أخذها التلميذ عن شيخه طيلة مدة الدراسة .

[2] – عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، المصدر السابق ، ص 88 .

[3] – عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، (النسخة ب) ، ص 02 .

[4] – البكري بن عبد الكريم بن البكري ، المصدر السابق ، ص 16 .

[5] – **النفراوي** سالم بن محمد أبو النجا الضرير ، المفتي العلامة النحرير ، كان مشهورا بمعرفة فروع المذهب المالكي مع استحضار عجيب ، أخذ عن أحمد النفراوي والزرقاني ، توفي 1168هـ / 1755م . ينظر : محمد بن محمد مخلوف ، المصدر السابق ، ص 338 .

[6] – عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، فهرسة الشيوخ ، ص 116 .

وقد ذكر ذلك في نوازله قائلاً [1] " وقد لقيت بالمشرق علماء جلّة ..." .

وظلّ الجنتوري وفيّاً لشيخه أبي حفص عمر بن عبد القادر التنلاني ، متواضعاً مقرّاً بفضله عليه رغم تفوّقه النّامي الظاهر . فقد سأله تلميذه عبد الرحمن بن عمر بعد عودته من الحج عن حال من لقي من العلماء فقال [2] " اختبرتُ علماء القاهرة والحرمين فلم ألقَ فيهم من يصل أصبع رِجل شيخنا أبي حفص ، إلا واحدًا في علم الحديث لقيتُه بمكة ، لكنّ قرّاءهم يتقنون مخارج الحروف جيداً " . وبعد أن أُجيز الجنتوري من أشياخ كثيرين في مختلف الفنون ، جلس لتدريس العلوم التي حصّلها ، حيث طلب منه ذلك سيدي الحاج لحسن الشريف صاحب الزاوية بآجنتور ، إذْ توسّمَ فيه العالم الذي يقدر على الاجتهاد لوضع قواعد شرعية من أجل الفصل في المنازعات التي كانت تؤرّق القراريين [3] خاصة والتواتيين عامة ، المتعلّقة بأقساط الماء وعلاقات الأزواج وحيازة النخيل والحيوان ... [4] . وكان الجنتوري يعظّم الشرفاء من آل بيت النبي . عليه الصلاة والسلام . فلبّى دعوة الشريف مولاي لحسن في الاستقرار ، واجتهد غاية الاجتهاد في وضع الحلول الشرعية لمختلف القضايا والنوازل ، ومن ثَمّ ذاع صيتُه وانتشرت أخباره ، فأصبح مقصدَ الطلبة والعلماء على حدّ السواء .

03- صفاته الخُلُقية ومؤهّلاته العلمية :

اتّفقت المصادر التي ترجمت للجنتوري على علوّ كعبه في معظم الفنون ، وتحلّيه بالأخلاق الفاضلة والصفات النبيلة التي يحرص عليها العلماء أيّما حرص . ومن ذلك تواضعُه الشديد للجميع وللطلبة قبل غيرهم وانبساطه واندماجه معهم ولينُ جانبِه لهم . يروي ذلك تلميذه عبد الرحمن بن عمر قائلاً [5] " واستفدنا منه أضعاف ما استفدنا من شيخنا أبي حفص لانبساطه معنا ومداعبته وصبره على جفائنا ، فأحببناه حبّاً شديداً ، فلما رجع لبلاده حزنت لفراقه " ، ومن ذلك أيضا ما صرّح به هو نفسه في نوازله عن اجتهاد طلبته وبلوغهم مستوى شيخهم [6] "...هذا الذي تعلّمنا مِن أفقهِ مَن أدركْنا ، وقد كان لبعض من أدركَنا قول غير هذا صحّ منه " . وعن علاقته بالشيوخ الآخرين [7] "...هذا ما تيسّر وفيه كفاية لمن أنصف ، على أن في أجوبة غيرنا كفاية من حيث الجملة " .

---

[1]- عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 28 .

[2] - عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، المصدر السابق ، ص 126 .

[3]- **القُراريين** أو الجراريين نسبة إلى القُورارة ، الاسم الحديث الغالب على تيكورارين .

[4]- رشيد بلّيل ، المرجع السابق ، ص 65 .

[5]- عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، المصدر السابق ، ص 88 .

[6]- عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 108 .

[7]- المصدر نفسه ، ص 104 .

ولما استجازه تلميذه عبد الرحمن بن عمر ، ردّ عليه قائلاً [1] "... وقد طلب مني أن أُجيزه فيما أخذه عني ، فحمّلني من ذلك أمراً إمراً ، وأرهقني فيما ندَبنَي إليْه عُسراً ، لما رأيتُ أنّي لست أهلاً لأن أُجاز فضلاً عن أن أُجيز :

ولَكِنَّ البِلادَ إذا اقْشَـعَرّتْ وَصَوّح نَبتُهَا رُعِيَ الهَشِيـمُ [2]

فأسعفتُه في ذلك ، وإن لم أبلغ رتبة أولئك ، لأنّ من انتسب لقوم عُدَّ منهم ، وإن لمْ يحصل له ما حصل لهم " . والشواهد الدّالة على تواضعه عديدة ، والاكتفاء بما ذُكر منها أجدر .

والجنتوري من العلماء التواتيين القلائل الذين اشتهروا بإعمال الفكر واستخدام المنطق ، إذ تشير نوازله إلى ذلك ، ففي سؤالٍ وُجّه له جاء فيه [3] " فتأمّلوا حفظكم الله هذا الكلام ممّا تقفون عليه ، أو تُنتجه القريحة وأجيبونا بما نعتمده في النازلة ، أبقاكم الله غيثاً للأنام ومنزلة على الدوام " . ومن حرصه على المزاوجة بين المنقول والمعقول ما ذكره تلميذه عبد الرحمن بن عمر في إحدى المسائل [4] "...فلم يزلْ يُراجعني حتى رجعتُ إلى رأيه ، ووقع لي ذلك معه في مسائل ، وتلك عادته . رحمه الله . مع كلّ من خالفه ، لا يزال يراجعه بالمعقول والمنقول حتى يسلّم له صاحبه أو يرى منه عناداً " .

ومن الصفات التي تميّز بها الجنتوري أيضاً العفة والنزاهة والزهد في الدنيا ، وقول الحق والصبر عليه ، فقد كان هذا الشيخ [5] " عالماً عاملا صالحا متواضعا زاهدا محقّقاً متناظراً درّاكاً جدلياً مشاركاً في فنونٍ من علوم شتّى ، لا يُماريه أحد إلاّ لجَمَه ، منصفاً قوّالا للحق لا تأخذه في الله لومة لائم ، زاهدا في الدنيا ، لم يأخذ منها إلا قدر معيشة نفسه وما يكفي عياله ، زاهدا بما في أيدي الناس ، وقد أغلق على نفسه باب الطمع من جميع ما جاء من قِبل المخلوق ، فقد سدّه على نفسه باستغنائه بمولاه ، وقد ألقى الله محبته في قلوب الخاصة والعامة إلا من طمس الله بصيرته منهم " .

04- تصدّره للإفتاء ومكانته بين العلماء :

أصبح قصر اجنتور الصغير قبلةً للطلبة الوافدين من قصور القرارة وتوات ، وتحوّلت زاوية سيدي الحاج لحسن إلى معهد علمي جامع للعلوم والتخصّصات ، من تَفسير وحديث وأصول وفقه وفرائض ونحو

---

[1]- عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، المصدر السابق ، ص 90 .

[2]- إشارة إلى قول أبي علي البصير :

لَعَمْرُ أَبيكَ مَا نُسِبَ المُعَلَّى إلى كَرَمٍ وَفي الدُّنيا كَـريمُ
ولَكِنّ البِلادَ إذا اقْشَـعَرّتْ وَصَوّحَ نَبْتُهُا رُعِيَ الهَشِيـمُ

[3]- عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 119 .

[4]- عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، المصدر السابق ، ص 123 .

[5]- عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، (النسخة ب) ، ص 01 .

وتاريخ وتصريف وبيان ومنطق وكلام وسر وحساب...الخ . كلّ ذلك بفضل وجود الشيخ الجنتوري الذي أَحَلَّته أخلاقُه ومزاياه مكانة مرموقة في الوسط العلمي ، فكان كما وصفه البكري بن عبد الكريم بن البكري في شهادة جامعة [1] " العالم العامل الورع البركة ، إمام أهل عصره علماً وعبادة وسيّد الأوان ، العلَم الفرد الذي لم تسمع بمثله في أبناء جنسه أذنٌ ، ولم ترَ عينٌ مَن يدانيه ، الذي يراقب اللهَ تعالى في سرّه وجهره ، السيد الحاج عبد الرحمن بن الحاج إبراهيم الجنتوري " .

ورغم وجود علماء كثيرين في هذه الفترة (القرن 12 هـ) ، إلاّ أنّ السّبق والأفضلية في النبوغ والتقدّم كانتا للشيخ الجنتوري ، خاصة بعد وفاة الشيخ أبي حفص عمر بن عبد القادر التنلاني سنة 1152هـ / 1739م . فانتهت إليه الرياسة في العلم بالديار التواتية ، وناب في الحكم بسيرة حميدة ، وعفة ونزاهة ، وكان جامعاً للعلوم الشرعية والعقلية واللغوية ، فأصبح أهمّ المجتهدين في عصره ، من أعيان العلماء ومشاهير الفضلاء ، عديم النظير في العلم على اختلاف فنونه ، متبحّراً في معرفة أحكامه ومعانيه ، وعليه مدار الفتوى في توات بأكملها ، وانتفع به خلق كثير [2] .

وقد تخصّص الشيخ الجنتوري . على ما يبدو . في فقه النوازل ، وأصبح المرجع الأول فيه ، والفيصل في الخلافات والمناظرات العلمية الناشئة بسببه ، وكلّما وقع تنازع بين علماء توات حول نازلة من النوازل ، كتبوا إليه لينظر ويشاركهم في الخوض فيها ، ويتأمّل الصواب من عدمه [3] . وتتضّح تلك المرجعية بِجلاء في مخاطبة العلماء والسائلين إيّاه بعد عجزهم عن إدراك بعض المسائل واستنباط أحكامها بالصِّيغ التالية [4] "...فأخرِجنا سيدي من هذا الإشكال ، وأرشِدنا إلى واضح المنهج " ، وفي إشكال آخر [5] "...واكشف لنا الغطاء عن ذلك كلّه ، ولكم الأجر والثواب " .

وقد ذكر ضيف الله بن أبّ في رحلته أنّ الشيخ الجنتوري كان أحبّ علماء القرارة لوالده محمد بن أبّ المزمّري العالم اللغوي الشاعر ، وأنه كان يقضي معه النهار كلّه ، يُدارسه ويعرض عليه قصائده ، وأن المزمّري كان إذا أشكلت عليه مسألة فقهية سأله عنها ، وكان الجنتوري يردّ بديهةً بذكر المصادر والنصوص وإذا كتب كتاباً فإنه يكتبه بخط صعب القراءة ، لا يُفهم إلاّ بتأمّل ، ويملأ الورقة وحواشيها وتلك عادته [6] .

---

[1]- البكري بن عبد الكريم بن البكري ، المصدر السابق ، ص 16 .

[2]- عبد القادر بن عمر المهداوي ، المصدر السابق ، ص 18 .

[3]- عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 98 .

[4]- المصدر نفسه ، ص 05 .

[5]- المصدر نفسه ، ص 98 .

[6]- ضيف الله بن أبّ ، المصدر السابق ، ص 67 .

وكان قد أشار بنفسه في نوازله إلى حرصه على تمهيد الأصول وتحديد الفصول ، ليتبين الحق من الباطل [1] .

والأمرُ الذي أكّدتهُ المصادر هو أنّ الشيخ الجنتوري بلغ مرتبة علمية عالية ، فاق بها بعض شيوخه فانقاد لحكمه الصغير والكبير ، الجاهل قبل المتعلّم . وقد رسمَ تلميذه عبد الرحمن بن عمر ملامح تلك المكانة قائلاً [2] " وكان . رحمه الله . أعلم من لقيته بالأصول والقواعد الفقهية ، فاق في ذلك شيخه أبا حفـص فضلاً عن غيره ، عارفاً باستخراج الفروع والنوازل منها وبردّها إليها ، وقد قال لي يوما وددت أني وجدت طالباً حاذقاً أقرئه مختصر الشيخ خليل ، على أن أسند كل مسألة منه إلى أصلها ، وانتهت إليه الرياسة في الفتوى والتدريس في صقعي توات وتينجورارين بعد وفاة شيخنا أبي حفص ، وكان إذا رُفع إليه سؤال في نازلة يشحن جوابه بالمعقول ويُطيل فيه النّفس ، فإذا وقف عليه من فقهاء العصر من لا إلمام له بالقواعد أنكره استطالة ، ظنّا منه أنه لا طائل تحته وذلك لجهله ، ومَن جهل شيئا عاداه ، وقلّما جاءه سؤال في كاغد [3] إلا و أملاه بجوابه بديهة " .

لكنّ تلك المكانة اللائقة والحُظوة الفائقة ما كانت لتثبت دون وجود من يشدّ أزر الشيخ الجنتوري ويدفع عنه كيد الكائدين وحسد الحاسدين ، وعلى رأسهم صديقه العالم اللغوي محمد بن أبّ المزمّري ، الذي كان يجالسه ويُراسله ، ويشدُّ عضُدَه في ما كان يلاقيه من بعض منتسبي العلم . ومِن ذلك ما رواه ابنه ضيف الله حين ذُكر اسم العلاّمة الجنتوري في مجلس والده فقال [4] : وقد قلتُ فيما سلف من الدّهر ، معرّضا بالحسدة من أهل العصر :

لقد خَلاَ قومٌ بأنْ خَصّصُوا بالفضلِ أهلَ الزمانِ الغابرِ
أَلمْ يـكُن بَلَغَـهُم قَـولُه كـمْ تـركَ الأَولُ لِلآخِـرِ

05- بعض آرائه الفقهية :

تضلّع الشيخ الجنتوري في شتّى صنوف العلوم التي درَسها ثمّ درّسها ، أمّا الفقه فقد صالَ في مصادره وجالَ ، وسَبَرَ دخائلَه ودقائقه ، وكان لا يفتي بين الخصوم إلاّ بالنّص الصريح ، ويقول [5] " يجب الوقوف بين يدي الله والعرض عليه كما تُعرض القضية على المفتي " ، ومن الضرورة إلحاق النصوص بالأدلة

[1]- عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 111 .
[2]- عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، المصدر السابق ، ص 122 .
[3]- يريد بالكاغد : الورقة .
[4]- ضيف الله بن أبّ ، المصدر السابق ، ص 67 .
[5]- المصدر نفسه ، ص 67 .

الراجحة والاستنباطات العقلية . فالعالِم العدلُ في نظره هو العالم الذي له المَلَكة والقدرة على الاجتهاد وترجيح الأقوال ، وعدم الاكتفاء بالنقل والتقليد ، فإن ذلك من جمود الطبع وقلّة الفهم [1] .

وكثيراً ما كان الشيخ الجنتوري يحثّ طلبته ومعاصريه من الشيوخ على ضرورة الانفلات من قيد النصوص ، واستخدام القياس والاستدلال والمنطق ، وتجديد طرائق الفهم والاستنباط ، دون نفي أو قطيعة تامّة مع الأنماط التقليدية السائدة . كما دعا إلى مراعاة العُرف [2] الساري بين الناس إذا كان منضبطاً ، لأن الحكم يختلف باختلافه ، فلا إفراط أو تفريط . إذ لا تبرِّر المصلحة الظاهرة واستقامة أمر الناس مخالفةَ الشرع أو التحايل على نصوصه ، فإنّما ذلك فتنة واستدراج [3] .

ومن العيوب التي عدّها الشيخ الجنتوري على المدرّسين في الزوايا والمساجد والمدّعين العلم أنهم يتجوّزون في إطلاق الأحكام ، سواء الراجح أو المعتمَد أو المشهور ...بينما الذي عليه مدار الفتوى والعمل به هو بعضها على بعض [4] . لذلك وجَب على المفتي التحلّي بأربع خصال ضرورية ، لا غِنى له عنها ، قد جمعها القائل في بيتين من الرجز فقال :

شرطُ الذي يجوز أن يُستفتى ويُـقتدَى بـقوله إنْ أَفتى

دِيـنٌ قـويم وتُقىً مشتـهِـرُ فـقهٌ نفيسٌ هَذَّبتْهُ الفِكَرُ

وأمّا استفتاء من ليس هكذا ، فهو من التلاعب في الدين واتّباع الهوى [5] .

وكان الشيخ الجنتوري من أكثر العلماء الناقمين على الطريقة النمطية التقليدية التي ينتهجها الفقهاء في عصره ، وهي التركيز على الفروع وإغفال الأصول ، ولجَمُ الألباب عن الاجتهاد والقياس والاستدلال . لذا أمرَ تلميذَه عبد الرحمن بن عمر في نصيحة جامعة بأنْ [6] " يصرف همّته للتفقّه في دين الله ولا يثني عمره في الاشتغال بحفظ الفروع وتصويرها ، لأن تلك خصلة قلّما تُدرك غايتها ، ولأن من الأهمّ صـــرف

---

[1]- عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 90 .

[2]- **العُرف** من المصادر التي بنى عليها المالكية الاجتهاد ، واصطلاحاً هو ما استقرّ في النفوس من جهة العقول ، وتلّقته الطباع السليمة بالقبول ، جعله ابن عاصم في منظومته الأصولية من الأدلة المشروعة قائلاً :

العرف ما يعرف بين الناسِ ومثله العادة دون بـــاسِ

ومقتضاهما معاً مشـــروعُ في غير ما خالفه المشروعُ

ينظر : عمر الجيدي ، مباحث في المذهب المالكي بالمغرب ، ط 1 ، الرباط : مطبعة المعارف الجديدة ، 1993 م ، ص 226 .

[3]- عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 65 .

[4]- المصدر نفسه ، ص 88 .

[5]- المصدر نفسه ، ص 123 .

[6]- عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، المصدر السابق ، ص 120 .

الهمّة إلى معرفة مدارك الفروع ومأخذها ، أعني المدارك التفصيلية والمآخذ الإجمالية الأصولية والمذهبية ، إذْ بذلك يستنير القلب . إذْ معرفة وجه مسألة واحدة قد يُفتح به إلى معرفة مائة مسألة وغيرها ، وحفظ ألف فرع من غير معرفة توجيهها لا يغني عن حفظ فرع واحد غيرها ، فمن لم يعرف أدلّة الفروع وقع في تعب عظيم وخبط كثير ، لأنّ من لم يعرفْ وجه المسائل لا يستقرّ على مذهب ، فتجده يفتي كل يوم يقول غير الأول مع عدم اجتهاد بل تقليد محض ، لأنه يحسب كلّ بيضاء شحمة وكل سوداء ثمرة ، لأن من لم يكن له إلمام بالقواعد الأخصية والأعمية أَزْرَتْ به النقول لا محالة ، فيقول اليوم في مسألة لا تجوز لكونه وجدها كذلك في كتاب ، ثم يقول غداً أنها جائزة لكونه وجدها كذلك في ذلك الكتاب في تلك المسألة بعينها ، وموجب ذلك عدم معرفة إسناد فروع الفقه إلى أصولها " .

وكما كانت للشيخ الجنتوري آراء في صفات الفقهاء ومقوّمات الإفتاء ، كان له أيضاً رأي في بعض المسائل الفقهية القديمة والمستجدّة . ومن ذلك رأيه الصريح في تحريم الرّبا وإن تغيّرت أشكاله وألوانه ، وكان يستغرب في بعض أجوبته الإلحاح في السؤال وقد ثبت وجه التحريم وهو النّفع والربح [1] ، ورأيه في قضية الإفتاء دون علم أو اجتهاد أو تقليد أئمة ، فقد استهجن ذلك ، وردّ السائل إلى قول الله . عزّ وجلّ . " **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُوْنَ** " [2] ، كما تأسّف لجهل كثيرٍ من المنتسبين إلى العلم [3] .

ولم يسلَمْ الفقهاء المعاصرون من النّقد الحاد ، فقد أصبحوا في نظر الشيخ الجنتوري طلاّب مال ، لا طلاّب علم ، ومع ذلك لم يسأم من نصيحة بعضهم ، متمثّلاً قول الشاعر [4] :

اتَّقِ الله يا خَليلي رويدا واجعلِ العلمَ صيدَ أخراكَ قيدا
لا تكنْ كمعاشرِ الفقهاء جعلوا العلمَ للدراهم صِيـــدا
أخـذوه فصيّروه معاشـاً ثمّ كـادوا بـه البـريّة كَيْـــدا
فَـلِهذا صَبّ البلاءُ علينا مستحَقّا ومادت الأرض مِيدا

ومعظم علماء الوقت . في نظره . ومعهم القضاة ، أصبحوا عوناً للظَّلَمةِ على ظلمهم ، في ما لم يجدوا له مستنداً في كتاب الله ولا سنّة رسوله ولا إجماع ولا قياس ، بل محض تعدّ وعِناد ، ويرحم الله أبا القاسم الشاطبي (ت 790هـ / 1388م) صاحب حرز الأماني . يستشهد الجنتوري [5] . إذ يقول :

---

[1]- عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 43 .

[2]- سورة النحل ، الآية 43 .

[3]- عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 67 .

[4]- المصدر نفسه ، (النسخة ب) ، ص 07 .

[5]- عبد الرحمن الجنتوري ، رسالة بيع أصول الهاربين في المغارم ، ص 03 .

قُلْ للأميرِ نَصيحةٌ لا تركَنَنَّ إلى فَقِيـهْ
إنَّ الفقيـهَ إذا أتَى أَبْوابَكُمْ لا خَيرَ فِيهْ

06- موقفُه من القُضاة :

أبَانَ الشيخ الجنتوري عن مواقف حادّة شديدة اتجّاه قضاة عصره ، حيث اتّهمهم بالجهل والجـــور ، وكان يُنكر عليهم بعضاً مما يتعلق بالأحكام القضائية التي كانوا يُصْدرونها ، المخالِفة للسيرة ، المبدّلة للشريعة ، يقول في ذلك تلميذه عبد الرحمن بن عمر [1] " وكان . أي الجنتوري . شديد النّكير على قضاة العصر في هذه البلاد ، وهم محققون بذلك لشدة جهلهم وجورهم ، ومخالفتهم السيرة وتغييرهم الشريعة في كثير من أحكامهم . حتى صار عوامُّ غير بلادهم ممن يَرِدُ عليها ، من أهل سجلماسة وغيرها ممن جالس قُضاة بلده يُنكر ذلك عليهم ويقول : شريعتنا تُخالف شريعتكم ، جهلاً منهم ، وما يدريهم أن الشريعة لا تتخالف ، وإنما يخالفها من يتعاطاها " . ولعلّ تلك الحال من القضاة هي السبب في استشهاد الشيخ الجنتوري في بعض رسائله الموجهة للقضاة بالدعاء المنسوب إلى الشيخ صالح أبي زكرياء صالح بجاية حيث قال [2] " اللهمّ العن الشيعة ومغيّري الشريعة " .

وتشير النوازل إلى جملة من المآخذ التي سجّلها الشيخ الجنتوري على القضاة ، فمِن ذلك تمالؤهم على عدم تمزيق أرسام الأحكام ، وتركها بيد المحكوم عليه ، ممّا أصبح سبباً في كثرة الفتن وإحياء الخصومات في هذه البلاد [3] ، ومنها قبولهم شهادة الشاهد منقولة عنه وهو حاضر في البلد ، بينما الصواب أنّ الشهادة لا تُنقل إلاّ عن ميّت أو غائب ، وأمّا الحاضر على أميال فإنه يؤدّيها [4] ، ومن ذلك أيضاً أنّهم يحكمون بالأقوال المرجُوحة إذا وافقت هواهم ويزعمون أنّ ذلك يصوّغ لهم ، وهو خلاف الإجماع كما قال العلماء ، ومن تعّرض لنقض حكمهم بذلك يُشنّعون عليه أنه خالف النص القائل بأنّ حُكمَ الحاكم يرفع الخلاف ، وأنه لا ينقض ولو كان شاذاً ، وما يدريهم . يقول الجنتوري . أن ذلك إنما هو في الحاكم الذي له النّظر والاجتهاد ، لا المقلِّد المحض الذي يميل مع الهوى ، ومِن ذلك أنهم يحكمون ببيع عقار الحاضر في الدَّيْن قبل الإعذار إليه وعجزه ، ومن ذلك أنهم يحكمون في المواريث من غير تكليف إثبات الموت وعِدة الورثة ، ومِن ذلك أنهم يحكمون على الغائب واليتيم من غير تسمية الشهود ، وكثيراً ما يتساهلون في تحليف القائم يمين القضاء ، وغير ذلك من جهلهم وجورهم [5] .

---

[1]- عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، المصدر السابق ، ص 123 .
[2]- عبد الرحمن الجنتوري ، رسالة حول بيع أصول الهاربين في المغارم ، ص 11 .
[3]- عبد الرحمن الجنتوري ، نوازل الجنتوري ، ص 81 .
[4]- المصدر نفسه ، ص 83 .
[5]- عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، المصدر السابق ، ص 123 .

ومن الممارسات السلبية التي أعابها الشيخ الجنتوري على قضاة توات كذلك حرصهم على جمع الأموال من المتقاضين ، وأخذهم أكثر ممّا يستحقّون ، فليس لهم الزيادة فوق مئونتهم من نفقة ومركوب ، ولا يسرف القاضي حتى يتّخذ الكنوز من قضائه ، وقد قال الإمام الشافعي " من ولي القضاء ولم يفتقر فهو سارق " [1] . ولم يستبعد الجنتوري صحّة اتّهام هؤلاء القضاة بتعاطي الرشوة ، لاشتهارهم بالحيف ، ولِما ظهر عليهم من رَغَدِ العيش ويُسرِ الحال [2] .

ورغم ما وصف به الشيخ الجنتوري قضاة عصره من أوصاف قاسية مثل : الجَمادة والبَلادة وجمود الطبع وقلّة الفهم ، إلاّ أنه اعترف بوجود قضاة نزهاء شرفاء ، يقبلون النصيحة ويرجعون عن أحكامهم الخاطئة دونما حرج [3] .

والناتج أنْ أصبح مجلس الشيخ الجنتوري بمثابة مجلس استئناف أو محكمة عليا ، يرفع إليها المشتكون من جور القضاة قضاياهم ، وممّا يثبت ذلك قول الشيخ [4] " ثمّ رُفعتْ إليَّ القضية مع وكيل المشتري ..." ، فيقوم بتبيان الأحكام الصحيحة وتقويم الأحكام الخاطئة ، وقد أشار الجنتوري إلى إحدى تلك المراجعات في نوازله قائلاً [5] "...فكتبتُ للقاضي فأعلمتُه بالدعوى التي وقع بها الحكم ، وبمستنداتي من النصوص " .

وهكذا ظلّ الشيخ الجنتوري وفيّاً لقضايا المظلومين ، مُنكِراً على بعض القضاة تصرّفاتهم ، لا يبتغي بذلك غير وجه الله ، ممّا جلب عليه النقمة من بعض الظلمة وأعوانهم . وذلك ما اعترف به تلميذه عبد الرحمن بن عمر قائلاً [6] " فكان . رحمه الله . يُنكِر عليهم وعلى من يتعصّب لهم مِن العوام ، ويقوم بنصر المظلوم أحسن قيام ، ويشدّ عضدَه بما أمكنه من كتابةٍ وكلام ، حتّى كأنّه المكلّف بالخصام ، قاصداً بذلك إظهار الحقّ من غير نفعٍ يحصل له من القائم ، ولا يخاف في ذلك لومة لائم ، حتى قيل أنّ سبب وفاته كانت على يد بعض مَن سمّه لإنكاره عليه بعض ذلك ، فالله أعلم إنْ ذلك كان " .

07 – آثار الشيخ الجنتوري :

أ – تلامذته :

لقد طاف الشيخ الجنتوري بين العديد من المدارس والزوايا الدينية ، التي كانت تمثّل في ذلك الوقت معاهد علمية يقصدها الطلبة من قصور بعيدة ، ممّا مكّنه من الاطّلاع على مناهج متباينة في التدريس ،

---

[1]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 82 .

[2]– المصدر نفسه ، ص 83 .

[3]– المصدر نفسه ، ص 84 .

[4]– المصدر نفسه ، ص 79 .

[5]– المصدر نفسه ، ص 74 .

[6]– عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، المصدر السابق ، ص 124 .

والتمييز بين مستويات الإلقاء والتحصيل العلمي ، ليستقرّ أخيراً في قصر اجنتور حيث معظم الطلبة مـــن منطقة تيكورارين . والظاهر أنّه لم يكن ينظر بعين الرضا للمستوى العلمي لطلبة تلك المنطقة ، حيث كان يشتكي قلة استيعابهم ، وذلك لغلبة العجمة عليهم [1] ، وكان يفضّل عليهم طلبة توات لجودة قرائحهم وقرب لسانهم للعربية وقوة إدراكهم . وبلغ به الأمر إلى درجة رغبته في الرحيل إلى المشرق لعلّه يجد هناك من يحمل عنه ما منحه الله من العلوم والفنون [2] .

ورغم ذلك فقد انتفع من تلك العلوم عديدُ الطلبة من توات وتيكورارين ، وسعوا جاهدين إلى نشرِ أفكار الشيخ الجنتوري ، وتوسيع دائرة الانتفاع منها . وعلى رأس هؤولاء جميعاً تلميذه الوفي **عبد الرحمن بن عمر التنلاني** ، الذي تعرّف على الشيخ منذ انتسابه إلى الزاوية التنلانية طالباً ، فوقع في قلبه حبُّه ، وكان لا يفارقه إلاّ في أوقات الضرورة ، لذا فقد حزن أشدّ الحزن عندما عزم الشيخ الجنتوري على الرحيل والرجوع إلى بلاده ، فاستأذن أبويه والشيخ أبا حفص في الرحيل معه ، فأذنوا له ، وبعد سنوات قضاها في الغدوّ والرّواح على شيخه في زاوية اجنتور رجع إلى بلاده . ويذكر التنلاني في فهرسته سبباً قاهراً استدعى فراقه لشيخه قائلاً [3] " وإنما كرهت الإقامة عنده وإنْ كان يُسعِفني بمُرادي من الإقراء وإعارة الكتب أكثر من الشيخ أبي حفص ، لأني استوخَمتُ بلاده ولم يوافقني هواؤها ، وأكثر إقامتي فيها وأنا مريض بالحمى ، ولم أكن أعرف الحمى قبل رحلتي إليها " .

ثمّ إنّ عبد الرحمن بن عمر طلب من شيخه الإجازة في رسالة بعثها إليه من تينلان جاء فيها [4] " ونُريد من شيخنا وسيدّنا وأستاذِنا أن يحسنَ ظنّه بِنا ، وإن كُنتُ لست أهلاً لأَن أُجاز ، لكن لما انتسبتُ له ومَنَّ الله تعالى عليّ بأن جعلني من تلامذته وصِرت ابنَه في الدين ، فمِن شِيَمه أن يتعطّفَ عليّ ويُجيزني بجميع ما أجازه به أشياخُه " . فلبّى الشيخ طلبه وأجازه مرتين ، ورَدَ في مقدمة أخراها [5] "...فقد أجزتُ للشيخ الأجلّ العالم الأنْبَل أبي زيد سيدي عبد الرّحمن بن عُمر ، شيّد الله مناره ، ونوّر سريرته ، وجعله ممّن ساد وظفر ، جميعَ ما ذكرَ عنّي بشرطه ، آمراً له أن يصرف همّته للتفقّه في دين الله عزّ وجلّ... " .

ومن تلامذته المجتهدين كذلك محمد بن أحمد بن عبد العزيز الفرعوني **المسعدي** [6] **الجراري** ، الذي أعاد جمع وترتيب نوازل شيخه الجنتوري بعد وفاته ، وقد شغل منصب القضاء في منطقة تيكورارين فترةً مـن

---

[1]- إشارة إلى اللهجة الزناتية الشائعة بين أهل القورارة ، وهي إحدى روافد اللغة البربرية الأمازيغية المنتشرة في ربوع بلاد المغرب قاطبة .

[2]- عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، المصدر السابق ، ص 126 .

[3]- المصدر نفسه ، ص 89 .

[4]- المصدر نفسه ، ص 119 .

[5]- المصدر نفسه ، ص 120 .

[6]- نسبة إلى قصر فرعون أومسعد الواقع في الضاحية الشمالية لمدينة تيميمون .

الزمن ، فقد خاطبه شيخُه الجنتوري في إحدى رسائله إليه بـ [1] " محبّنا القاضي السيد الحاج محمد عبد العزيز... " ، وذكر المسعدي أنّه كان حريصاً على حضور مجالس شيخه ، مطّلعاً على مراسلاته ومراجعاته مع شيوخ توات ، وأنّه بحثها مع بعضهم مشافهةً ، وليس الخبر كالعيان [2] .

كما تتلمذ على الشيخ الجنتوري **محمد عبد الرحمن** ، الابن الوحيد لمؤسّس زاوية اجنتور سيدي الحاج لحسن ، حيث استغلّ وجود الشيخ مدرّساً بتلك الزاوية ليَنهَل من مَعين علومه وآدابه [3] .

ومن خلال إطلالةٍ على الأسماء الواردة في نوازل الشيخ عبد الرحمن الجنتوري يمكن إحصاء طلبة آخرين ، منهم الفقيه **محمد عبد العالي** بن عبد الحكم ، والفقيه سيدي **محمد عبد الجبار** بن أحمد التنكرامي الجراري ، أحد المقرّبين إلى الشيخ الجنتوري حيث كان يعبّر عن نفسه بأنّه [4] " خديمُ الشيخ ، محمد عبد الجبار جَبَرَ اللهُ كسرَه " . بالإضافة إلى ابنه **محمد** المكنّى أبا عبد الله ، فقد نقَل بعض الأجوبة والفتاوى عن أبيه الشيخ أبي زيد الجنتوري [5] .

ب – مؤلَّفاته :

رغم أنّ الغالب على تآليف شيوخ توات الاهتمام بالعلوم النقلية ، والانطواء على علومٍ بذاتها ، إلاّ أنّ الشيخ عبد الرحمن الجنتوري كان ممّن كسرَ تلك القاعدة ، فقد انكبّ على الكتابة نثراً ونظماً ، وجاوزَ قلمُه حدود المنقول والمعقول ، وألّف بأسلوب تميّز به عن غيره من المؤلّفين . لكنّ المؤسف أنّ ما وصلنا من تلك المؤلّفات لا يمثّل سوى نسبة قليلة ممّا هو مبسوط في المصادر المحلية التي ترجمت للجنتوري ، فقد فعلت بناتُ الدّهر فعلتَها وطوى تلك الكنوز الثمينة الإهمالُ والنسيان ، وكاد عملُ الشيخ عبد الرحمن الجنتوري ينقطع ، لولا الآثار التالية ، التي ظلّت عِلماً مُنتفَعاً به :

– نظم معونة الغريم في بعض أحكام قضاء الدَّيْن [6] : نظمَ الجنتوري قصيدة متعلّقة ببعض الأحكام الفقهية الخاصة بقضاء الدَّين على الغريم ، مكوّنة من مائتين وسبعة (207) أبيات ، موزّعة على خمسَ عشْرةَ (15) ورقة ، تكلّم فيها أولا عن القصد من وراء نظمها ، وقسّمها إلى فصول حملت العناويـــن

---

[1]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، (النسخة ب) ، ص 02 .

[2]– ضيف الله بن أبّ ، المصدر السابق ، ص 67 .

[3]– رشيد بلّيل ، المرجع السابق ، ص 66 .

[4]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 05 .

[5]– المصدر نفسه ، ص 20 .

[6]– اطّلعتُ على نسختين من مخطوط القصيدة ، الأولى بخزانة المرحوم الشيخ الحاج محمد باي بلعالم في أولف ، مكتوبة على ورق أبيض بخط محلّي واضح ، لا تحمل رقماً محدّدا . والأخرى بخزانة آل الجوزي في أولاد سعيد ، وهي نسخة قديمة أقلّ وضوحاً تحت رقم 207 .

التالية : قضاء دَين القرض مطلقا . قضاء دَين البيع مطلقا . بيع الدّين من الغريم . شروط بيع دَين القرض . حكم صلح الغريم عن الدّين . شروط بيع الدَّين من غير الغريم . فصل في الحوالة ، واستفتح الجنتوري هذه القصيدة قائلاً :

الحمدُ لله وسيّدُ الأنامْ عليهِ أفضلُ الصلاةِ والسلامْ
وآلهِ وصحبِه الأعــلامِ ما الحَمدُ في المبدإِ والختــامِ
وبعدُ فالقصدُ بهذا ذكرُ بعض أمورِ الدّين فيها عسرُ
لمثلِنا تبصرةٌ ونستعيــنْ اللهَ في كل الأمور تستهيــنْ
سمّيتُهُ معونةَ الغَريـــــمِ ببعضِ أحكامِ قضا الملّيــمِ

وبعد استعراض الفصول السالفة الذكر ، اختُتمت القصيدة بالبيتين التاليين :

تمَّ بحمدِ اللهِ ثمَّتَ علـــــى الرحمةِ المهداةِ خيرِ مَنْ عَـلا
أزكى الصّلاةِ والسلامِ وعَلى الآلِ والأصحابِ ثُم مَن تَلا

– شرح نظم معونة الغريم : ذكره تلميذه عبد الرحمن بن عمر حين عدّد تآليفه قائلاً [1] " ومنها شرحه على معونة الغريم ، لم أقف عليه ثمّ وقفتُ عليه " . وهو شرح طويل يتكون من مائة (100) ورقة ، علّق فيه الشيخ الجنتوري على الأرجوزة سالفة الذكر ، وفصّل أبياتها ومعانيها لغةً وفقهاً ، وقد وضعه بعدما ألحّ عليه الطلبة والإخوان . يقول الشيخ الجنتوري عن الدافع في تأليفه [2] " أمّا بعد فلمّا منَّ الله سبحانه عليَّ بوضع الأرجوزة المسماة بمعونة الغريم ببعض أحكام قضاء المليم ، وجاءت بحمد الله جملة كافية الأصول ، مقاصد معانيها حاوية ، طلب مني بعض من وقف عليها من الإخوان أنْ أضع عليها شرحاً يوضح المقصود منها ، ثمّ لما لم يكن بدٌّ من إسعافه أجبتُ مراده ، وإنْ كنت مُزجى البضاعة ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أُنيب " .

– حاشية مستقلة على الشيخ عبد الباقي الزرقاني : وردت الإشارة إليها في معظم المصادر المترجِمة للشيخ الجنتوري ، وهي عبارة عن تقاييد وطرر على شرح الزرقاني [3] لمختصر خليل ، وكان الجنتوري شديد النّكير عليه ، حتى كان ينسبه في بعض المواضع لخرق الإجماع ، وكان يُطيل النفَس فيما خالف فيه قضاة وقته ومفتوه مقتضى المذاهب ، ثم أنه ابتدأها من أول المختصر شرحًا ، اقتصر فيها غالبًا على إسناد

---

[1]– عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، المصدر السابق ، ص 125 .

[2]– عبد الرحمن الجنتوري ، شرح نظم معونة الغريم ، نسخة بيد صاحب الرسالة .

[3]– **الزرقاني** أبو محمد عبد الباقي بن يوسف بن أحمد (ت 1099هـ / 1688م) ، من شيوخ المالكية بمصر ، أخذ عن الأجهوري . من مؤلّفاته شرح كبير على المختصر وشرح العزيّة ورسالة في الكلام على إذا . يُنظر : محمد مخلوف ، المصدر السابق ، ص 304 .

مسائله لأصولها ، مع الإشارة إلى البحث مع الشارح المذكور (الزرقاني) حيث احتيج إليه ، ومع ذلك لم تكمل ولم تخرج من مسودّتها [1] .

وقد عرض الشيخ الجنتوري تلك الحاشية على الشيخ العالم اللغوي محمد بن أبّ المزمّري من أجل التبييض والتقريظ [2] ، فأُعجِبَ بها غاية الإعجاب ، وقال مقرّظاً لها ولمؤلّفها شعراً ونثراً ما يلي :

بُشرى إذ صارَ سَيفُ الحقّ مصقولا وعادَ طعمُ مَذاقِ العلمِ مَعســـولا

إنّ العلومَ ابنَ ابراهيم [3] أُعْطِيهــا عفواً فحازَ بها فخراً وتفضيـــــلا

العالِمُ الفردُ لا حِبرٌ يُناظِـــــره إنْ خاضَ في العلم معقولا ومنقـولا

أكرِمْ به عَلَماً به تواتُ حَـــوَتْ على القرى كلِّها فخراً وتبجيـــلا

أَبدى جواهرَ من فنّ الفروع بهــا قد جمّلَ العقلَ من ذا الفنّ تجميلا

من كان للهِ كان اللهُ مُظفـــــرَه بما يحاولُ تسهيلا وتحصيـــــلا

لكنْ سألتُ فقالوا أمرُه عَجَـــبٌ إنَّ الفتى نالَ للتأليف تأهيـــــلا

ما فيه عيب سِوى ما كان صَيّــره مِن قبلُ عن خطة التأليف مشغولا

فنالَني عجبٌ مِن ذاكَ أَذْهَلـــــني حتى نطقتُ ببيتٍ فيه تمثيـــــلا

إنّي لأعجبُ مِن سيفٍ جلٍ ماضٍ وليس يُرى في الخَطب مسلـــولا

قال صاحب الأبيات (محمد بن أبّ المزمّري) : قد طالعتُ بعضاً من هذه الحاشية ، التي صارت معالي مؤلِّفها في الفريقين ذائعة فاشية ، فذكّرتني حاشية الإمام الحطاب [4] ، لما تضَمَّنتهُ من الأبحاث الرائقة وفصلِ الخطاب ، إلى غير ذلك من النّقول التي تُستَلَذُّ عند كلِّ نَحريرٍ مُنصِف وتُستطاب ، قرّبَ اللهُ نَوَاه فيما نَواه ، وكَلَاهُ فيما قلَّده وَولاّه [5] .

أمّا ضيف الله بن محمد بن أبّ المزمّري ، الذي نقلَ تلك الشهادات القيّمة عن والده في الشيخ الجنتوري ومؤَلَّفه ، واعترافَه بسَبقِ وفضلِ هذا الشيخ في العلوم منقولِها ومعقولِها ، فقد تأسَّف لعدمِ تمكّنه من

---

[1]– عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، المصدر السابق ، ص 124 .

[2]– ضيف الله بن أبّ ، المصدر السابق ، ص 67 .

[3]– يقصدُ بابن إبراهيم الشيخ عبد الرحمن بن إبراهيم الجنتوري .

[4]– **الحطّاب** أبو عبد الله محمد بن محمد ، من أقطاب المذهب المالكي وشرّاح المختصر ، أخذ عن السخاوي قاضي المدينة ، وأخذ عنه أئمة منهم عبد الرحمن التاجوري ، توفي سنة 954هـ / 1547م . يُنظر : محمد بن محمد مخلوف ، المصدر السابق ، ص 270 .

[5]– ضيف الله بن أبّ ، المصدر السابق ، ص 81 .

نسخ تلك الحاشية ، وتحسّر على ضياع هذا الكنز الثمين ، مبيّناً السبب قائلاً [1] " لولا صفرُ اليد والاشتياقُ إلى الأهل والولد ، لنقلتُ تلك الحاشية بِرمّتها وكل شيء بلغ الحدّ " .

– **رسائل وأجوبة ردّا على قضاة الوقت** : وهي رسائل كثيرة ، مختلفة الأشكال والأحجام ، تضمّنت مراجعات الشيخ الجنتوري لقضاة عصره . لا تخلو من الأدلّة الدّامغة والحجج القاطعة ، منها رسالة مكونة من ثماني عشرةَ (18) ورقة [2] ، وهي جواب على أحد القضاة البكريين . تضمنت بالنصوص والبراهين بطلان ما درجَ عليه بعض القضاة من بيعٍ لأصول الهاربين في المغارم ، بدأها بـ " الحمد لله الذي وعد أيمة العدل يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه بالظل الظليل ، وخصّصهم بكونهم يومئذ على منابر من نور ، لا يحزنهم الفزع الأكبر في ذلك اليوم الجليل ..." ، وختمها بقوله "...وإنما كتبتُ هذا إليكم لأنّكم بحمد الله دار القضاء قديماً وحديثاً ، أخلَده الله في دياركم وأعانكم عليه وألهمنا وإيّاكم ما فيه الرشد والصلاح ، ولم نذكر ذلك افتخاراً " . وقد ذكر ضيف الله بن أبّ في رحلته أنّ الشيخ الجنتوري ألّف على مِنوال ذلك الجواب ما لا يعدّ ولا يُحصى من الرسائل [3] .

– **تأليف في التصوف في أحوال أرباب القلوب** : وردت الإشارة إليه من قِبل تلميذه محمد بن عبد العزيز المسعدي في مخطوط النوازل [4] .

– **شرح على مختصر خليل** : ابتدأه من الخطبة إلى النكاح في توجيه كلام المتن [5] .

– **رجز في علم الكلام في مسألة الكون** : قال عنه ضيف الله بن أبّ [6] "لم يسبقه أحد في ذلك فيما نعلم ، وله عليه شرح في نحو أربعة وستين بالقالب الرباعي . بيّض له محمد بن أب المزمري من المسودّة وأصلحَ فيه مواضع بموافقته " .

– **منظومتان في علم الكلام رائية ولامية** : ضمّنهما محصّل كلام السنوسي في عقائده وشروحها ، وهما في غاية الإفادة . يقول عنهما عبد الرحمن بن عمر [7] " قرأتُهما معاً عليه ، إلاّ أنّه لم يكن يتقن فنّ العروض والقوافي ، فلذلك يوجد فيهما من عيوبهما كثير ، وقد أذِنَ لي في إصلاح ما ظهر لي من ذلك فيهمـــــا ،

---

[1]– ضيف الله بن أبّ ، المصدر السابق ، ص 81 .

[2]– توجد نسخة كاملة منها بخزانة سيدي عبد الله البلبالي ، كوسام ، أدرار .

[3]– ضيف الله بن أبّ ، المصدر السابق ، ص 67 .

[4]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، (النسخة ب) ، ص 01 .

[5]– المصدر نفسه ، ص 01 .

[6]– ضيف الله بن أبّ ، المصدر السابق ، ص 67 .

[7]– عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، المصدر السابق ، ص 124 .

فأصلحتُ ما أمكنَني ، وله عليهما شرحان في غاية الإفادة ، أكثرَ فيهما النّقل من كلام الإمام المحقّق أبي علي سيدي الحسن بن مسعود اليوسي[1] في حاشيته على الكبرى ، وهما مما يُستدلّ به على مكانته في ذلك الفن " .

– **شرح مستقلّ على المختصر إلى أركان الطلاق** : وقف عليه الأديب محمد بن أبّ المزمّري ، حسبما ذكر ابنه ضيف الله [2] .

– **قصيدة في الفرائض** : ذكر تلميذه عبد الرحمن بن عمر بأنّه لم يطّلع عليها ولكنّه أُخبِر بها [3] .

– **فتاوى على الأسئلة** : أشارت إليها جميع المصادر ، وهي المشهورة اختصاراً بنوازل الجنتوري ، ضمَّنها أجوبة على عديدِ الأسئلة والنوازل في مختلف المسائل الفقهية .

ممّا سبقَ يتبيّن لنا حرص الشيخ الجنتوري على التأليف ، رغم انشغاله بالتعليم والإفتاء ، ومدى تنوّع مؤلّفاته لتشمل جلّ صنوف العلم . لكنّ الإعجابَ بهذه التصانيف الجنتورية يمتزج بالحسرة والتأسّف على ما حالت بيننا وبينه عوادي الزمن فلمْ يصِل إلينا ، وكذلك على ما وصلَ منها ولكنّه ظلَّ حبيس الخزائن والرفوف ، تأكل دابةُ الأرض مبناه ومعناه .

07– وفاة الشيخ الجنتوري :

عاش الشيخ الجنتوري حياةً مليئة بالتحرّي والاجتهاد والتقوى ، ذاكراً الموت في مجلسه ورسائله ، حيث يتبيّن ذلك من خلال قوله [4] "...ولم نذكر ذلك افتخاراً ، فقد أزفَ الرحيل وبدأ الشيب وذهب أطيبُ العمر ، وإنّما ذكرناه تحدّثا بنعمة الله وآمرين بالمعروف وناهين عن المنكر ، وناصحين لأيمة المسلمين وعامتهم ، بذلك أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم " .

وذلك ما قُدّر وكان ، فقد أزفَ الرحيل فعلاً ، وأسْلمَ الشيخ الجنتوري الرّوح إلى بارئها ، في يوم الاثنين من خمسةِ أيامٍ خلَونَ من شهر جمادى الأولى عام ستين ومائة وألف ، وسنّه على ما قيل نيف وخمسون سنة [5] ، وحضر جنازتَه جمعٌ كثير ، ودُفن في مدرسته بقصر اجنتور .

---

[1]– **اليوسي** أبو الحسن بن مسعود ، شيخ مشايخ المغرب ، فقيه مالكي أديب ، يُنعت بغزالي عصره ، أخذ عن الشيخ محمد بن ناصر . له تآليف حِسان وأدعية ورسائل وقصائد ، منها زهرة الأكم في الأمثال والحكم وحاشية على مختصر السنوسي وقصيدة في رثاء الدلائيين والكوكب الساطع في شرح جمع الجوامع ، توفى 1102هـ / 1691م . يُنظر : محمد بن محمد مخلوف ، المصدر السابق ، ص 328 .

[2]– ضيف الله بن أبّ ، المصدر السابق ، ص 67 .

[3]– عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، المصدر السابق ، ص 125 .

[4]– عبد الرحمن الجنتوري ، رسالة حول بيع أصول الهاربين في المغارم ، ص 18 .

[5]– عبد الرحمن الجنتوري ، نوازل الجنتوري ، (النسخة ب) ، ص 02 .

يقول ضيف الله بن محمد بن أبّ عن وفاة الشيخ الجنتوري في تلك السنة [1] " فقَدنا في هذه السنة (1160هـ / 1747م) **دعائم الإسلام** بتوات :

لَعَمْرُكَ ما الرّزيّة فَقْدُ مالٍ ولا شاةٌ تموت ولا بعيرُ
ولكنَّ الرزيةَ فقدُ فَحْـــلٍ يموتُ بمَوتِه بشرٌ كثيــرُ

فقد توفي فيها العالم العلاّمة البحرُ الفهّامة سيدي الحاج عبد الرحمن الجنتوري ، ليلة الاثنين الخامسة من جمادى الأولى ، وحين أُخبر والدي (ابن أبّ) بموته قال : مات سيدي الحاج عبد الرحمن وصار يكرّرها . ثم بعده محمد بن الصوفي البادرياني [2] ليلة الأحد الخامسة والعشرين منه ، ثم شيخنا ووالدنا الجامِع البحرُ النّافع سيدي محمد بن أبّ يوم الاثنين العاشر من جمادى الثاني في تيميمون ، قال ضيف الله في مرثيته :

توفّى الشّيخُ فيها عن قريـب بأهونَ مِنْ جمادى بغير لُبسِ
بيوم عاشرٍ منه بعـــــــامٍ من السّتينَ في تحقيقِ حَدسِ
وفي ذا العام قد غارتْ عيون كَصوفي و**جنتوري** ذي يَحْسِ
سَقَى اللهُ ثَراهم كلَّ وَبْـــلٍ مِنَ الرّحماتِ في مُـزنٍ وأَوسِ "

أمّا تلميذه الوفي عبد الرحمن بن عمر التنلاني فقد رثاه داعياً [3] " بردّ اللهُ ضريحَه ، وأَلْحَقَنا به كما يُحبّ ويرضى ، وأَسْكَنَنا وإيّاه وجميعَ والدينا وأشياخِنا وأحبابِنا من الفردوس فسيحَه ، آمين يا ربّ العالمين " .

المبحث الثالث : فقهُ النوازل في توات

01- المذهب المالكي في إقليم توات :

لم يُكتبْ لمذهبٍ من المذاهب الفقهية حظّ من الانتشار والاستقرار وشدّة الإقبال عليه من النّاس عوامهم وخواصهم مثل ما اتّفق للمذهب المالكي في بلاد المغرب الإسلامي ، فمنذ تبنّى المعزّ بن باديس [4] مذهب مالك ، أصبح هو مذهبَ أهل السنة في ربوع المغرب ، وزاده المرابطون تأييداً ، فكان لا يُقطع أمرٌ

---

[1]- ضيف الله بن أبّ ، المصدر السابق ، ص 66 .

[2]- **البادرياني** سيدي الحاج محمد الصوفي ، نسبة إلى بادريان أحد قصور تيميمون ، أخذ عن شيخه سيدي الحاج محمد بن أحمد لمطارفي ، كان عالماً صالحا أديباً . يُنظر : عبد القادر بن عمر المهداوي ، المصدر السابق ، ص 18 .

[3]- عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، المصدر السابق ، ص 126 .

[4]- **المعزّ بن باديس** (ت 454هـ / 1062م) من أعظم ملوك بني زيري الصنهاجيين ، دامت ولايته ثمانٍ وأربعين سنة . كان مَلكاً مهيبا عالي الهمّة مُحبّا للعلم ، عظُم صيتُه وعلا أمره . نبذَ سنة 441هـ / 1049م طاعة الفاطميين ومذهبهم الشيعي ، وأعلن الاقتصار على مذهب الإمام مالك ، فانتقم منه المستنصر الفاطمي وأرسل إلى أفريقية عرب بني هلال ، فخرّبت حصونها واستوطنت ديارها . يُنظر : شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي ، المصدر السابق ، ج 18 ، ص 140 . أيضاً : أبو عبد الله محمد الباجي المسعودي ، الخلاصة النقية في أمراء إفريقية ، ط 2 ، تونس : مطبعة بيكار ، 1905 م ، ص 46 .

في مملكتهم إلاّ بمشورة الفقهاء المالكيين ، فعظُمَ شأنهم ونفقت كتب المذهب [1] ، وفي ذلك يقول مالك بن المرحل المالكي :

مَذْهَبِي تَقْبِيلُ خَدِّ مُذْهِب سيّدي ماذا ترى في مَذْهَبي
لا تُخَالِفْ مَالكًا فِي رَأْيِــهِ فَعَلَيهِ جُلُّ أَهْلِ المغْـــرِبِ

والإقليم التواتي بما أنّه جزءٌ من بلاد المغرب الواسعة ، لم يخرج عن تلك القاعدة . فقد انبرى علماؤه .كما علماء الجزائر . للكتابة في أصول الفقه المالكي وفروعه ، وازداد تمسُّكهم به خلال القرن الثاني عشر للهجرة (12 هـ) ، في الوقت الذي حاول المذهبُ الحنفي مزاحمتَه في الأقاليم الخاضعة للحكم العثماني . ويرجع سبب الارتباط الوثيق بين التواتيين و المذهب المالكي إلى ما يلي :

* ترجيح مذهب مالك على غيره ، وإنافة منزلته في العلم وسموّ قدره ، قال فيه الشافعي " مالك أستاذي وعنه أخذنا العلم ، وما أحد أمنّ عليّ من مالك ، وجعلتُ مالكاً حجة بيني وبين الله تعالى ، وإذا ذُكر العلماء فمالك النجم الثاقب " [2] .

* سعةُ أصوله وقواعده وهي ميزة تميّز بها عن غيره ، وقد أدرك ذلك التواتيون من خلال الرحلات المتواصلة نحو الأراضي الحجازية ، وخاصة المدينة المنورة دار العلم وموطن الإمام مالك وتلامذته من بعده [3] .

* ارتباطه بالبيئة واعتداده بالواقع الاجتماعي للأمّة ، فهو مذهب عملي يأخذ بأعراف الناس وعاداتهم ، يتمشّى مع الفطرة في بساطتها ووضوحها دون تكلّف أو تعقيد [4] . وأهل توات بطبعهم يميلون إلى البساطة والوضوح ، يفرّون من النظريات المعقّدة ولا عهد لهم بالتباينات المذهبية أو الانقلابات الإدارية والسياسية .

* كثرة المؤلفات الفقهية وتنوّعها ، وهي إضافة إلى كونها ذخيرة فقهية ثمينة بحكم وظيفتها التشريعية ، تشكّل سجّلاً هاما يعكس سائر مناحي الحياة ، الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية والسياسية ...

تلك العوامل وغيرها جعلت التواتيين كما المغاربة عموماً يتمسكون بهذا المذهب تمسّكا شديدا ، ويقتصرون على ما جاء في مصادره دون غيرها ، بل إنّ فقهاءهم وعلماءهم كانوا يميّزون ما هو خارج عن مذهب مالك إن لم يتجنّبوه . يشير الشيخ الجنتوري إلى ذلك قائلاً [5] "...وإنما تسوّغ الفتوى بالكتب غيـر

[1]- مبارك بن محمد الميلي ، المرجع السابق ، ج 02 ، ص 338 .

[2]- أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي ، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، ط 1 ، بيروت : دار الكتب العلمية ، 1998 م ، ج 01 ، ص 35 .

[3]- عمر الجيدي ، المرجع السابق ، ص 37 .

[4]- المرجع نفسه ، ص 36 .

[5]- عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 27 .

الثابتة الرواية للفقهاء الذين لا تزري بهم النقول لعلمهم بالقواعد والقوانين ، فما وجدوه خارجا عن المذهب المالكي تركوه أو نبّهوا عليه " . كما كان يستغرب من أجوبة بعض الشيوخ ، الذين لا ينبّهون السائلين في فتاواهم إلى المذهب حصراً ، ولا يُحيلونهم إلى مصادره من أمّهات الكتب المالكية [1] ، معتبراً الخروج من مذهب إلى مذهب من الممارسات التي أجازها الأصوليون [2] .

ولا يعني ذلك الانتسابُ بحال من الأحوال التقليد الأعمى أو التعصّب المقيت لمذهب مالك [3] ، بقدرِ ما هو تعبير عن الالتزام الديني وتوجيه للعامة وحفظ لمصالح الجماعة . وإلاّ فالشواهد على الانفتاح المذهبي متعددة ، منها استشهاد الشيخ الجنتوري في غير ما موضع بآراء أئمة المذاهب الأخرى وفقهائهم [4] ومنها ما أَبْداهُ عبد الرحمن التنلاني في رحلته الحجية من حرصٍ على زيارة الآثار المالكية في مصر ، بالموازاة مع زيارة قبر الإمام الشافعي [5] .

02- أهمّ النوازل التواتية :

شاع في بلاد المغرب الإسلامي تعبير النوازل في مقابل التعبير الشائع في بلاد المشرق الإسلامي وهو الفتاوى أو المسائل ، غير أنّ النوازل تختصّ بالحدوث والوقوع ، فهي أضبط في التعبير من الفتوى التي تشمل سؤال الناس عن الأحكام الشرعية ، سواء حدثت أم لم تحدث [6] . والنوازل في الاصطلاح تُطلـــق

---

[1]- أهمّها بعد موطّأ الإمام مالك (ت 179 هـ) : المدونة لعبد السلام سحنون (ت 240 هـ) والواضحة لعبد الملك بن حبيب (ت 238 هـ) والعتبية أو المستخرجة لمحمد بن أحمد العتبي (ت 254 هـ) والموازية لابن المواز (ت 269 هـ) ، هذا بالإضافة إلى عشرات الموسوعات الفقهية إمّا شرحاً أو اختصاراً أو تهذيباً لأمّهات الكتب ، ومنها : التهذيب للبرادعي (ت بعد 373 هـ) والنوادر والزيادات لابن أبي زيد القيرواني (ت 386 هـ) والجامع لابن يونس الصقلي (ت 451 هـ) والتبصرة للخمي (ت 478 هـ) والبيان والتحصيل لابن رشد (ت 520 هـ) والتنبيه للتنوخي (ت بعد 526 هـ) وشرح التلقين للمازري (ت 536 هـ) والنهاية والتمام للمتيطي (ت 570 هـ) والمختصر في الفقه المالكي لابن عرفة (ت 803 هـ) والأحكام للبُرزلي (ت 841 هـ)...الخ .
يُنظر : عمر الجيدي ، المرجع السابق ، ص ص : 66 – 82 .

[2]- عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 67 .

[3]- عابَ بعضُهم على المالكية ما اعتبره تقليداً أعمى لمالك ومذهبه قائلا :

عذيري من قوم يقولون كلّمـــــا طلبتَ دليلاً هكذا قالَ مالـــكُ
فإنْ عُدتَ قالوا هكذا قالَ أشهبُ وقدْ كانَ لا تخفى عليه المَسالـكُ
فإنْ زدتَ قالوا قالَ سحنونُ مثلَـه ومَن لَم يقلْ ما قاله فهو آفـــكُ

يُنظر : عمر الجيدي ، المرجع السابق ، ص 26 .

[4]- من أمثلة ذلك نقل بعض آراء الإمام الشافعي . يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 82 .

[5]- عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، الرحلة الحجية ، ص 18 .

[6]- عمر الجيدي ، المرجع السابق ، ص 128 .

على المسائل والقضايا الدينية والدنيوية التي تحدثُ للمسلم ويريد أن يعرف حكم الله فيها ، فيلجأ إلى أهل العلم الشرعي يسألهم عن أحكام هذه النوازل [1] ، فهي تشمل جميع الحوادث التي تحتاج إلى فتوى تبيّنها سواء كانت متكررة أم نادرة الحدوث ، وسواء كانت قديمة أم مستجدّة ، كما أنها تتجلّى في شكل أسئلة توجّه إلى العلماء فيجيبون عنها مبينين حكم الله فيها [2] .

وقد انتشرت النوازل الفقهية أيّما انتشار في توات ، وأصبح الإقليم موسوماً بها ، وبلغ حدّ شيوعها أن توجَّه الناس بأسئلتهم إلى العلماء العابرين توات مع ركب الحجيج [3] ، فضلاً عن العلماء المستقرّين النوازليين ، ومن أشهر النوازل التواتية خلال تلك الفترة ما يلي :

أ – نوازل الغنية [4] : واسمها الجامع " غنيةُ المقتصدِ السّائل فيما وقعَ في توات من القضايا و المسائِل " ، قام بجمعها عبد العزيز البلبالي (ت 1261هـ / 1845م) ، مكمّلاً ما بدأه والده محمد بن عبد الرحمن البلبالي (ت 1244هـ / 1829م) الشهير بسيد الحاج . وهي عبارة عن مجموعة من الفتاوى والقضايا والمسائل المنقولة من سجلاّت القاضي عبد الحق بن عبد الكريم البكري (ت 1210هـ / 1796م) ، الذي شكّل مجلساً استشارياً من أربعة فقهاء لمشاورتهم في القضايا التي كانت تستشكل عليه ، وجمع عبد العزيز أحكام السجّل التي قيّدها والده وسمّاها غنية المقتصد السائل ، وقام بنسخها وإخراجها من مسودّتها وترتيبها في كتاب على أسلوب مختصر خليل [5] ، حيث قسّم الكتاب إلى عدّة مسائل ، رتّبها من بعده تلميذُه أحمد الحبيب البلبالي و قد أضاف إليه مقدمة ، ترجم فيها للشيخ سيد الحاج البلبالي وولده الشيخ عبد العزيز البلبالي .

وقد جاء ترتيب المسائل على النحو التالي : جامع القول في الاعتقادات و نُبذ من طريف الحكايات مسائل الطهارة والصلاة وسائر العبادات ، الزكاة والصيام ، الأيمان والنذور ، النكاح وتوابعه ، الطلاق وما يتعلق به ، الإيلاء ، المفقود ، العدة ، النفقات ، الحضانة ، البيوع وما شاكلها ، بيع الفضول ، التوليج

---

[1] – مصطفى الصمدي ، فقه النوازل عند المالكية ، ط 1 ، الرباط : مكتبة الرشد ، 2007 م ، ص13 .

[2] – عبد السلام بلعالم الأسمر ، أعلام فقه النوازل بمنطقة توات خلال القرنين 12هـ و 13هـ ، ملتقى إسهامات علماء توات ، ص 16 .

[3] – أبو سالم العياشي ، المصدر السابق ، ج 01 ، ص 82 .

[4] – تتوفّر خزائنُ المنطقة على نسخها (كوسام ، تمنطيط ، المطارفة ، أولف ...) ، وقد تصدّى لتحقيق أجزاء من متنِها جمعٌ من الأساتذة والطلبة ، في دراسات فقهية واقتصادية واجتماعية...الخ .

[5] – **مختصر خليل** أهمّ المختصرات الفقهية المالكية على الإطلاق ، شغلَ التواتيين قروناً ولا يزال ، فقد انقطعوا إليه حتى جعلوه مرجعهم الأساس لا يتجاوزونه إلى غيره . وواضعُه هو ضياء الدين أبو المودة خليل بن إسحاق المصري ، أحد شيوخ الإسلام والأئمة الأعلام ، أخذ عن جماعة منهم أبو عبد الله المنوفي . ومن تلامذته التاج الإسحاقي وشمس الدين محمد الغماري ، من تآليفه شرح مختصري ابن الحاجب ومختصره المشهور في المذهب الذي أقبل عليه الطلبة من كل الجهات ، واعتنوا بشرحه وحفظه ودرسه ، توفى سنة 776هـ / 1374م . يُنظر : محمد بن محمد مخلوف ، المصدر السابق ، ص 223 .

القرض ، السلم ، الرهن ، الصلح ، الضمان والالتزام ، المديان ، الحجر، الموارات ، مسائل الشركة ، الضرر الوديعة ، العارية والإرفاق والبضائع ، الوكالة ، الإقرار والإبراء ، الغصب ، الاستحقاق ، الشفعة ، القسمة القراض ، المساقاة والمزارعة ، الإجارة والأكرية وما ضاربها ، موات الأرض وما جهل أربابه ، الحبس وسائر العطايا ، القضاء والشهادات ، الدعاوي والأيمان ، الحيازات ، الحرابة والدماء وما يشملها ، الردة ، السرقة والزنا ، العتق ، الوصايا والأوصياء ، المواريث والفرائض [1] .

ب – نوازل الزجلاوي [2] : نسبة إلى العالم المفتي الشيخ محمد بن العالم الزجلاوي (ت 1212هـ / 1797م) ، وقد جمع في نوازله تلك أجوبة والده العلاّمة سيدي امحمد بن احميدان الزجلاوي ، واشتهر هذا الأخير بالعالم لتقدّمه وجلالته في العلوم العقلية والنقلية ، وضمّ صاحب النوازل إلى أجوبة والده أجوبةَ الشيخ عمر بن عبد القادر التنلاني وكان معاصراً لوالده ، ولم يغفل أجوبة شيخه عبد الرحمن بن عمر التنلاني . وقد ألمحَ إلى ذلك في مبتدأ النوازل بعد البسملة والحمدلة قائلاً [3] "...وبعد فهذه مسائل في الفقه وفّق الله مُجمّعها من أجوبة والدنا العالم رحمه الله ومعاصريه (شيخنا الأستاذ أبي زيد العلاّمة الفقيه الصالح سيدي عمر بن عبد القادر) [4] ، وتلميذه الفقيه المتفنّن الصالح شيخنا الأستاذ أبي زيد بن بعمر ، وربما أضفنا من المناسب لغيرهم في أعمارهم ، مع زيادة في تأييد الجواب أو توهينه ، وقد آثرتُ تقديم الوالد فيها لعلمي بجلالته في العلوم وخصوصاً في جواب تضمين النازلة عليها ، حسبما يشهد له بذلك كلامه وجملة من يعرفه ، ولاشتمالها على مسائل العبادات من توحيدٍ وصلاةٍ وما بعدها ..." .

والكتاب ضخم بوّبه جامعُه على نسق كتب الفقه مقدّماً مسائل التوحيد ثم الطهارة فالصلاة ثم الزكاة فالذكاة والأضاحي والعقيقة ، ثم أبواب النكاح والطلاق وبعدها أبواب البيوع والربا والسّلْم والصلح والضمان والوديعة والشركة والغصب والجعل والمساقاة وإحياء الموات ، ثم أبواب الأحباس والهبات والصدقات ، ثم مسائل الشهادات والقضاء . والنوازل موسوعة جمعت بين الفقه والتاريخ ، فقد ضمّنها جامعُها أجوبة ثلاث شخصيات ممّن بلغوا مرتبة الترجيح ووصفوا بالاجتهاد المذهبي ، كما احتوت على كمٍّ

---

[1]– عبد السلام بلعالم الأسمر ، المرجع السابق ، ص 21 .

[2]– توجد منها نسختان رئيسيتان في خزانتي بن عبد الكبير بالمطارفة والشيخ سيدي عبد الله البلبالي بكوسام ، وقد حقّقها الدكتور محمد جرادي في إطار الإعداد لموضوع أطروحته .

[3]– محمد بن العالم الزجلاوي ، المصدر السابق ، ص 01 .

[4]– يبدو المعنى في هذه الجملة مضطرباً ، لأنّ كُنية عمر بن عبد القادر هي أبو حفص ، لذا يُرجّح أنّ المؤلّف يقصد الشيخ النوازلي أبا زيد عبد الرحمن الجنتوري المعاصر لوالده أيضاً ، ثمّ العلاّمة الفقيه الصالح سيدي عمر بن عبد القادر ، ويُعضّد ذلك متمُّ الكلام " لغيرهم في أعمارهم " أي بصيغة الجمع وليس المثنّى .

من المراسلات والمساجلات والحوارات العلمية بين علماء المنطقة وغيرهم من علماء الحواضر المغاربية ، وفيها حكايات وطرائف وقعت للشيخ سيدي امحمد العالم الزجلاوي في رحلاته [1] .

ج – نوازل محمد بن عبد الرحمن بن عمر التنلاني (ت 1233هـ/ 1818م) [2] : اشتهر هذا الشيخ بكثرة الفتاوى ، وإثرَ فقدانه نعمة البصر دوّن عنه تلك النوازل . سماعاً . تلميذُه سيد المحفوظ من قصر أولاد أوشن . وكان يقول في آخر الفتوى [3] " وكتب ورّاق الشيخ محمد عُبيد ربّه تعالى محمد المحفوظ " وأشهر فتاواه جواب حول قضية حبس وقع فيها الاختلاف سمّاه " إفهام المقتبس في ثبوت التحبيس بخط المحبس " ، وقد شحذَ الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن عمر جوابه بنصوص علماء المذهب من قول مالك وأصحابه إلى المتأخرين كالزرقاني وغيره [4] .

د – نوازل عبد الله بن أبي مدين التمنطيطي (ت 1231هـ / 1816م) : جمع هذه النوازل من جملةِ أسئلة راسل بها العلماء في توات وسجلماسة وتافيلالت . فجمع تلك الأجوبة في كتاب خاص ، وطعّمها بأجوبة شيوخه : سيدي محمد بن عبد الرحمن التنلاني وسيدي محمد بن العالم الزجلاوي وسيد الحاج البلبالي واختار منها النوازل التي لم يقع النص فيها ، أو وقع ولم يطّلع عليه إلاّ المتمرّس من الفقهاء . ثمّ جاء من بعده الشيخ محمد بن أحمد بن سيد المحضي بن عبد الكريم بن البكري فرتّب ذلك الكتاب ونقّحه ، مبتدئاً النوازل بمسائل الطهارة والصلاة والزكاة والنكاح ، ثم مسائل البيوع وما شاكلها من بيع فاسد وسلم ثم مسائل الضمان والحجر والوديعة والصلح والإقرار والمساقاة والقسمة والشفعة والضرر ...الخ [5] .

هـ – نوازل الجنتوري [6] : ارتبطت شهرة الشيخ الجنتوري بالنوازل الفقهية التي ألّفها ، والتي جمعها ورتبها تلميذه القاضي محمد بن أحمد بن عبد العزيز المسعدي الجراري ، نزولاً عند رغبة بعض الإخوان ، جاعِلاً كلّ مسائل منها على حدتها ، فقام بذالك مقدّما باب الشهادات والقضاء ، ثم أبواب البيوع و ما شابهها ثم أبواب الأنكحة ، ثم مسائل الأحباس ... وسمّاها " النسرين الفائح النسيم في بعض فتاوى أبي زيد عبد الرحمن بن إبراهيم " . والكتاب يتضمن أجوبة الفقيه المذكور ومراسلاته العلمية وآراءَه الفقهية ، مدعّمـــــة

---

[1] – عبد السلام بلعالم الأسمر ، المرجع السابق ، ص 25 .

[2] – توجد نسخة منها بخط واضح في خزانة الشيخ سيدي عبد الله البلبالي ، كوسام ، أدرار .

[3] – محمد عبد العزيز سيد عمر ، قطف الزهرات من أخبار علماء توات ، ط 2 ، الجزائر : دار هومة ، 2002 م ، ص 103 .

[4] – عبد السلام بلعالم الأسمر ، المرجع السابق ، ص 26 .

[5] – المرجع نفسه ، ص 27 .

[6] – وقفتُ على نسخٍ مخطوطِها من مصادر وخزانات متعددة ، أهمّها : خزانة با عبد الله بأدرار ، الخزانة البكرية بتمنطيط ، خزانة بادريان بتيميمون ، وقد اعتمدتُ في هذه الدراسة على نسخة خزانة با عبد الله الواضحة .

بالأدلة من مصادر الفقه المالكي ، وقلّما تخلو الفتوى من الإشارة إلى ذلك المذهب على غِرار : " وهذا خلاف المذهب " أو " فمذهب مالك المنع " أو " لأن هذا القول قديم في المذهب " أو " فإنّ المذهب نصّ على "...الخ ، ولعلّ هذه النوازل جُمعت بعد نوازل الزجلاوي التي تضمّنت بدورها فتاوى للشيخ الجنتوري ، وقد وردت الإشارة إلى ذلك في السياق التالي [1] " ومن نوازل الزجلوي ما نصه وسئل الكنتوري فيمن مات وترك ورثة وعليه دَين.." .

03- أهمية نوازل الجنتوري وقيمتها :

ممّا يميّز الفقه المالكي حسن التعامل مع المستجدّات والنوازل وتقليب النظر فيها ، وتحكيم الشرع عن طريق استعمال أدوات الاجتهاد التي تجعل الشريعة مرنة تواكب التطورات والمتغيرات . وتلك التطورات سمةٌ ظاهرة في البيئة التواتية ، فقد جاءت نوازل الجنتوري لتضع حلاّ للمنازعات الناشئة بين الأفراد المتعلقة بالمستجدّات الاجتماعية والاقتصادية والفقهية [2] ، وتُسهِم في تنشيط الحياة العلمية والثقافية بالمنطقة ، وتعبّر بصدق ووضوح عن واقع الحياة اليومية في المجتمع التواتي .

وقد دعّم الشيخ الجنتوري نوازله [3] بإشارات لطيفة إلى نوازل سابقة مثل : فتاوى ابن أبي زيد القيرواني (ت 386هـ / 996م) وفتاوى اللخمي (ت 478هـ / 1085م) وفتاوى ابن رشد (ت 520هـ / 1126م) وفتاوى المازري (ت 536هـ / 1142م) ونوازل العبدوسي (ت 849هـ / 1445م) ونوازل الجزولي (ت 932هـ / 1526م) والدرر المكنونة في نوازل مازونة للمازوني يحي بن موسى بن عيسى المغيلي (ت 883هـ / 1478م) ونوازل ابن هلال (ت 903هـ / 1498م) والمعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء أفريقية والأندلس والمغرب لأبي العباس أحمد بن يحي الونشريسي (ت 914هـ / 1508م) ، ممّا أضفى عليها جانباً كبيراً من القبول لدى العام والخاص .

وكان الشيخ الجنتوري لا يقف موقفاً متحجّراً من النصوص ، بل يُخضعها إلى النازلة وينظر مدى اشتمالها على شرط ذلك النص وعلّته ، فهو القائل [4] " ولا ينبغي للمفتي الوقوف مع النصوص ، فلا بدّ أن ينظر في النازلة وهل اشتملت على شرط ذلك النص وعلّته أم لا ، وهل انتفى مانعه أم لا ، إذْ لكلِّ شرط نص وسبب ومانع ، وكل نازلة كذلك ، فإذا وُجدت في النازلة شروط النص وأسبابه وانتفت موانعه

---

[1]- عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 75 .

[2]- رشيد بلّيل ، المرجع السابق ، ص 65 .

[3]- اعتمدتُ في مراحل الدراسة على نسخة مخطوط النوازل الموجودة بخزانة باعبد الله ، نظراً لوضوحها وسهولة قراءتها ، أمّا نسخة خزانة بن عبد الكبير بالمطارفة فقد وظّفتها في حالات نادرة ، لذلك ميّزتها بـ " النسخة ب " .

[4]- عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 101 .

كان الحكم بذلك على بصيرة ، وإلاّ كان كالخابط عشواء " . فهذه النوازل بحق . فضلاً عن كونها نموذجا فقهياً يُساير شؤون الفقه والعبادة [1] . مرآة عاكسة للأوضاع الاجتماعية السائدة خلال القرن 12 هـ ، وصورة صادقة معبّرة عن الجوانب الثقافية للمنطقة وانعكاساتها البينية ، وعلاقاتها العلمية مع الحواضر الأخرى في الشمال والجنوب ومدى التأثيرات المتبادلة فيما بينها .

ومن المفيد . في الأخير . أنْ أنقلَ شهادة جامع هذه النوازل محمد بن أحمد بن عبد العزيز المسعدي ، فهو الذي طاف في جوانبها واستقرأ عناصرها واستنطق مكنوناتها ، إذ يقول [2] " وله فتاوى على الأسئلة لا تعدّ ولا تحصى ، ولو استقصى ذلك ليأتي أكثر من نوازل المعيار (نوازل الونشريسي) . وفيها تحقيق وبيان ولا يكاد القاضي والمفتي يستغني عنها ، ولا يجحد العلم الذي فيها إلا حاسد أو جهول ، لِما فيها من البيان والتحقيق والتدقيق والاقتصار على المشهور والترجيح وما به الفتوى " .

[1]– من أمثلة ذلك سؤال حول من سمع الجنة في صلاته فسألها ، أو النار فاستعاذ منها ، أو سمع قوله تعالى " أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى " فقال بلى الله على كلّ شيء قدير ، أو سمع قوله تعالى " أليس الله بأحكم الحاكمين " فقال بلى وأنا على ذلك من الشاهدين فأجاب الشيخ الجنتوري " لم يلزمه شيء من ذلك الكلام " . ولعلّ ذلك ما يفسّر استمرار أمثال تلك العادات الدينية في المساجد التواتية إلى يومنا هذا ، خاصة في مجالس التلاوة الجماعية للقرآن الكريم .

يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 136 .

[2]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، النسخة ب ، ص 02 .

خلاصة الفصل الثاني

ما يمكن استنتاجه من خلال مباحث الفصل الثاني سابقةِ العرض ، هو تميّز عصر الشيخ الجنتوري من النواحي السياسية والاقتصادية والأمنية ، وتنامي ظاهرتين سلبيتين تصدا لهما العلماء والفقهاء بشدّة ، وهما إغارة القبائل بعضها على بعض ، وشيوع فتنة " يحمد وسفيان " ، ممّا دفع بأهل الحل والعقد إلى تبني نظام إداري اجتماعي صارم ، قائم على الانخراط في صفوف الجماعة التواتية ، والإذعان إلى أحكامها وضوابطها ، خاصة في ظلّ الميل نحو إثبات الذات والخصوصيات والاستقلال عن التأثيرات الخارجية .

ويعتبر الشيخ عبد الرحمن الجنتوري (ت 1160 هـ / 1747 م) من العلماء الأشداء الذين انبروا للدفاع عن محارم الدين ، وحفظ الحقوق الفردية والجماعية بلسانه وقلمه ، مستفيداً من الحركة العلمية والفكرية المنبعثة ومن الشيوخ الأجلاء التواتيين والمغاربة . فكان بحق العالم المصلح المجدّد الصارم ، الذي لا تأخذه في الله لومة لائم ، وقد شهد له بذلك خصومه قبل أتباعه ، وأصبح إثر ذلك المرجع الفقهي الرئيس في توات ، ومقصد المظلومين المشتكين من استبداد الولاة وحيف القضاة ، دون إغفالٍ للجانب الإبداعي لدى الشيخ ، المتمثل في التصانيف المتنوعة نظماً ونثراً ، حيث ألّف في التوحيد والفلك والمنطق والتصوف والكلام ، بينما طغى الفقه من خلال الفتاوى والنوازل الشهيرة المنسوبة إليه .

ويُستنتج من خلال ذلك التوجه الفقهي مدى التزام التواتيين بأحكام الدين ، وحرصهم على الفتوى الشرعية ممّن هو أهل لها ، في كلّ ما يتعلّق بحياتهم وعاداتهم وممارساتهم . وتلك سمة صبغت القرن 12 هـ بصبغة خاصة ، حيث سادت كتب النوازل ، وأهمها : نوازل الجنتوري ونوازل الزجلوي ونوازل الغنية للبلبالي وتشترك تلك النوازل كلّها في كونها حفظت صوراً متعددة من حياة الإنسان التواتي وعلاقاته الناشئة ضمن مجتمعه المحلي ومحيطه الإقليمي .

الفصل الثالث

مظاهر الحياة الاجتماعية في القرن 12 هـ

– تمهيد

المبحث الأول : المجتمع التواتي المكوّنات والعلاقات

يتناول هذا المبحث المكوّنات العرقية المشكِّلة للمجتمع التواتي ، وظروف انصهارها في بوتقته ، والتباين الطبقي الملحوظ ـ رغم ذلك ـ وأسبابه ، وطبيعة العلاقات العائلية من خلال النوازل ، ومظاهر التعاون والتضامن بين أفراد العائلة ومن ثَمَّ المجتمع ، بالإضافة إلى شيوع الأحباس (الأوقاف) ودورها في تجسيد التكافل الاجتماعي ، كما يرصد هذا المبحث نماذج عن العادات والتقاليد والأعراف السائدة خلال تلك الفترة ، مع الإشارة إلى بعض العادات السلبية والآفات الاجتماعية التي لم يسلم منها المجتمع التواتي .

المبحث الثاني : المرأة التواتية ومكانتها في الأسرة والمجتمع

يعكس هذا المبحث حقيقة أحوال المرأة التواتية من خلال ما تضمنته النوازل ، وبصفة خاصة نوازل النكاح والطلاق ، ويبيّن الحقوق التي اكتسبتها وتمتعت بها ، ومكانتها داخل الأسرة ، ودورها الإيجابي الفعّال في المجتمع ، بالإضافة إلى أهمّ المشاكل الأسرية التي واجهتها أو كانت طرفاً فيها ، وجملة من المفاسد الخُلقية التي طبعتْ تصرفات بعض النسوة .

المبحث الثالث : القضاء نظامه وقضاياه

يتناول هذا المبحث الأخير النظام القضائي القائم في توات خلال تلك الفترة ، وطريقة تنصيب القضاة وما يُشترط في ذلك ، وجملة من الاختصاصات والممارسات التي بُني عليها هذا النظام ، ويُترجم لأشهر القضاة المعاصرين للشيخ الجنتوري ، وبخاصةٍ مَن وردت أسماؤهم في ثنايا النوازل ، كما يعرض المبحث نماذج عن القضايا المعروضة للنظر والفصل ، والمآخذ التي سجّلها الشيخ الجنتوري على قضاة زمانه .

– خلاصة الفصل

الفصل الثالث : مظاهر الحياة الاجتماعية في القرن 12 هـ

كنتُ قد أشرتُ في الفصل الثاني إلى الميزات التي صبغت عصر العالِم الشيخ عبد الرحمن الجنتوري . هذا العَلمُ الذي كثُر شاكِروه وقلّ شاكوه ، فجادت قريحته بمؤلَّف ثمين رصدَ تجلّيات الإنسان التواتي في معطياتها الدينية والحضارية والاجتماعية والاقتصادية .

ونحن مَدينون لهذا الشيخ وأمثاله ، إذ تمكنّا بفضل آثارهم . ومنها هذه النوازل . من رسم صورة تكاد تكون واضحة المعالم للواقع التواتي معطىً ثقافياً وحِراكاً اجتماعياً ، صورة سأحاول تجزئتها على مباحث هذا الفصل والفصل الذي يليه . بدءاً بمكوّنات المجتمع والعلاقة الترابطية الناشئة فيما بينها ، والعادات والسلوكيات السائدة إثرها سلباً وإيجاباً ، مروراً بمكانة المرأة التواتية ومدى فعاليتها في المجتمع ، وهل نجحت في كسر القيود التقليدية ؟ وتخطّي الصور النمطية ؟ أم أنّها ظلّت رهينة الطبائع البدوية والنظرات الدونية ، عاجزة عن إثبات وجودها . وأخيراً أتطرّق إلى القضاء الذي كان محلّ نقدٍ دائم من قِبل الشيخ الجنتوري ، في تحليلٍ لنظامه ورصدٍ لمآثر أعلامه وقضاياه ، واستقراءٍ للمآخذ المسجّلة على القضاة التواتيين .

المبحث الأول : المجتمع التواتي المكوّنات والعلاقات

01 – مكوّنات المجتمع وطبقاته :

يؤكّد الشيخ عبد الرحمن الجنتوري في نوازله ما ذهب إليه العديد من المؤرّخين المتقدمين والمتأّخرين حول تنوّع المجتمع التواتي ، وتباين الفئات المكوّنة له ، وتشير النوازل إلى تعايش خمسة أجناس رئيسية هي :

أ – البربر : عبّر عنهم الشيخ الجنتوري بالعجم [1] ، والفرع الغالب على القبائل البربرية التي توافدت على الإقليم التواتي هم الزناتيون ، الذين اشتكى الجنتوري من قلة استيعاب طلبتهم في فصول التدريس ، لغلبة العجمة عليهم [2] . ومعظم القبائل الزناتية استوطنت منطقة تيكورارين [3] ، لقربها من الجهات الشمالية التي اضطرت للهجرة منها بعدما دالت عليها الأيام [4] .

---

[1]– عبد الرحمن الجنتوري ، نوازل الجنتوري ، ص 91 .

[2]– عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، المصدر السابق ، ص 125 .

[3]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 91 .

[4]– تمّ توافد القبائل الزناتية من مغراوة وبني يفرن على توات بصفة تدريجية منذ القرن السادس الهجري ، بعد أن تغلّبت خصومها من قبائل لمتونة على بلاد المغرب ، وكان نزوحهم إلى توات على النحو التالي : أولاد بن عبد الجليل عام 501 هـ ، أولاد عيّاش عام 502 هـ ، أولاد خير الله عام 516 هـ ، أولاد واعلي البلبالي عام 518 هـ ، أولاد بن يدّر 520 هـ ، أولاد أحسين عام 528 هـ ، أولاد بن سليمان عام 531 هـ ، قبيلة ذكوان عام 536 هـ ، الشرفاء الحموديون عام 550 هـ ، أولاد أحمد عزي عام 608 هـ ، أولاد عبو عام 609 هـ ، أولاد الصابون عام 640 هـ ، أولاد عليش عام 650 هـ ، أولاد عثمان عام 668 هـ ، أولاد علي عام 673 هـ ، المحاجيب عام 675 هـ ، قبيلة أخروم عام 698 هـ . يُنظر : محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق التمنطيطي ، المصدر السابق ، ص 07 .

وكان ابن خلدون (ت 808هـ / 1406م) قد تحدّث عن الوجود البربري الزناتي في قصور تيكورارين خاصة والظروف التي أملَته ، مبيّناً البطون الزناتية التي ينتمون إليها في قوله [1] " وأكثر سكان هذه القصور الغربية في الصحراء بنو يامدس ، ومعهم من سائر قبائل البربر مثل ورتطغير ومصاب وبني عبد الواد وبني مرين ، وهم أهل عدد وعدّة وبُعدٍ عن هضمة الأحكام وذلّ المغارم ، وفيهم الرجّالة والخيّالة وأكثر معاشهم من بلح النخل " . وقد أقامت هذه القبائل الزناتية . في بادئ الأمر . مخيّمات وأطواقاً من الحجارة لتخزين الأملاك وحفظ الماشية تُعرف بتاقرارت ، فاشتُقّت منها تسمية تيكورارين الدّالة على المنطقة [2] ، غير أنّ تواجدها تعدّى . لاحقاً . حدود تلك المنطقة ، فأنشأت قصورا زناتية عبر أرجاء منطقتي توات الوسطى وتيدكلت . إذ يُشير الشيخ الجنتوري في إحدى نوازله إلى وجود بعض العجم في عين صالح [3] ، ولا تزال أسماء جلّ القصور كما هي رغم انحسار ذلك المدّ الزناتي عنها [4] .

ب – العرب : وهم المكوّن الثاني من مكوّنات المجتمع التواتي بعد البربر ، كما هي الحال بالنسبة للمجتمعات المغاربية قاطبة . وقد أشار الشيخ الجنتوري في نوازله إلى عديدِ القبائل العربية التي استوطنت توات وما جاورها ، أحياناً بِلَفظ العرب المطلق ، كالعرب الذين يحلّون ضيوفاً على أهل تيكورارين [5] ، أو العرب الذين يشترون التمور من القرى القرارية [6] ، وأحايين أخرى بالإشارة إلى قبائل عربية بعينها مثل قبيلة الخنافسة [7] ، التي توزّع أفرادها على قصور أوقروت وتيميمون [8] ، أو المحارزة عرب تينركوك [9] ، أو القبائل ذات الحضور الموسمي في توات ، مثل الغنائمة الذين وردَ ذكرهم في النوازل على أنّهم كانوا أهل سطوة وقوة ، يتحالفون مع بعض القبائل المحلية ضد أخرى ، أو يستقوي بهم بعض الأفراد في خلافاتهم البينية [10] ،

---

[1]– عبد الرحمن ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج 07 ، ص 77 .

[2]– رشيد بلّيل ، المرجع السابق ، ص 37 .

[3]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 105 .

[4]– للإطّلاع على أسماء تلك القصور الزناتية ومعانيها يُنظر : محمد باي بلعالم ، المرجع السابق ، ج 01 ، ص 11 . 24 .

[5]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 89 .

[6]– المصدر نفسه ، ص 29 .

[7]– عن الخنافسة ومضاربهم ، يُنظر . أيضاً . :

DAUMAS , Le Sahara Algérien études géographiques , statistiques et historiques , PARIS : Langlois et Leclercq , 1845 , p 287 .

[8]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 79 .

[9]– المصدر نفسه ، ص 91 .

[10]– المصدر نفسه ، ص 58 .

وذوي منيع الذين أشارت النوازل إلى عدائهم المستمّر للخنافسة وسلبهم إبلهم [1] . وغيرها من القبائل العربية التي توافدت على الإقليم في فترات زمنية متباعدة [2] ، قبل أن يتمكّن عرب المعقل [3] من بسط نفوذهم على المنطقة ، مستفيدين من تزايد أعدادهم وضعف سلطة دولة بني مرين [4] ، فـ [5] " أقام هؤلاء المعقل في القفار وتفرّدوا في البيداء ، فنموا نمواً لا كفاء له ، وزاحموا قبائل زناتة ، واستولوا على قصور توات وبودة وتمنطيط وتسابيت ، وحازوا تلك الأوطان في مجالاتهم ، ووضعوا عليها الأتوات والضرائب ، وصارت لهم جباية يعتدون فيها ملكاً " .

ج – البرامكة : وأصلهم من الفُرس العجم الذين أشارت إليهم النوازل [6] ، أصبحوا من العناصر الفاعلة الهامّة في المجتمع التواتي ، منذ استقرارهم بالبلاد التواتية سنة 656 هـ [7] . وهُم مَن ناصرَ المغيلي (ت 909هـ / 1503م) على خصومه بعد طرده اليهود من توات ، وهم من أنزله بزاويته بقصر بوعلي في توات الوسطى . ويتجلّى حضور هذا العنصر البرمكي بوضوح من خلال الانتساب كنيةً أو لقباً [8] ، دون وجود خصائص عِرقية أو لغوية مميّزة عازلة عن بقية الفئات ، فقد اندمجت معها تواصلاً ومصاهرة .

د – الأفارقة : استقبل المجتمع التواتي أعداداً لا بأس بها من الأفارقة السود ، من بلاد السودان ، وقد عبّرت عنهم النوازل وعن علاقاتهم بالسكان الآخرين باسم " العبيد " [9] . ووجود هذا المكوّن بالإقليم

---

[1]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 79 .

[2]– يفصّل البكري التمنطيطي ذلك التوافد العربي على النحو التالي " ونزلت عليهم [أي على زناتة] العربُ أفواجاً أفواجاً في أزمان متباعدة : أولاد محمد والخنافسة والمحارزة وأولاد طلحة وأولاد اعيش وأولاد بحم وأولاد عمر ملوك وأولاد املوك وأولاد غانم وأولاد ريم وأولاد أحريز وأولاد منصور وكافة أقدوع وأولاد زنان ، وغيرهم من عرب المعقل كأولاد الحاج وأولاد عايد ، وغيرهم ممن نزل بها من عرب الساحل " يُنظر : محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق التمنطيطي ، المصدر السابق ، ص 08 .

[3]– **عرب المعقل** من العرب اليمنية القحطانية ، نسبة إلى معقل بن الحارث ، كانوا في القرن الثامن الهجري من أوفر قبائل العرب ، ومواطنهم بالمغربين الأوسط والأقصى ، مجاورين لبني عامر من زغبة بقبلة تلمسان ، وهم ثلاثة بطون : ذوي عبيد الله الذين كانوا ينتهون في رحلاتهم إلى قصور توات وتمنطيط ، وذوي منصور وذوي حسان .

يُنظر : عمر رضا كحّالة ، المرجع السابق ، ج 03 ، ص 1123 / عبد الرحمن بن خلدون ، المصدر السابق ، ج 06 ، ص 80 .

[4]– فرج محمود فرج ، المرجع السابق ، ص 33 .

[5]– عبد الرحمن ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج 06 ، ص 78 .

[6]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 91 .

[7]– محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق التمنطيطي ، المصدر السابق ، ص 07 .

[8]– لا تزال رمزية الانتساب إلى العائلة البرمكية ظاهرة قائمة إلى يومنا هذا في قصور توات على غرار : آل برماكي في آولف وأبناء الحاج المختار البرمكي في سالي وبرامكة بوعلي..الخ .

[9]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 104 .

نتيجة حتمية لِما بيّناه . سابقاً . من علاقات تجارية نشيطة ببلاد السودان ، وطبيعة السلع والبضائع التي كان يتمّ تبادلها بين الصقعين . وقد سَرَت عادة جلب الأفارقة الزنوج إلى توات والمغرب واسترقاقهم واشتدت منذ سيطرة المنصور الذهبي على بلاد السودان سنة 999هـ / 1591م ، بعد أن مهّد لذلك بالاستيلاء على تيكورارين وتوات ، وصحبَ الجيش السعدي معه أثناء عودته أعداداً كبيرة من الرقيق [1] .

هـ – اليهود : لم يعد اليهود مكوّناً فاعلاً قائماً بذاته خلال القرن 12 هـ ، إذْ تمّ جلاؤهم وهدمُ بِيَعهم في تمنطيط سنة 897هـ / 1492م ، على يد المصلح الديني الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي [2] . ورغم ذلك فقد ظلّ أثرهم شائعاً في المجتمع التواتي قدحاً وتشنيعاً ، إذ تشير النوازل إلى اقتران لفظ اليهودي بمعاني السّب والشتم ، ومن أمثلة ذلك استفسار الشيخ الجنتوري عن شخص كان يشتم آخر ويقذفه ويقذف جدّه ، ويقول له " يا يهودي " [3] ، ممّا يبيّن استذكار التواتيين الدائم لِماضي هذه الفئة المقيت بالمنطقة ، وحرصهم على البراءة من سلوكياتهم وممارساتهم .

ورغم تمسّك المجتمع التواتي بالدين الإسلامي وتعاليمه السمحة ، وحرصه على تأكيد مظاهر التماسك ومعاني المساواة ، والتحام البطون العربية بالبطون البربرية وامتزاجها بالمصاهرة والجوار مع مرور الزمن ، إلاّ أننا نلمس من خلال النوازل تفاوتاً اجتماعياً معيشياً ، تُترجمه الكنى والألقاب التي توسمُ بها كلّ شريحة ، وتتميّز بها عن غيرها ، فتجزّأت بذلك الجماعة التواتية إلى أربع شرائح أو فئات متباينة هي :

أ – فئة الأشراف : تأتي في قمّة الهرم البنيوي للمجتمع ، وتحظى باحترام وتقدير الجميع بمن فيهم العلماء ولا أدلّ على ذلك توقيع الشيخ الجنتوري في كثير من فتاواه بصفته خديماً للأشراف أو باللفظ الذي عبّر به

---

[1] – محمد رزوق ، المرجع السابق ، ص 15 .

[2] – للإطّلاع على حياة الشيخ المغيلي وقصّته مع يهود توات وما أحاط بها من جدلٍ فقهي واجتماعي يُنظر :
أحمد بابا التنبكتي ، نيل الابتهاج بتطريز الدّيباج ، تقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة ، ط 1 ، طرابلس : منشورات كلية الدعوة الاسلامية ، 1989م ، ص 576 / العباس بن إبراهيم السملالي ، الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام ، مراجعة عبد الوهاب ابن منصور ، ط 2 ، الرباط : المطبعة الملكية ، 1993م ، ج 5 ، ص 106 / محمد بن محمد بن أحمد (ابن أبي مريم التلمساني) ، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ، مراجعة : محمد ابن أبي شنب ، الجزائر : المطبعة الثعالبية ، 1908م ، ص 253 / أبو القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف ، الجزائر : مطبعة بيير فونتانة الشرقية ، 1906م ،ج 1 ، ص 166 / محمد حجي ، موسوعة أعلام المغرب ج 2 ، ص 816 / محمد بن عسكر الشفشاوني ، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر ، تحقيق : محمد حجي ، ط 2 ، الرباط : مطبوعات دار المغرب ، 1977م ، ص 130 / محمد بن محمد مخلوف ، شجرة النور الزكية ، ص 274 / خير الدين الزركلي ، الأعلام ، ج 6 ، ص 216 / أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ط 1 ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، 1998م ، ج 1 ، ص 53 / عبد الرحمن الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، ط 7 ، الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية ، 1994م ، ج 3 ، ص 71 / محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق التمنطيطي ، المصدر السابق ، ص 19 / أحمد الحمدي ، المرجع السابق ، المذكرة كلّها .

[3] – عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 90 .

عن نفسه وهو " خديم الشريف " [1] . والسرّ في تبجيل التواتيين للأشراف وإحاطتهم بجانبٍ من التعظيم والتقديس إنما يعود لحبّهم الجمّ للرسول . صلى الله عليه وسلّم . واعتقادهم فيه وفي كلّ من ينتسب إليه تيمّنا وبرَكة ، ومنهم هذه الفئة . ويُسبَق اسمُ الشريف غالباً . بناءً على بعض ما ورد في النوازل . بـ "سيدي" أو "مولاي" أو " مولانا " بالنسبة للرجل ، مثل مولاي عبد المالك [2] ، و" لالة " بالنسبة للمرأة الشريفة ، على شاكلة لالة صفية [3] .

وقد وفَدَ معظم الأشراف إلى توات من شمال بلاد المغرب . وكانت غالبيتهم تملك الحدائق والبساتين التي يعمل فيها العبيد والجواري ، وكان لهم نفوذ وسلطة قوية بصفتهم حُماة الدين من نسل الرسول . صلى الله عليه وسلّم . [4] ، فأصبح بعضهم بفضل ذلك من القيّاد الحكّام المحليين ، ممّا منحهم امتيازات جمّة منها الإعفاء من دفع الوظيف وتحرّر عوائلهم من ذلك كما يُستدلّ من إحدى النوازل [5] .

ب – فئة الأحرار : تتحدّث نوازل الشيخ الجنتوري في غيرِ ما موضع عن طبقة الأحرار ، منها ما يدلّ على حظوةِ هذه الطبقة ومكانتها على غرار الأشراف [6] . وقد استهجن الشيخ الجنتوري في إحدى فتاواه ممارسات الأحرار اتجاه طبقة أخرى قائلاً [7] " فعلم مما تقدم أن الأحرار الذين لا مزيّة لهم على الحراطين ، عاملون على غير السنة وقد أماتوها ، مستمسكون بالبدعة فأحيوها " .

ويمثّل المرابطون [8] الأغلبية في طبقة الأحرار ، ولا يُقصد بهذا الاسم المعنى المعهود للرباط وما يُشتقّ منه بقدر ما يُقصد به السلالات المنحدرة من أصول الصحابة . رضوان الله عليهم . كذرية أبي بكر الصديق وعمر بن الخطّاب وعثمان بن عفان وآل كنتة ذرية الفاتح العظيم عقبة بن نافع الفهري وغيرهم ، وذلك الانتساب الكبير لطبقة الأحرار جعلها تشمل غالبية سكان توات [9] .

ج – فئة الحراطين : لعلّ هذا اللفظ مرتبط بسنوات الاستقطاب المغربي لتوات ، ومحاولات إيجاد تماثل اجتماعي ، حيث ذكر صاحب الاستقصا أنّ السلطان المغربي العلوي مولاي إسماعيل جلبَ معه من

---

[1]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 06 .

[2]– المصدر نفسه ، ص 34 .

[3]– المصدر نفسه ، ص 99 .

[4]– فرج محمود فرج ، المرجع السابق ، ص 34 .

[5]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 98 .

[6]– المصدر نفسه ، ص 11 .

[7]– المصدر نفسه ، ص 11 .

[8]– المصدر نفسه ، ص 18 .

[9]– فرج محمود فرج ، المرجع السابق ، ص 34 .

السودان سنة 1089هـ / 1678م ألفين من الحراطين بأولادهم ، فكساهم بمراكش وسلّحهم [1] ، ومن ثمَّ شاع هذا اللفظ في المغرب الأقصى ووصل توات ، بفعلِ التأثيرات الثقافية والاجتماعية المتبادلة بين حواضر المغرب وتوات . أمّا عن معناه فيقول الناصري [2] " واعلم أنه قد وقع في هذه الأزمان لفظ الحرطاني ، ومعناه في عُرف أهل المغرب العتيق ، وأصله الحرّ الثاني ، كأن الحرَّ الأصلي حرّ أول وهذا العتيق حرّ ثانٍ ، ثم كثُر استعماله على الألسنة فقيل الحرطاني على ضرب من التخفيف " .

ويدلّ تنوّع النوازل المتعلقة بهذه الطبقة على كثرة تعدادها ، وحركيتها في المجتمع التواتي ، ممّا جعل وجودها مثار إشكاليات فقهية دائمة . من ذلك ما أشارت إليه إحدى النوازل وهو [3] " أنّ الحراطين في توات إذا أراد أحد منهم أن يعقد على ابنته ، يمتنع سيدهم كلّ الامتناع ، حتى يقبض عدداً يسمّى في عُرفهم باللحم ، فمن أنفَ من ذلك وأبى عاقبه سيّده وأكرهه على دفعه ، وربما أدى ذلك إلى ضربه ومنع التزويج " . وتلك نازلة تحيلنا إلى تصوّر جانبٍ من العلاقات الاجتماعية بين الفئات المختلفة وارتباطها بالتأصيل الديني ، فحين احتجّ السائل بالعُرف السائد في تلك العلاقة أفتى الجنتوري قائلاً [4] " وأمّا دعواهم العرف فدعوى واهية ، لأنه أحلَّ حراماً وهو أكل مال الغير عن غير طيب نفس " ، وفي نازلة أخرى أفتى الشيخ الجنتوري بعدم جواز ولاية الأحرار في عقود التزويج إذا وُجِد أحد من عمود الحراطين [5] .

وبينما اشتدّ الجدل في المرجعيات المحلية التواتية ، الدينية منها والاجتماعية والفكرية ، حول أصول هذه الفئة [6] والاختصاصات المترتّبة عنها ، جنَحَتْ بعض الآراء إلى أنّ نواةَ الحراطين وأساسَهم هي طبقة المولّدين من الجواري ، الذين ازدادت أعدادهم ، فشكّلوا ثالث الطبقات التواتية ، أي بعد الأحرار . ونظراً لأن مكانتهم الاجتماعية كانت أقلّ من مكانة الطبقتين السابقتين بحكم مولدهم ، فإن فرص أداء عمل أو

---

[1]- أبو العباس أحمد الناصري ، المصدر السابق ، ج 07 ، ص 58 .

[2]- المصدر نفسه ، ج 07 ، ص 58 .

[3]- عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 10 .

[4]- المصدر نفسه ، ص 11 .

[5]- المصدر نفسه ، ص 11 .

[6]- هناك تأصيل آخر للفظ الحراطين ، وهو أنّه مشتق من الحرّاثين أي الذين يتعاطون الحرث والزراعة على نمط الخماسة . وهم " فئة ملوّنة تميل بشرتها إلى السواد ، بقايا الأجناس البشرية الإفريقية القديمة ، من الجيتول أو النوميديين أو الأثيوبيين ، شكّلت على مدار الأزمان عصبَ الحياة الاقتصادية في جنوب المغرب " .

يُنظر : لحسن تاوشيخت ، سجلماسة كمحطة للتواصل الحضاري بين ضفتي الصحراء ، أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء ، ط 1 ، مراجعة وتقديم : عبد الحميد عبد الله الهرّامة ، طرابلس : منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، 1999 م ، ص 226 .

نشاط بفعالية وتأثير كانت محدودة بالنسبة إليهم [1] .

د – فئة العبيد : يشكّل العبيد رابع الطبقات التواتية وأقلّها حظّاً ، لمْ يخلُ منهم قصر أو مدينة ، نظراً للأعمال التي كانوا يؤدّونها في مجالات الزراعة ورعي الحيوانات وحفر الفقاقير . ويرجع سببُ تكاثرهم بتوات إلى نموّ ظاهرة الاسترقاق من بلاد السودان [2] . وتشير إحدى نوازل الشيخ الجنتوري إلى أنّ تلك الظاهرة كانت تشمل النساء كما الرجال [3] ، فقد انتشرت ظاهرة المتاجرة في الجواري والإماء على وجه الخصوص ، وتباينت أسعارهن نقداً وذهباً [4] ، بلْ إنَّ بعضهن كنّ يُقايَضن بين الغرماء في مقابل الإعفاء من الدَّين [5] . ويُستنتج من تلك النوازل حجم الإشكاليات التي كان يطرحها وجود العبيد باستمرار ، ومنها مدى تبعية الأبناء لآبائهم في أداء مختلف الخدمات ، و هل عليهم الالتزام بالطاعة والإذعان للأسياد بعد تحرير رِقابهم كما جاء في نص النازلة التالية [6] " وسُئل الجنتوري عمّن أعتقَ عُبَيْده فأولاده له حراطين ، هل له جبرهم على الخدمة كأبيهم ، أم ليس له عليهم إلاّ الإحسان ، فأجاب وبعد فأولاد العُبيد الذي أعتقه كلّهم حراطين بالولاء ، وليس له عليهم إلاّ الإحسان ولا يجبرهم على الخدمة " .

وذلك ممّا يدلّ على تفرّد طبقة العبيد بالخدمة ، وتسخيرها في الأعمال الشاقة في البساتين والأسواق وداخل البيوت ، وامتهانها أشغالاً يأنفُ الآخرون من مزاولتها ، وكذا النظرة الدونية المسلّطة على هذه الفئة

---

[1]– فرج محمود فرج ، المرجع السابق ، ص 34 .

[2]– ألّف أحمد بابا التنبكتي (ت 1036هـ / 1627م) رسالة هامة في حكم تملّك العبيد السود الذين يتمّ جلبهم من بلاد السودان الغربي من البلاد التي تقرّر إسلام أهلها ، ردّاً على سؤالٍ وَرَدَ عليه من بلاد توات يستفسر عن ذلك ، سمّاها " الكشف والبيان بحكم مجلوب السودان " أو " معراج الصعود إلى نيل مُجلب السود " . وقد نقلَها الناصري (ت 1315هـ / 1897م) معقّباً " وبهذا يظهر لك شناعة ما عمّت به البلوى بلاد المغرب من لدن قديم ، من استرقاق أهل السودان مطلقاً ، وجلب القطائع الكثيرة منهم في كل سنة ، وبيعهم في أسواق المغرب حاضرة وبادية ، يسمسرون بها كما تسمسر الدواب بل أفحش ، قد تمالأ الناس على ذلك وتوالت عليه أجيالهم ، حتى صار كثير من العامة يفهمون أن موجب الاسترقاق شرعاً هو اسوداد اللون وكونه مجلوبا من تلك الناحية ، وهذا لَعَمرُ الله من أفحش المناكر وأعظمها في الدين ، إذ أهل السودان قوم مسلمون فلهم ما لنا وعليهم ما علينا " .
يُنظر : أحمد الناصري ، المصدر السابق ، ج 05 ، ص 131 .

[3]– جاء في إحدى النوازل " وسُئل عمّن زوّج أَمتَه من عبده من غير مهرٍ ولا إشهاد " .
يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 03 .

[4]– ذُكر في ثنايا إحدى النوازل أنّ رجلاً سلّم عشر ريالات في أَمَةٍ اشتراها ، ولم تَحضره الريالات في حينه فأعطى البائع صرفها ذهباً .
يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 23 .

[5]– المصدر نفسه ، ص 77 .

[6]– المصدر نفسه ، ص 104 .

من قِبَلِ المكوّنات الأخرى في المجتمع التواتي بصفة خاصة والمجتمع المغاربي بصفة عامة [1] .

02 – العلاقات العائلية :

تصوّر نوازل الجنتوري جانباً كبيراً من العلاقات البينية ، فيما بين أفراد العائلات التواتية ، ومدى الترابط السائد في أوساطها ، المبني على أسس دينية واجتماعية مُحافِظة ومتينة . فلا غروَ إذاً ولا عجب من أن تتعدّى تلك العناية الآباء إلى أحفادهم ، إذ تشير بعض النوازل إلى ظاهرة التصدّق على ولدِ الولد بعددٍ من حبّات الماء من نصيب الجدّ في الساقية [2] ، مع ما يمثّله تملّك الماء من جاهٍ وثراء في ذلك العهد . بل إن بعض التواتيين أوصى بثُلثِ مالِه لأولاد أولاده [3] ، وهو أقصى ما يمكن أن يوصَى به للورثة [4] .

ومن مظاهر الترابط الأسري أيضاً ما اعتادت عليه العديدُ من العوائل التواتية بعد وفاة مُعيلها ، إذ تركنُ إلى السكن تحت سقفِ بيتٍ واحد ، والعيش من سعيٍ مشترك [5] ، وفاءً لذكرى الوالد وبرّاً وصوناً للوالدة . ويعيش كثير من الإخوة في مثل تلك الحال تحت وصاية أخيهم الكبير ، الذي يتصرّف في ما كسبه من المال ، ويجعله بينهم إذا ترك أبوهم مالاً ، حتى يبيّن وجه اختصاصه [6] ، ويقوم الأخ الكبير في كثير من الأحيان مقام الأب في تسيير شؤون الأسرة ورعاية الأيتام الصغار مع حفظ الحقوق [7] .

على أنّ ذلك الوئام الأُسَري كانت تشوبه في بعض الأحايين مشكلات تعكّر صفوه ، ومعضلات تكاد تقوّض كيانه ، لولا محدودية تلك الحالات والممارسات السلبية من بعض الأفراد . ومنها ما أشارت إليه إحدى النوازل بخصوص رفض أحد الأبناء الوصاية الشرعية ، ورغبته الملحّة في الحصول على نصيبه

---

[1]– من شواهد تلك الممارسات اتجاه تلك الطبقة بالمدن المغربية الكبرى ما ذكره صاحب نشر المثاني (ضمن موسوعة أعلام المغرب) ، في حوادث عام 1125 هـ قائلاً "...وردَ على فاس زمام من مكناس بأحد وعشرين رجلاً من أهل فاس بأنّهم حراطين ، وفي عاشر ذي الحجة منه قدم القائد حمدون الروسي من مكناس لبيع دور الحراطين بفاس والأمر لله " .

يُنظر : محمد حجي ، موسوعة أعلام المغرب ، ج 05 ، ص 1946 .

[2]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 107 .

[3]– المصدر نفسه ، ص 93 .

[4]– وفقاً لِما جاء في الحديث الشريف الذي رواه البخاري في صحيحه ونصّه " حدثنا محمد بن عبد الرحيم حدثنا زكريا بن عدي حدثنا مروان عن هاشم بن هاشم عن عامر بن سعد عن أبيه رضي الله تعالى عنه قال مرضت فعادني النبي صلى الله عليه وسلم ، فقلت يا رسول الله ادعُ الله أن لا يردني على عقبي ، قال لعل الله يرفعك وينفع بك ناساً ، قلت أريد أن أوصي وإنما لي ابنة قلت أوصي بالنصف ، قال النصف كثير ، قلت فالثلث ، قال الثلث والثلث كثير أو كبير ، قال فأوصى الناس بالثلث فجاز ذلك لهم " . رواه البخاري .

[5]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 144 .

[6]– المصدر نفسه ، ص 35 .

[7]– تشير إحدى النوازل إلى طلب أحد الأشخاص من القاضي ألاّ يعيّن وصيّاً ولا مقدّما على أخيه اليتيم المهمَل ، وأنه عرض كفالته ثمّ حاسَبه . يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 98 .

الكامل من الميراث ، وقد استدعى ذلك الإصرار استخدامه العنف والترهيب ضدّ الوصي [1] . وتلي الخلافات العائلية المرتبطة بالميراث خلافاتٌ من نوع آخر متعلّقة بالاستغلال الزراعي للمياه والأراضي ، إذْ الغالب على النمط الزراعي بالمنطقة الأسلوب التقليدي البسيط ، القائم على العمل الأسري المشترك بين أفراد العائلة رجالاً ونساءً في الحرث والسقي والجني ، ممّا يتسبب في حدوث بعض الخلافات أحياناً [2] .

ونستدلّ من النوازل على حالات أخرى سلبية في العلاقات بين الآباء والأبناء ، ومنها أن يضطرّ بعض الآباء إلى الحجْر [3] على أولادهم ذكورهم وإناثهم حيث يجوز لهم الحجر عليهم ، ثمّ يخفون ذلك ، فيتصرف الأولاد فما ربحوا فيه لم يُظهروه ، وما خسروا فيه أظهروه [4] . وفي نازلة أخرى صورة سلبية نادرة الحدوث ، عن ولدٍ حاسَب أباه في خدمته له وفي طلوعه وهبوطه ، وترك رسمه لأن محاسبته إيّاهم ومحاسبتهم إيّاه خارجة عن مكارم الأخلاق ، والبادئ سيء الأخلاق وأظلم [5] . وتتمثّل حالة أخرى في علاقات الإخوة فيما بينهم خاصة بعد وفاة والدهم ، ومنازعتهم أخاهم الكبير بعضاً مما اكتسبه من أموال وأرزاق في حياة والدهم [6] .

03 – مظاهر التعاون والتضامن:

رغم أن الجماعة التواتية طبقية في تركيبها إلاّ أن روح التعاون والتضامن والمؤاخاة لا تعدم بِحال ، ويُعتبر العمل في إطار الجماعة من السِمات المميزة للمجتمع التواتي . وتُحيلنا النوازل إلى عشرات النماذج الدّالة على سيادة تلك القيم السامية ، منها التعاون على تزريب أطراف البلد من خلال وضع مصدّات

---

[1]– جاء في نص النازلة أنّ أحد الأغنياء أوصى على أولاده رجلاً ، ثم قام واحد منهم وأتى بلصوص من الغنائمة ليدفع له نصيبه ، فدفعه له خوفاً منهم أن يؤذوه إن وجدوه في غير بلده ، لأنهم لا قدرة لهم عليه في بلده .

يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 58 .

[2]– من أمثلة ذلك ما تضمنته إحدى النوازل من أنّ أخوَين كانا مشتركين في ساقية واحدة ، وأراد أحدهما صرف نصيبه من الماء إلى جنانٍ (بستان) خاص به من تلك الساقية ، فمنعَه شريكُه مدّعياً أن نزع الماء يضرّ في نخله وزرعه .

يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 41 .

[3]– **الحَجْرُ** بمعنى المنع ، مصدر حَجَر عليه أي منعه من التصرف في ماله ، ومنه حَجْرُ القاضي على السفيه إذا منعه من التصرّف في ماله .

يُنظر : ابن منظور ، المرجع السابق ، حجر ، ص 782 .

[4]– عقّب الشيخ الجنتوري على تلك النازلة بالقول أنّ ذلك التصرف . من الآباء والأبناء . وسيلة إلى إتلاف أموال المسلمين .

يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 36 .

[5]– المصدر نفسه ، ص 54 .

[6]– جاء في إحدى النوازل احتجاج بعض الإخوة على أخيهم بسبب ما تملّكه من أرزاق في حياة والدهم ، وما اشتراه من غلّة حبسهِم . وبعد عرض قضيتهم على الشيخ الجنتوري أفتى بأنْ لا كلامَ لهم إلاّ فيما اشترى من غلّة حبسهم ، ولا شيء لهم في الأولى .

يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 35 .

تحُول دون زحف الرمال على بيوتهم ، ومشاركتهم جميعاً بصورة تلقائية في إصلاح قنطرة تهدّم بعضها [1] ، والدعوة إلى عقد اجتماعات تضمّ أعيان القصر ، كلما دعت الضرورات إلى ذلك [2] .

وبما أنّ الزراعة هي النشاط الاقتصادي الرئيس لسكان توات ومصدر دخْلهم ومعيشتهم ، فقد حرصوا كلّ الحرص على تأمين مواردها والمحافظة على وسائلها ، من خلال خدمة الفقارة والسواقي وتنقيتهما من الرمال باستمرار . وتبيّن إحدى النوازل اهتداء التواتيين إلى طريقة جديدة في خدمة الفقارة وهي أن يقوم فريق من المشتركين في ملكيتها باستئجار الفريق الآخر على خدمتها وترميمها مقابل نصف الماء المترتّب عن تلك العملية [3] . وممّا جرى به العُرف في القرى القرارية بهذا الخصوص أن يساهم كلّ من اشترى شيئاً من ماء فقاقيرها بما لزمه في جملة أهل الفقارة ، سواء أَجْراهُ لبلده أو تركه فيها [4] . وفي نازلة أخرى نتلمّس حرصهم الكبير على المزاوجة في الملكية بين الأرض والماء ، فهما رأس مال الإنسان الصحراوي ، وأغلى عقاره ومدعاة استقراره [5] .

والظاهر من النوازل أنّ المصلحة العامة والإفادة الشاملة كانت شعار التواتيين ودَيْدَنهم ، فقد أشارت إحداها إلى تشنيع الأهالي ما قام به أحد الأشخاص حين اشترى أرضَ مجارٍ قديمة واحتكر نفعَها ، ومنَع من أراد الرجوع إليها واستغلالها [6] . ومِن متطلبات المصلحة العامة والعيش المشترك أن يساهم جميع السكان حسب قدراتهم ومواقعهم في دفع نصيبهم من الضيافة والشغل والسخرة من أجل إيفاء تلك الالتزامات حقوقها [7] ، وخصوصاً ما يتعلّق بالضيافة فقد اعتبرها الإنسان التواتي جزءاً من شخصيته ، يبذل

---

[1]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 58 .

[2]– أشارت إحدى النوازل إلى عقد اجتماع خاص بأعيان قصور تينركوك عرباً وبربراً ، اتفقوا فيه على إقامة وتنظيم سوق تجارية بالمنطقة .
يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 91 .

[3]– المصدر نفسه ، ص 21 .

[4]– المصدر نفسه ، ص 20 .

[5]– يتضّح ذلك من خلال نازلة ذات أبعاد حضارية واجتماعية إنسانية ، مؤدّاها أنّ شخصاً غاب عن القصر وترك عقاراً عدِمَ منه الماء بعد أن كان فيه ، فقامت الجماعة حيث خافت عليه الضياع ، فرفعوا أمرهم لمن يجعل فيه الماء ويستغلّه ويأكل من غلّته ، فتمّ ذلك .
يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 90 .

[6]– أفتى الشيخ الجنتوري في هذه النازلة قائلاً " فمن أراد الرجوع لها فله ذلك ، ولا كلام لمشتري أرض المجاري لأن مواضعها مستحقّة " .
يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 19 .

[7]– طرحت مثل هذه العلاقات إشكاليات ، أصبح السكان يستفتون حولها ، ومنها هل تلزم تلك المساهمات في الضيافة والشغل والسخرة من انتقل عن بلدته ؟ وهل هي مفروضة على السكان أم على الجنانات (البساتين) ؟
يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 21 .

في سبيل تحصيلها الغالي والرخيص [1] . ومن أوجه المصاريف التي كان السكان يشتركون ويتعاونون في دفعها ما تعود من ورائه مصلحته على جميعهم كمسجد أو إمام أو محضرة أو سور أو قنطرة أو مدرّس أو مؤدّب أو مُفتٍ أو قاض أو نحو ذلك [2] .

04 – الأحباس وأهميتها في التكافل الاجتماعي :

الأحباس هو الاسم الشائع في بلاد المغرب ، المقابل للأوقاف في بلاد المشرق . والحُبُسُ يقع على كل شيء وقفه صاحبه وقفاً محرّما لا يورث ولا يباع ، من أرضٍ ونخلٍ وكرم ومستغلّ ، يُحبّس أصلُه وقفاً مؤبداً وتُسبّل ثمرته تقرّبا إلى الله عزّ وجلّ [3] . وعند المالكية هو أن يتصدق الإنسان المالك لأمره بما شاء من ربعه ونخله وكرمه وسائر عقاره ، لتجري غلات ذلك وخراجه ومنافعه في السبيل الذي سبّلها فيه مما يقرّب إلى الله عزّ وجل ، ويكون الأصل موقوفاً لا يباع ولا يوهب ولا يورث أبدا ما بقي شيء منه ، فمن فعل هذا لزمه ولم يجز له الرجوع فيه في حياته ، ولا يورث عنه إذا حيز وصحّت حيازته [4] .

وقد انتشر التحبيس في توات وأصبح سبيلاً لصلة الأرحام ومظهراً من مظاهر التكافل الاجتماعي ، وكان يشمل أهمّ ما يمتلكه الإنسان التواتي وقتئذٍ وهو الجنان [5] . وجاء في إحدى النوازل أنّ أحد الأحباس لم يَفِ خراجه وغلّته بما لزمه من الوظائف ، فحكم الشيخ الجنتوري بإبطاله وإرجاعه لمحبسه ملكاً له إن كان حيا ولورثته إن مات [6] . وفضلاً عن الحبس على الزوجة والأبناء والأعقاب ، سادت ظاهرة حبس الجنان (البساتين) وما تنتجه من ثروات وغلاّت على المساجد [7] ، تجهيزاً وصيانة وتدريساً ، حتى لم يكد يخلُ قصر من جنان يحمل اسم " جنان الجامع " في المنطقة ، وعلى المؤذّن والمدرّس والإمام ونحوهم ، على غرار الحبس على الزوايا [8] ، التي تعاظم دورها خلال القرن 12 هـ .

---

[1] – تنقل النوازل بعض الآراء في الضيافة ، ومنها قول الشيخ الجنتوري أنها واجبة في القرى حيث لا مأوى ولا طعام ، بخلاف الحواضر لتيسّر ذلك فيها . وقد جرى عمل توات على ذلك القول ، فلا يُنكَر عليهم إن أوجبوها على من امتنع منهم .
يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 20 .

[2] – المصدر نفسه ، ص 39 .

[3] – ابن منظور ، المرجع السابق ، مادة حبس ، ص 752 .

[4] – يوسف بن عبد البر القرطبي ، الكافي في فقه أهل المدينة المالكي ، ط 2 ، بيروت : دار الكتب العلمية ، 1992 م ، ص 536 .

[5] – تشير إحدى النوازل إلى شخص حبس جنانين في بلدين ، كل واحد منهما برِسمٍ مستقل .
يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 117 .

[6] – المصدر نفسه ، ص 105 .

[7] – المصدر نفسه ، ص 93 .

[8] – من تلك الزوايا التي اعتاد المحسنون التصدّق عليها بالإبل وغيرها ، والحبس على الفقراء والمساكين فيها زاوية سيدي أبي حفص بتيمي .
يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 79 .

وقد ساهمت تلك الأحباس في توفير الرعاية الاجتماعية للفقراء واليتامى والمرضى وعابري السبيل ، ودعّمت ما تقوم به الزوايا والجوامع والكتاتيب من دور هام في نشر العلم والمعرفة ، وتحفيظ القرآن الكريم [1] والأحاديث النبوية الشريفة ، وإطعام الطلبة والضيوف من مختلف الأمصار . كما أنّ الأحباس المرتبطة بالنخيل هوّنت على السكان أعباء بعضٍ من الوظائف والضرائب التي كانوا يدفعونها للعرب [2] ، بعد تقصّي ما يفَضُل من غلّتها واستيفاء ما يرتبط بعلاجها وسقيها [3] . وجدير بالملاحظة أن النساء كنّ يُزاحمن الرجال في التحبيس والهبات والصدقات على أقاربهن [4] .

وما مثّلته الأحباس من أهمية في توات جسّدته كذلك العمرى [5] ، حيث كانت سائدة في الأوساط الاجتماعية ، خاصة من الآباء نحو أبنائهم [6] . وقد حرص الفقهاء والمفتون على تبيان أحكامها وشروطها وما يلزم عنها للعامة . إذْ جاء في النوازل أنّ رجلاً معمّرا عليه رغب في بيعها ، فبيّن الشيخ الجنتوري في ردّه على السائل المعني أن العمرى لا تُباع حتى ينقرض المعمَّر عليهم ، وذلك ما لم يحدث في هذه النازلة المعروضة ، فمن باعها فهو غاصب ولو كان معمّرا عليه ، اللهمّ إلاّ إذا لم يطّلع عليه [7] .

05 – العادات والتقاليد والأعراف :

طبع الإسلامُ المجتمع التواتي بتعاليمه وأخلاقه ، وهذّب سلوكياته وعاداته بِحسن المعاملة ومكـــــارم

---

[1]– يتمّ التحفيظ في سنّ مبكرة باستخدام اللوح والدواة ، ويحرص الطلبة على استظهار ما حفظوه من خلال المداومة على حضور الحزب الراتب (التلاوة الجماعية لجزء من القرآن الكريم) بين صلاتي المغرب والعشاء يومياً . وتشير إحدى النوازل إلى شخصٍ حبس جناناً على ذلك الحزب الراتب مائدةً وإطعاماً ، وجعل يصنع ذلك في حياته ، وأوصى النظّار بإنفاذ ذلك الحبس بعد مماته .

يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 120 .

[2]– ربطت إحدى النوازل إسقاط الوظائف واللوازم العربية عن القوي والضعيف والحاضر والغائب ، وعن الماء الحادث والفقاقير الميتة إن أجراها أربابها ، من ماء أحباس المسجد والمؤذّن ، بِرضى الجميع وقبولهم ذلك ، وهي الحال في الأقاليم التواتية ، والناس على عوائدهم .

يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 125 .

[3]– المصدر نفسه ، ص 109 .

[4]– من أمثلة ذلك ما ورد في النوازل من تحبيس امرأة داراً في مرضها على بناتها وبنات ولدَيها .

يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 120 .

[5]– **العمرى** ما يجعله الشخص لشخص آخر طول عمره ، وهي عند مالك وأصحابه والسكنى سواء ، ولا يملّك بلفظ العمرى عندهم إلا المنافع دون الرقاب ، وهي على ملك صاحبها تنصرف إليه إذا مات الذي يُعطاها ، وسواء قال أعمرتك وعقبتك أو أعمرتك فقط إذا انقرض المعمر وانقرض عقبه رجعت إلى ربّها إن كان حيّا وإلا إلى ورثته .

يُنظر : يوسف بن عبد البر القرطبي ، المصدر السابق ، ص 542 .

[6]– تشير النوازل إلى العمرى المعقبة وغير المعقبة ، وإلى نماذج عديدة منها " رجل أعمر أولاده الصغار عمرى ثم ملك أمرَه واحد منهم..."

يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 124 .

[7]– المصدر نفسه ، ص 120 .

الأخلاق ، فلا غروَ إذاً أن يتميّز التواتيون بعادات وتقاليد تكاد تكون ثابتة ، تشمل القرن الثاني عشر للهجرة وما قبله ، وتمتدّ إلى يومنا هذا ، ولا تكاد تحيدُ . في معظمها . عن ذلك الهدي المِثالي الأنموذج ، وتتنوع بتنوّع مناحي الحياة وتداخل العلاقات . فقد رصدت لنا النوازل ما يتعلّق منها بمعيشة السكان ومصادر رزقهم ، وأخرى تتعلّق بنشاطاتهم وأشغالهم وتعاملاتهم ، ومنها ما يرتبط بالخطبة والزواج والعلاقات الأسرية ، وقد تحوّلت معظم تلك العادات بالتقادم إلى أعراف قارّة أجاز بعضَها الشيخُ الجنتوري في نوازله .

تُحيلنا النوازل إلى العديد من العادات المرتبطة بنشاط التواتيين الزراعي ، وطرق استغلالهم للأراضي والفقارات [1] . منها أنّهم كانوا يتفقون على وقت معيّن لخدمة الفقارة وصيانتها بحضور جماعة البلد ورضى الجميع دون أن يُجبرهم أحد . ويستفيد كلّ شخص من الماء بحسابات نسبية مرتبطة بمساهمته وخدمته [2] ، إلاّ أنّ بعض المستفيدين كانوا يشتكون أحياناً من عدم تلقّيهم نصيبهم من الماء كاملاً ، ويتهمّون الحسّابين بتضييع حقوقهم [3] . والسّبق في الانتفاع بالماء لمن أخرجه من الظلمات إلى النور ، فهو أحقّ به من شركائه حتى يُعطى أجرته في ذلك [4] ، ويُسمح لمن أراد كراء الماء بذلك لسنوات محددة ، فإذا نقص الماء من الساقية يحطّ عن المكتري بحصّة ما نقص الماء وعطش زرعه بقدره إن قام به [5] .

ومن العادات المتعلّقة بالأراضي والعقّار أن يتسلّم المشتري نسخة من الكاتب (الموثّق) ، يُذكر فيها ما يحدّ العقار من جميع الجهات ، على غرار "..حدّه من جهة كذا إلى ملك فلان " ، ولا يُعتبر الحدّ بهذه الصيغة داخلاً في المبيع [6] ، والأمر يختلف إن تعلّق الأمر بالجنان ، وذُكر في حدوده جزء منه كالنخلة وما شابهها [7] . ومنها أيضاً أن يمتلك شخص جناناً أو نحوه في بلد غير بلده ، فينطبق عليه ما يلزم أهلها من

---

[1]– لكلّ فقّارة .كما تشير النوازل . أرباب معروفون ، وقد جرت العادة أنّ الذي يشتري الماء في إحداها يصبح من مالكي أصلها ومنافعها ومرافقها ، فيكون بذلك شريكاً فيها مثل سائر أربابها ، ويميّز الحسّابُ لكلّ واحد منهم نصيبه بالمقلد وبوحدات خاصة هي الحبّة والعود .
يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 64 .

[2]– المصدر نفسه ، ص 56 .

[3]– كان الشيخ الجنتوري يفتي في مثل هذه الحالات بفرض الغرم على الحسّابين ، إذا ثبت توليج ماء بعض لبعض بالبيّنة والقرينة .
يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 40 .

[4]– المصدر نفسه ، ص 58 .

[5]– المصدر نفسه ، ص 69 .

[6]– المصدر نفسه ، ص 26 .

[7]– من أمثلة ذلك مَن اشترى جناناً ونحوه ، وقال في حدوده مثلاً ومن الشرق النخلة الفلانية ، فإن هذه النخلة تدخل في المبيع .
يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 27 .

حقّ ضيافة أو دفع وظيف [1] ، على أنّ كثيرين كانوا يأنفون ويمتنعون عن دفع ذلك الوظيف ، سواء كانوا مستقرّين أو مرتحلين ، لأسباب خاصة بهم [2] .

أمّا معيشة السكان فتتميّز بالبساطة من حيث المأكل ، ومصدَرُه محصولان رئيسيان هما الحبوب وتمر النخل ، وقد جرت العادة بالمنطقة وقتئذٍ أن يُباع التمر ويُشترى زرعاً . فيما سوى شهر رمضان . ثمّ يُقسَّم أو يُعمل طعاما ثم يؤكل [3] . وقد يحدث أن يتجاوز إنتاج الزّرع (القمح) حاجة السكان الغذائية فيلجئون إلى وضع الفائض منه عند الدلاّل ليُقايضه لهم بالتمر [4] . ويتمّ الاعتناء بالنخلة مصدرِ القوت من خلال ثلاث عمليات ضرورية ، يُداوم الأهالي على فعلها وهي السقي والتدكير [5] والعلاج ، على أن يتمّ جني التمر في شهر أكتوبر ، والزرع في شهر مارس [6] ، في ظلّ أجواء وطقوس متميّزة ، يسودها الاتحاد والتعاون والفرح بما سيكفل تأمين الغذاء لشهور عديدة ، ويساهم في الإيفاء ببعض الالتزامات المالية [7] .

وعلى غرار التمر والقمح والشعير انتشرت زراعة الذرة بالمنطقة ، وأصبحت من الأغذية الرئيسية للسكان [8] ، إضافةً إلى اللحوم والسمن والزبد والحليب بفعلِ تربية الأغنام والإبل والأبقار التي كان يتمّ شراؤها من الأعراب الواردين على الأسواق التي تقام بالمنطقة أسبوعيا كلّ جمعة [9] . وقد أُحدِثت لدى السكان عادة جديدة وهي تربية الخيول والتباهي بامتلاكها والقيام بإعارتها مقابل مبلغ من المال متفق عليه

---

[1]– أشرتُ في الفصل الثاني إلى ما يتعلّق بالوظيف الذي كان السكان يدفعونه للقبائل المجاورة المغيرة اتقّاء شرّها . وقد أجاز الشيخ الجنتوري ذلك بشروط ، موضّحة في نصّ الفتوى التالي " وإن كان الوارد ظالماً ، فإن طلب ما خفّ مثل العلف والطعام فإنه يُعطى له لزوماً " .
يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 28 .

[2]– ينقل ذلك الشيخ الجنتوري في نوازله على غرار المشهد التالي الذي رواه بنفسه قائلاً " وأخبرني من أثِقُ به أنّ جماعته طلبت منه دراهم وظيف جاءه ، ففتح الدراهم وحزامه وقال من هو رجل فليمسّها بيده ، فلم يقدر عليه أحد " .
يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 73 .

[3]– المصدر نفسه ، ص 108 .

[4]– المصدر نفسه ، ص 66 .

[5]– **التدكير** (كما ورد) وهو في عُرف المنطقة القيام بتخصيب النخلة يدوياً بواسطة الطلع ، ويقترن فعلُه بالتكبير والأدعية والأهازيج .
يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 19 .

[6]– المصدر نفسه ، ص 144 .

[7]– ترتبط مواسم الجَنْي بِعادات حسنة أشاد بها الشيخ الجنتوري في نوازله وهي " أنّ مَن بِذمّته دَيْن عند أهل البلد ، فإنّ عُرفهم في أكتوبر حتى يبيعوا ثمرهم للعرب ، وإمّا في أبريل حتى يُحصد الزرع ويُكسّر ويُصفّى من تبنه ، فحينئذ يُقتضى منه دَينُه " .
يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 29 .

[8]– المصدر نفسه ، ص 15 .

[9]– المصدر نفسه ، ص 58 .

سلفاً ، ويحدث أن يشترك شخصان في امتلاك فرس واحدة ومن ثَمَّ يختلفان على ذلك الأمر [1] . ويحرص مربّو المواشي وملاّكها على العناية بها وتوفير الماء والكلأ والعلف ، ومداواتها من الأمراض الخطيرة والحشرات التي تَعْلَق بها [2] .

ومن عادات الخطبة والزواج أن يتمّ العقد في يوم يسمّى يوم القبول [3] ، ويمنح الرجال النساء بعض الهدايا أثناء الخطوبة ، ويجد بعضهم نفسه مضطرا لتلبية شروطهن بإعطائهن بعض الحوائج [4] . ويدفع الزوج الصداق لوالد الزوجة الذي يستأثر به لنفسه في أغلب الأحيان ، ممّا يتسبّب في نشوب بعض الخلافات الأسرية [5] ، وتختلف قيمته باختلاف الزيجات ومراتبهن الاجتماعية [6] . وممّا جرى به العرف بين الأزواج كذلك أن يعطي الأزواج لأزواجهن في سنوات الزواج الأولى أحواضاً من القمح أو الشعير عند الحصاد وأوزاناً من الثمر في الخريف [7] .

06 – بعض الآفات الاجتماعية :

على غرار جميع المجتمعات الكبيرة المتشكلة من أجناس متباينة ، لم يخلُ المجتمع التواتي من بعض السلبيات والآفات الاجتماعية ذات الانتشار المحدود ، والتي حرص الفقهاء والعلماء على احتوائها وتبيان مضارّها ، من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والاستفاضة في التنبيه على مخالفتها لتعاليم الإسلام في متون الفتاوى الفقهية ، ويمكن . من خلال النوازل . استقراء بعضٍ منها على النحو التالي :

---

[1]– تُشير النوازل إلى اختلاف شريكين في فرس ، حيث أعار أحدُهما الفرس دون علم صاحبه ، فأجاب الشيخ الجنتوري بما نصُّه " أمّا الشريك فلا كلام له ، حيث كان العُرف أن أحدهما لا يستأذن شريكه الآخر في الإعارة " .

يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 40 .

[2]– من بين تلك الأمراض المذكورة في النوازل الذباب الذي يعلق بالخيل في آخر الربيع . وقد جاء في النوازل أن أهل البوادي أعرفُ بهذا العيب الذي يصيب الخيل وبعلاجه أكثر من بياطرة الحاضرة .

يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 30 .

[3]– المصدر نفسه ، ص 09 .

[4]– المصدر نفسه ، ص 118 .

[5]– تصوّر النوازل مثل تلك التصرّفات فقد جاء في إحداها أن امرأة بكراً عقد عليها أبوها ، وشرط صداقها ثلاثين ريالاً وخادماً ، فقبضه الأب وصرفه في مصالح نفسه ، ثمّ بعد ذلك مات وترك مالا ، فقامت البنت تطلب صداقها...

يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 118 .

[6]– جاء في إحدى النوازل أن أحد الأزواج دفع لزوجته في صداقها سواراً فيه أوقية باثنتين وثلاثين موزونة .

يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 13 .

[7]– المصدر نفسه ، ص 04 .

أ – آفة التدخين : انتشرت هذه الآفة في توات بشكل واسع خلال القرن 12 هـ [1] ، واقتحمت معظم القصور والمجالس والديار ، وانقسم العلماء شِيعاً وفِرقاً بِفعل تباين الفتاوى حولها [2] . وقد أشار الشيخ الجنتوري إلى ذلك التباين حين سئل عن نازلة مفادها أنّ رجلاً طعن في شاهد عند القاضي ورفض شهادته بسبب شربه الدخان ، فأجاب قائلاً [3] " أمّا الدخان فرُبَّ رجلٍ يُبتلى به وهو صالح ، والخلاف الذي أشرتم إليه في جواز استعمالها حاصل ، والغالب على أهلها عدم المروءة " . وإثرَ انتشار الدخان في توات سادت زراعته [4] ، وتعدّدت استعمالاته ، فنتج عن ذلك ظهور آفة أخرى شبيهة به ، وهي استنشاق عشبة الدخان بالأنف بعد الطحن والدّق ، وعُرِف عند العامة باسم " طاباقو " [5] ، وشجّع عدم القطع في تحريم تلك الآفة من طرف العلماء والفقهاء حينئذٍ على استمرار تعاطيها من طرف الكثيرين [6] .

ب – السرقة والتعدّي على الأملاك : تُحيلنا نوازل الجنتوري إلى نماذج عن نوعين من الاعتـــــــداءات ،

---

[1]– ذكر ضيف الله بن أبّ في رحلته أنّ شرب دخان الورق المسمى " طبغ " ظهر في توات أوائل القرن 11 هـ . ويعضّد تلك الرواية ما ذكره الناصري في الاستقصا من أنّ دخول التبغ إلى المغرب الأقصى كان مع وصول الفِيَلة التي أرسلها ملك السودان هدية للمنصور الذهبي سنة 1001هـ / 1593م ، لأن أهل السودان الذين قدموا بالفيلة كانوا يشربونها ويزعمون أن فيها منافع ، ومن ثمّ شاعت وانتشرت .

يُنظر : ضيف الله بن أبّ ، المصدر السابق ، ص 28 / أحمد بن خالد الناصري ، المصدر السابق ، ج 05 ، ص 126 .

[2]– من أشهر من ألّف في الدخان منعاً وتحريماً الشيخ عبد الكريم الفكون القسنطيني في " محدّد السنان في نحور إخوان الدخان " ، ومحمد الجمالي المغربي في " تنبيه الغفلان إلى منع شرب الدخان " ، ومحمد بن سليمان المالكي في " الأدلة الحِسان في بيان تحريم شرب الدخان " ، ومحمد السوسي المغربي في "كشف الغسق عن قلب الفتى في التنبيه على تحريم دخان الورق " . وممّن ألّف فيه جوازاً وإباحةً علي الأجهوري في " غاية البيان لحلّ شرب ما لا يغيّب العقل من الدخان " ، وسلامة الراضي الشاذلي في " الإعلان بعدم تحريم الدخان " .

يُنظر : أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 02 ، ص 82 / صالح بن محمد بن حسن الأسمري ، التبيان في شرب الدخان ، مكتبة شبكة منارة الشريعة ، www.manarahnet.net .

[3]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 87 .

[4]– محمد بن عبد الرحمن البلبالي ، غنية المقتصد السائل فيما وقع في توات من القضايا و المسائل ، جمع : عبد العزيز البلبالي ، مخطوط بخزانة سيدي عبد الله البلبالي ، كوسام ، أدرار ، ص 160 .

[5]– بيّن الشيخ الجنتوري في النوازل طبيعته والحكم الشرعي فيه قائلاً "...وأمّا ذو القاف (طاباقو) المستنشَق بالأنف فهو عشبة الدخان بزيادة الدّق ، فزيدت القاف في اسمه لزيادتها في مسمّاه ، فما جرى فيها يجري فيه منعاً وإباحة " .

يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 30 .

[6]– نقَلَ ضيف الله بن محمد بن أبّ في رحلته ما نصّه " حدّثني الحاج خالد أنه سأل سيدي الحاج عبد الرحمن الجنتوري عن تبغ ، فقال له مَن رأيتُه يشربها لا أحرّمها عليه ، ومن لم يكن بدأ فيها أحرّمها عليه . قلتُ (الرّاوي) لعلّه مخافة الإسكار على الداخل عليها لأول مرة " ثم ذكر ضيف الله أنه وجد بخطّ والده العلاّمة محمد بن أبّ في حاشية سيدي أحمد بابا التنبكتي ما نصّه " والنباتات كلّها مباحة إلاّ ما فيه ضرر " ، وأنه ألّف فيها ما سمّاه " اللدغ في حكم شرب التبغ " .

يُنظر : ضيف الله بن أبّ ، المصدر السابق ، ص 28 .

أولاها خارجية كانت توات تتعرّض لها باستمرار من قِبل قبائل الأعراب المجاورة [1] ، فيلجأ السكان إلى موادعتهم ومداراتهم بالأموال والأعطية ، والاعتداءات الأخرى داخلية ، تتمثل في السرقة [2] واستغلال أملاك الغير دون وجه حقّ . وهي الشائعة لارتباطها بالمياه [3] التي كانت تمثّل . في ذلك الوقت . رأسمال الإنسان التواتي ، والأراضي الزراعية محلّ الاستثمار ومصدر الاستقرار ، مثل مسارعة البعض إلى هدم الحيطان وكسر الجريد ، ليثبت . بطريقة غير مشروعة . حيازته للعقار [4] ، أو استغلال أملاك الغير تعدّياً وقطع التمر من النخيل [5] .

ج – المعاملات غير المشروعة : تغلُب عليها . من خلال النوازل . المعاملات الربوية والعقود الفاسدة ، الناشئة بسبب الجهل تارةً ، وبسبب الطمع في اكتساب منافع معينة تارة أخرى . ومن أمثلة تلك المعاملات التي جرى بها العمل ، وحالَ العلماء دون استفحالها في المجتمع أنّ من كانت عنده أرض فإنه يدفعها لمن يحفر فيها ويطلب الماء فيها ، فما خرج من الماء فله نصفه وثلثه [6] . ومنها [7] " ما كان يعمله بعض أهل البلد للعرب ويسمّى عندهم بالمنزلة ، وهو أن ينفق الرجل على ضيفه أياماً معلومة ، ويبيع له ويأخذ هو من كلّ شيء موزونة " . ومنها أن يشتري أناسٌ الغنم حين تأتي إلى البلد ويشتركون فيها بلا مال ، ويطلبون الربح في ذلك [8] . ومنها كذلك أن يتفق شخصان على كراء أحدهما دارَه للآخر مقابـــــل

---

[1] – من صورتها ما ذُكر . سابقا . من اعتداء الغنائمة وذوي منيع وغيرهم على سكان القصور الشمالية للإقليم .
يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 73 / ص 79 .

[2] – نستنتج من بعض النوازل أنّ الجماعة كانت عاجزة عن إقامة الحدّ على السارق ، لغياب السلطة الشرعية الوصيّة ، لكنها اهتدت إلى عقاب خاص ، وهو إلزام السارق . إذا كان مشهوراً في البلد بالسرقة . بتعويض ما يُفقَد من المواضع التي يرتادها أو ينظر فيها أو بإزائها .
يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 104 .

[3] – تشير النوازل إلى سلوكٍ سيّء قام به بعض الأشخاص ، وهو الزيادة في ثقب مقسم الساقية ليزداد نصيبه من الماء ، وعندما وقع الشّك بين الشركاء الآخرين ، صاح واحد منهم على أهل القسم أنّ كلّ من زاد في ثقبته وثبت أنْ خرج عنده الماء أكثر من عدته ، فإنه يعطي في كلّ ثمن مثقالين ، ثمّ لما وقع الكيل وُجد الماء عند ذلك الشخص .
يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 45 .

[4] – المصدر نفسه ، ص 121 .

[5] – لم تقف الجماعة التواتية مكتوفة الأيدي إزاء ذلك التصرف المشين ، فقد كانت تبعث خرّاصين يقدّرون حجم الخسائر من الغلّة ، فما خرصوه من التمر ، وفي ظنهم أن النخيل تحتمله حكموا به عليه . وإن كان الشيخ الجنتوري يرى بأنّ ذلك ممّا غلط فيه أهل البلد .
يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 85 .

[6] – المصدر نفسه ، ص 85 .

[7] – المصدر نفسه ، ص 89 .

[8] – المصدر نفسه ، ص 57 .

الحصول على نصف الزَبل (الدُبال) [1] . وغيرها من المعاملات الفاسدة غير المشروعة .

من خلال ما سبق يتضّح لنا ثَراء المجتمع التواتي وتعدّد علاقاته ، وحرص السكان على الإحاطة بالأحكام الفقهية المتعلقة بمختلف تعاملاتهم ، ومدى التناسق والانسجام الذين طَبَعا تلك العلاقات ، رغم التركيبة الفسيفسائية للمجتمع ، والتي أضحت عاملَ وَحدةٍ وتلاحم ، لا عامل فُرقةٍ وتصادم .

المبحث الثاني : المرأة ومكانتها في الأسرة والمجتمع

لقد كرّم الإسلام المرأة بأن جعلها مربّية الأجيال ، وربط صلاح المجتمع بصلاحها ، وفساده بفسادها لأنّها تقوم بعمل عظيم في بيتها ، ألا وهو تربية الأولاد الذين يتكوَّن منهم المجتمع ، ومنحَها حقوقا كاملة كما الرجال . فقد أجمع العلماء على أن كلّ ما فرضه الله تعالى على عباده وكل ما ندبَهم إليه ، فالرجال والنساء فيه سواء ، إلاّ ما استُثني مما هو خاص بالنساء لأنوثتهن [2] .

01 – حقوق المرأة التواتية :

المرأة التواتية لم تكن بِدعاً من النساء ، فقد حازت نصيباً وافراً من أهمّ الحقوق والحريات كحقّ الملكية والهِبة والتحبيس ، وحقّ العمل والسعي ، وحقّ المعاملة بالحسنى والإرث وحرية الرأي والتصرّف في الأموال وطلب العلم والمعرفة والاستفتاء وغيرها من الحريات ، وفرضت نفسها وأثبتت قوّتها وجدارتها [3] .

ورغم غياب المرأة الجزائرية عن مسرح الأحداث خلال العهد العثماني عموماً ، وانحسار دورها وتأثيرها في القرن 12 هـ [4] ، إلاّ أنّ المرأة التواتية صنعت بعض الاستثناء ، وممّا يدلّ على ذلك الإشارات العديدة الواردة في النوازل . إذ توحي بسعي المرأة واشتغالها في وظائف وحِرَف متعددة منها الفلاحة والغزل والنسيج [5] . كما أنّها لم تكن عديمة اليد ، فقد امتلكت الأموال وصرفتها وتصّرفت فيها بكامل حريتها بيعاً وشراءً [6] ، وكان لها حظّ من العلم يمكّنها من معرفة نصيبها من الأملاك الخاصة بها ، وما يرتبط بأحكام

---

[1]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 70 .

[2]– محمد رشيد رضا ، حقوق النساء في الإسلام ، بيروت : المكتب الإسلامي ، 1984 م ، ص 18 .

[3]– أوردَ العياشي في رحلته غريبةً مفادها أن بعض النساء التواتيات كنّ ذات سطوة وشدّة ، وأنّ أزواجهنّ كانوا يُشهِدون الرجال على ذلك بعد طلاقهنّ ، بغرض الكسر من شدتهنّ وبأسهنّ ، فيَشيع الخبر في البلد ولا يتزوجهنّ أحد ، ومن ثَمّ يَعُدن لأزواجهن .
يُنظر : أبو سالم العياشي ، المصدر السابق ، ج 01 ، ص 84 .

[4]– أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ج 02 ، ص 290 .

[5]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 03 .

[6]– الأمثلة الدّالة على ذلك كثيرة في النوازل ، منها أن امرأة كانت لها أموال في ذمّة زوجها ، فاقترحت عليه أن تشتري منه جناناً في مقابل التنازل عن تلك الأموال . ومنها أنّ امرأة باعت أصولاً لمقدمٍ على الأيتام ، بعد أن قامت بعزل مقدّم آخر . ومنها كذلك أن إحدى النساء كانت توكّل أخاها على بيع بعض أملاكها لإخوانها الآخرين ... الخ .
يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 24 ، ص 40 ، ص 98 .

وجودها داخل البيت بِحكم أن المرأة كانت تدخل على زوجها بشيءٍ من ذلك [1] .

ومن الحقوق التي اكتسبتها المرأة التواتية خلال تلك الفترة ، وكانت مدعاةً لحفظ بقية الحقوق ، فسَعَت إلى ممارستها والمحافظة عليها ، الحقّ في التظلّم والتقاضي دون وَجَلٍ أو إذعان لسلطة الرجل المتنامية في المجتمعات البدوية المحافظة ، إذْ كان صوتها مسموعاً وحقّها مُصاناً .

ورغم ندرة الحالات الباعِثة على الجزم بتعلّم المرأة التواتية وتفقّهها في الدين ، أو الدّالة على تبوئها مكانة علمية هامة في المجتمع [2] ، فإن النوازل اشتملت على نماذج لقضايا وشكاوى كانت المرأة محورها وأساسها . ممّا يؤكّد حرصها على التعلّم والتفقّه ، فاجتهد العلماء والفقهاء في حلّها وتبيان أحكامها [3] .

02 – مكانة المرأة في الأسرة :

المرأة عِماد الأسرة التواتية وأساسها ، وعلاقتها بالرجل تبدأ بعد الزواج ، لكنْ هناك من النساء مَن كانت تشترط على مَن خطبها شروطا وحوائج (أشياء) معينة مقابل الزواج به [4] . ممّا يؤكّد وجود هامش كبير للحرية في القبول بالخاطب ، ينفي تلك الصورة النمطية العالقة في الأذهان عن المرأة التواتية الصحراوية ، والتي جعلتْها رمزاً للقهر والخنوع . وحتى بعد زواجها كانت المرأة تُساير الأعراف في ما يتعلّق بخدمة الزوج وحدودها [5] ، بلْ إنّ بعض النساء من ذوات اليسار كنّ السبّاقات في فعل الخير ، من خلال صِلة الأزواج بالهدايا والأعطية أو حتى التصدّق عليهم [6] .

---

[1] – كانت تلك الأملاك الخاصة بالزوجة مثار جدل وخلاف في بعض الأحيان . حيث ورد في إحدى النوازل أنّ رجلاً تنازع مع زوجته في بهائم لها كان يخدم عليها ، فقال إنّ له الربع لخدمته ، وقالت الزوجة : لا شيء لك عندي ، وما آتيناك إلاّ لتخدم عليّ وعلى بهائمي ، وقد كنتَ تشرب لبنها وتأكل سمنها . وقد أفتى الشيخ الجنتوري إثرَها بأنه لا شيء للزوج في بهائم الزوجة .

يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 07 .

[2] – إضافةً إلى احتفاظ النساء بالرسوم والوثائق ، تُشير المصادر المحلية إلى وجود نماذج للمرأة المتعلّمة الفقيهة ، ذات الشأن والصيت خلال القرن 12 هـ ، على غرار " العارفة بالله السيدة فاطمة زوجة الحاج العباس بن الحاج إبراهيم " ، فقد نُقِل عنها فقه وصلاح وكرامات .

يُنظر : محمد بن عبد الكريم التمنطيطي ، المصدر السابق ، ص 40 .

[3] – من أمثلة تلك القضايا المتعلقة بالمرأة والواردة في النوازل قضية " فاطمة بنت علي ابن هنان " وبيعها لدارها . وقضية السيدة " لالة صفية " وما ادّعاه خصومها ، ومسألة " زوجة مولاي عبد المالك " والمال الذي كان لها ببلد تمنطيط وغيرها .

يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 99 ، ص 34 .

[4] – المصدر نفسه ، ص 118 .

[5] – يظهر من خلال النوازل الاختلاف في تلك العادة المتعلقة بخدمة النساء لأزواجهنّ وعوائلهم من قصرٍ لآخر . لذلك أفتى الشيخ الجنتوري في إحداها بأن يُراعى العُرف السائد في البلد ، ولا تُجبر النساء على ذلك جبراً .

يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 03 .

[6] – المصدر نفسه ، ص 03 .

والشائع أيضاً أنّ بعض الأزواج كانوا يستغلّون أموال زوجاتهم في التجارة أو الرعي ، وينفقون على أولادهم ممّا اكتسبوه من وراء ذلك الاستغلال [1] . لذلك لجأت بعض النسوة إلى مقايضة تلك الديون المترتبة لهنّ على أزواجهنّ ببعض الجنان (البساتين) ، غير أنّهن كنّ يُلاقين بعض الصعاب في سبيل استرداد تلك الأموال أو ما يقابلها من أملاك ، سواء من قِبل الأزواج أو الورثة بعد وفاة الأزواج [2] .

وفي الجانب الآخر من الأسرة ، كان الرجل التواتي حريصاً على معاشرة الزوجة بالمعروف ، وبناء أسرة متماسكة ، يسودها التعاون والمودّة ويتوصّلُ فيها جميع الأفراد إلى حقوقهم . فقد جاء في النوازل ما يدلّ على تلك المودّة ويؤكّد غلبة الحوار والتفاهم بين الزوجين ، ومعاملة الزوج لزوجته بالحُسنى ، ومنها أنّ بعض الأزواج كان يُحلّي زوجته بالقلائد والحُلي هبةً أو إمتاعاً [3] . وقد جرت الأعراف حينها ببعضٍ ممّا يوطّد تلك العلاقات الأسرية حيث كان الأزواج يحرصون على إعطاء الزوجات أحواضاً من القمح أو الشعير عند موسم الحصاد ومكاييل من التمر بعد الجني في الخريف [4] ، ومنهم من كان يُلبّي طلب زوجته حين تطلب أملاكاً بعينها [5] ، ومنهم من كان يحمّلها مسؤولية التصرّف في الأموال والتسيير المادي للأسرة ، بأن يتركَ مفاتحه بيدها ويُطْلِقَها على جميع أمواله [6] . كما كانت المرأة تجدُ العون والدّعم من زوجها أثناء الخلافات التي قد تنشب بينها وبين إخوتها بسبب ما يرتبط بالأحباس أو المواريث أو غيرها [7] .

وقد وسّعت المرأة التواتية من علاقاتها الأسرية ، ودعّمت وجودها مرتبطة بأبنائها وإخوتها وغيرهم من

---

[1]– تحتوي النوازل على حالات تعضّد ذلك ، ومنها حالة تحولت بسبب ذلك إلى خلاف بين الزوجين ، مؤدّاها أن رجلاً مشهورا في بلده بالبطش كان يستغلّ أموال زوجته ، وأهل بلده يخافون منه ، فلذلك سكتت حين عزم على تطليقها ، وبعد موته اشتكت المرأة للقاضي ، فأقرّ بعدم سقوط دعواها ، وأمر بتقويم الأموال التي تركها الزوج وإعطاء المرأة نصيبها . عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 72 .

[2]– من أمثلة تلك الصعاب ما جاء في إحدى النوازل من أن رجلاً صيّر لزوجته حديقة في حليّ ترتّب لها عليه ، ولم تحُزْها حتى سافر السفر الذي توفي فيه ، لكنها حين باعت تلك الحديقة لولدٍ من أولادها ، قام عليها في ذلك من بقي من الأولاد مُنكِرين أحقيّتَها في الحديقة .
يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 23 .

[3]– المصدر نفسه ، ص 02 .

[4]– المصدر نفسه ، ص 04 .

[5]– تُشير إحدى النوازل إلى امرأة طلبت من زوجها أن يتصدّق عليها بجنان يمتلكه ، فقال لها لا أفعل ذلك إلاّ بشروط ، لا يُباع ولا يوهب ولا يخلّص منه مديان . ممّا يؤكّد انخراط المرأة في مثل تلك التعاملات (البيع ، الهبة ، دفع الديون ... الخ) ، وتقبّل المجتمع التواتي لذلك .
يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 128 .

[6]– المصدر نفسه ، ص 05 .

[7]– من أمثلتها ، خلافُ إحدى النساء مع أخيها بسبب هوية من يحقّ له الدخول في أحد الأحباس ، فتدخّل الزوج ورامَ بطلان التحبيس .
يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 116 .

الأصول والفروع ، وساهمت في ترقية تلك المكانة من خلال ما كانت تقوم به من رعايةٍ للأسرة أثناء غياب الزوج أو سفره ، وحرصٍ على مصالح الأبناء الأيتام [1] . بل إن بعض النساء كنّ يتنازلن عن جميع ثُمنهِنّ ويهَبْنَه لورثة أزواجهنّ وَصْلاً للأرحام وإمعاناً في المودّة [2] . وفضلاً عن إكرام المرأة لأبنائها الذكور وإخوتها بالهدايا والهبات ، فإنها كانت تُحيط بناتها دون البنين بعناية خاصة من خلال الصدقات والهبات [3] .

03 – المرأة وأهمّ المشاكل الأسرية :

رغم ما تبيّن لنا . سابقاً . من دورٍ هام للمرأة التواتية في محيطِ بيتها وبين ظهراني أفرادِ عائلتها ، إلاّ أنّها كانت في كثير من الأحيان طرفاً في بعض المشاكل الأسرية ، التي يمكن حصر أهمّ أسبابها فيما يلي :

أ – الخلافات الزوجية : تحوي النوازل نماذج عديدة لهذا النوع من الخلافات ، حيث يتسبّب فيها أحد الزوجين لعِلّة معينة ، وكثيراً ما ينتهي بهما الأمر إلى الاحتكام عند القاضي ، أو طرح المشكلة عند أحد الفقهاء لتبيان وجهها الشرعي . وممّا ساد من تلك النزاعات الأسرية ، الاختلاف حول زيارة المرأة لقرابتها من غير أبويها دون علم زوجها ، وعدد تلك الزيارات ومواعيدها ، مما كان يزيد . غالباً . في عناد المرأة وتحدّيها أوامر زوجها [4] . ومنها الخلافات الناشئة بسبب استغلال الرجل أملاك زوجته والتصرف فيها بحرية مطلقة ، ممّا كان يؤدّي في بعض الأحيان إلى تحفّظ الزوجة أو حتى إخوانها أو وارثها بعد موتها [5] ، أو العكس وهو قيام بعض الأزواج على نسائهم ومحاسبتهم إياهنّ فيما اكتسبن من الأموال بعد الزواج ، خاصة إنْ كنّ قد اشتهرن بالفقر من قبل [6] .

---

[1]– جاء في إحدى النوازل أنّ بعض الشهود أثبتوا بيعَ إحدى النساء أملاكَ زوجها المتوفى في مصالح اليتامى ، من غير إثبات بيّنة شاهدة على مصروف ثمن البيع ، أَكانَ في نفقةٍ أو جهاز أو غيرهما ، فأمضى الشيخ الجنتوري ذلك البيع ، وأبطلَ دعوى من قام عليها فيه .
يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 40 .

[2]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 06 .

[3]– من شواهد تلك الهبات الرسم التالي المتضَمَّن في النوازل " وَهَبَتْ الحرّة بنت السيد رشيد لابنتها فاطمة بنت السيد أحمد بن حرمة الله جميع ما ملّكها الله ، جنانها الذي بزاوية كذا مع دارها الكائنة بكذا وكلّ ما لها من الأرض البيضاء ، وجميع ما عندها من أثاث الدار ، من مواعن وعقيق وفضة وغيرها ، قصَدتْ بذلك وجه الله " .
يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 126 .

[4]– وصل الأمر في أحد الخلافات إلى تهديد الرجل امرأته بتطليقها ، إنْ هي أصرّت على الخروج دون إذنه قائلاً " طلاقكِ على عتبة داركِ "
يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، (النسخة ب) ، ص 121 .

[5]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 23 .

[6]– جاء في بعض الفتاوى ما يتعلّق بالزوجة إن كانت معروفة بالفقر ، ثمّ ظهر بيدها مال بعد الزواج ، وهل يجوز للزوج سؤالها أو الإدّعاء عليها في مصادر تلك الأموال ؟ فكان الردّ من قِبَل الشيخ الجنتوري بأنّه ليس له في ذلك شيء ، ولا لورثته من بعده .
يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 07 .

وقد يحدث الخلاف بين الزوجين بسبب وجود أَمَةٍ خادمة للزوجة ، وهَبَها لها أبوها في حياته ، لكنّ الزوج يصرّ بعد ذلك على بيع تلك الأَمَة ، خوفاً من أن يؤدي وجودها في البيت إلى انحراف أبنائه [1] . أو أنْ تهبَ الزوجة لزوجها مِن نَفيس مالها وما غَلاَ من أملاكها قصد دوام العِشرة بينهما ، وتشترط عليه مقابل ذلك ألاّ يطلّقها ، لكنّ الزوج يطلّقها لاحقاً [2] . وقد يحدث أن يكون الخلاف بين المرأة وطليقها حول أمرٍ معيّن ، ويستلزم ذلك أخذ اليمين منها ، وكلّ منهما يقطن في قصر ، فيُبعَث إلى المرأة من تؤدّي إليه اليمين الواجبة عليها حيثُ هي في قصرها وفي بيتها [3] .

ومِن الخلافات الغريبة نادرة الحدوث ، ما جاء في إحدى النوازل من أنّ رجلا تزوّج امرأة على أنّها حرّة ، لاشتهارها بذلك هي وأمّها ، وبعد سنين من الزواج تركت أولادها ، ثمّ قام رجل مدّعيا عليها وأثبتَ رقَّها ورقّ أمّها ، فاحتار الرجل الزوج في ذلك وطلب الفتوى الشرعية [4] .

ب – مشاكل الميراث : يُعتبر هذا النوع من المشاكل هو الغالب في القضايا المطروحة على القضاة والفقهاء والمفتين خلال تلك الفترة ، ويتعدّى حدود الأسرة ليشمل العائلة كلّها . وكثيراً ما كانت المرأة طرفاً فاعلا فيه ، إمّا متعديّة أو متعدّى عليها ، ممّا يؤكّد استيفاء النساء في توات حقوقهن من الإرث كاملة غير منقوصة [5] ، على عكس ما روّجت له الأمثال وأصبح عليه الحال ، غداةَ احتلال فرنسا للجزائر ومن ثَمّ إقليم توات ، وسياستها الاستعمارية المنتهجة في المجال الاجتماعي [6] .

---

[1]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، (النسخة ب) ، ص 146 .

[2]– من أمثلة تلك الخلافات نازلة مفادها أنّ امرأة تصدّقت على زوجها بحلّ مالِها ، ثمّ ادّعت بعد ذلك أنها إنما تصدقت أو وهبت عليه لأجل دوام العشرة وخشية أن يطلّقها ، ثمّ وقع الفراق بينهما ، فقامت عليه وأدّت اليمين لتُثبت الدعوى ، وطلبت الفتوى من الشيخ .
يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، (النسخة ب) ، ص 150 .

[3]– تضّمنت إحدى النوازل مثالاً عن ذلك في النص التالي " وسئل . أي الجنتوري . عن امرأة في بني ملّوك وجب عليها اليمين ، وغريمها في بني مهلال ، أيقدم لها غريمها لبني ملوك وتحلف له في دارها ، أو تقدم إليه لبني مهلال ، أم كيف الحال بينهما ، فأجاب وبعد فلا تقدم المرأة لبني مهلال وتحلف في دارها ، ولا يقدم من بلد إلى بلد إلا الرجال أو أهل البادية الذين لا جامع لهم " .
يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، (النسخة ب) ، ص 122 .

[4]– أفتى الشيخ الجنتوري في تلك النازلة بقوله "..وأما إذا استلحق الأولاد بالرق ، فإن الأب يرجع على السيد بالنفقة إذا لم يكن للأولاد غلة ، والعبودية هنا طارئة ، ولأن من أنفق على من لا غلة له ثمّ استحقّ منه ، يأخذ من مرجع نفقته " .
يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، (النسخة ب) ، ص 149 .

[5]– من صريح العبارات حول تمكين المرأة التواتية من الميراث في النوازل ، الحديث عن عقار موروث من طرف إحدى البنات اليتيمات .
يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 05 .

[6]– نفَى الشيخ الجنتوري نفسُه أن يكون حرمان المرأة من الإرث سائداً في توات ، باستثناء ما شاهده بنفسه في عاصمة تيدكلت عين صالح من بعض من سمّاهم " العرب " حيث قال " وإنما رأيتُ هذا في أرض عين صالح ، فإنّ لدى العرب منهم وبعض العجم عيباً عظيماً ، ومعياراً قبيحاً ، أن تطلب المرأة الميراث من أخيها " . يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 105 .

والثابت . حينئذ . أن المرأة لم تكن لِترضى بأن يُسلبَ منها جزءٌ من الميراث ، فضلاً على رضاها بحرمانها منه كاملاً . لذا ظهرت . من خلال النوازل . بعض الخلافات بينها وبين ورثة زوجها بصفة خاصة ، حول ما تركه الزوج [1] ، أو حول ما ظهَر عليها من غِنى أعْقَبَ فقراً طيلة مدّة الزوجية [2] . ورغم أن العادة جرَتْ في توات على هِبة المرأة لأخيها بعضاً من ميراثها ، فإنّ ذلك لم يكن يتمّ . على ما يبدو . إلاّ بموافقتها ورضاها ، عربوناً للمودّة وتوطيداً للأخوّة ، إذ يحدث أن تقوم على إخوانها جميعهم ، مدّعية عليهم وعلى من يشتري منهم ، حين تشعر بأنّها لم تُوفَّ نصيبها من الإرث كاملاً [3] .

04 – دور المرأة في المجتمع التواتي :

الأسرة أساس المجتمع التواتي ، وبناءً على ما كان للمرأة فيها من نفوذ ومكانة ، فقد تبوّأت من خلالهما دوراً ريادياً . لا يقلّ شأناً عن دور الرجل . في مجتمعٍ يُشاع عنه أنه تقليدي محافظ [4] . ويمكن تلمّس مظاهره في المجالات الاجتماعية المختلفة التي أثبتت فيها وجودها من تعاون وتضامن وهِبات ورعاية اجتماعية ... الخ ، ممّا أدّى إلى اعتراف المجتمع بفضل المرأة وتقدير مكانتها حقّ قدْرها .

ونظراً لأن النشاط الغالب على المنطقة هو الفلاحة والرعي ، فقد ساهمت المرأة فيهما تملّكاً وممارسة ومثّلت الجنان (البساتين) رأسَ المال عند المرأة ، ذات القيمة الثابتة والمنفعة الدائمة [5] . وأوردت النوازل . أيضاً . نماذج لنساء يمتهنّ الحِراثة والسقي كما الرجال ، وأخريات لهنّ نصيب من الماء في الفقارة [6] . ومنها

---

[1]– من أمثلة تلك الخلافات قيام امرأة توفّى عنها زوجها على الورثة ، مدّعية أنها أخذت أملاك زوجها في صداقها . ودِينُها وثيقتها ، وشهد شاهدان أنّهما قرآ تلك الوثيقة ، وأنّ ما تدّعيه تلك المرأة صحيح . فحُكِم لها بذلك . عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 38 .

[2]– جرَتْ العادة عند بعض الرجال أن يقدّم لزوجته بعض الجواهر والحلي ، ولا يبيّن إن كان ذلك هبة أو إمتاعاً ، وبعد موته يُنازعها أبناء زوجها فيه . وقد أجاب الشيخ الجنتوري على تلك النازلة قائلاً " القول قولُها مع ورثته ، وفي حياته القول قوله إن عُلِم فقرُها " .

يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 02 .

[3]– المصدر نفسه ، ص 109 .

[4]– ممّا يُستنتج من المصادر التاريخية قبل القرن 12 هـ ، أن النساء التواتيات لم يكنَّ في منأى عن أعين الرجال الأجانب ، فقد وصف الحسن الوزّان (ت 957هـ / 1550م) . في معرض حديثه عن مميّزات قصور تسابيت . النساءَ بأنّهن جميلات سمراوات .

يُنظر : الحسن الوزّان ، المصدر السابق ، ج 02 ، ص 133 .

أمّا خلال القرن 12 هـ ، فإن النوازل تشير في بعض الحالات إلى تفشّي ظاهرة سلبية ، وهي الخلوة المحرّمة التي تُلزم فاعلها الجُرحة والأدب .

يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 89 .

[5]– جاء في النوازل أنّ إحدى النساء كانت تقوم على جنانها رعايةً وصيانةً طيلة فترة حياتها ، وعندما حضرَتْها الوفاة أوصتْ بأن تباع من ذلك الجنان نخلتان من أجل دفع تكاليف التكفين والدّفن . يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 126 .

[6]– من تلك النماذج أنّ إحدى النساء كان لها فضلٌ من الماء ، يزيد عن حاجة جنانها فقامت بكرائه لأحد الأشخاص مقابل مبلغ معيّن .

يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 05 .

كذلك أن بعض النساء كنّ يقُمنَ على ما يمتلكن من رؤوس الأغنام بأنفسهن ، أو يكلّفن أزواجهنّ بالخدمة عليها ، مقابل الاستفادة من لبنها وسمنها [1] .

وفضلاً عن اقتحام المرأة التواتية مجال الأرض وخدمتها ، والمياه وما ينتج عن تملّكها من كراءٍ أو بيع وشراء ، فقد اختصّت بعض النساء بأعمالٍ وحِرف يدوية داخل البيت ، مثل الغزل والنسيج [2] ، حيث يُساهمن في توفير الملابس الصوفية والقطنية لأفراد العائلة ، ويبِعْنَ الفائض من الإنتاج للقصور المجاورة .

ومن المظاهر الأخرى الدّالة على انخراط المرأة في المجتمع ، ومساهماتها الإيجابية في تفعيل نشاطاته ، قيام بعض النساء بإخراج الصدقات للفقراء والمساكين [3] ، وحرصهن على تحبيس ما يمتلكن في سبيل أوجه الخير تخصيصاً أو تعميماً [4] ، ومزاولتهن بعض الأنشطة التجارية ، من خلال تصرّفهن في الأملاك الخاصة أو المتعلقة بالإرث بيعاً وشراءً ، دون الحاجة إلى وسيط تجاري [5] .

وقد احتوت النوازل على ما يقرّ ويؤكّد تزكية الرجال تلك الحظوة للمرأة التواتية ومكانتها ، وخاصة الفقهاء والعلماء منهم . حيث شغلت قضايا بعض النساء أفكارهم وقرائحهم ردحاً من الزمن ، وكَثُرَ فيها الأخذ والرّد وإمعان النظر بحثاً عن الصواب [6] ، فلم يبخسوا المرأة حقوقها ، ولم يحطّوا من قدرها شيئاً ، على رغم ما ارتبط بطبيعة المرأة من ركونٍ إلى الحشمة والحياء .

05 – بعض المفاسد الخُلُقية :

لقد نتج عن ذلك الاندماج المعتبر للمرأة في يوميات المجتمع التواتي وتفاعلاته ظهورُ بعض السلبيات والآفات ذات الصلة بالمرأة ، والتي لا يمكن التستّر عليها بحال ، حيث أصبحت مضامين فتاوى فقهية ، رصدت النوازل بعضاً منها وسَعَت إلى تقويم مسارها وأهمّها :

---

[1]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 07 .

[2]– المصدر نفسه ، ص 03 .

[3]– ورد في النوازل أن بعض النساء كنّ يتبرعن بأموالهن للفقراء وعابري السبيل ، وبعضهن يهَبنَ لإخوتهن نصيبهن في الميراث لأجل ذلك . يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 105 .

[4]– انتشرت ظاهرة التحبيس على البنات من قِبَل الرجال والنساء على حدّ السواء ، في إشارة إلى مكانتهن وحفظ حقوقهن . يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 106 .

[5]– المصدر نفسه ، ص 40 .

[6]– لمْ تحظَ نازلة من النوازل بالقدر الكبير من الخوض والاهتمام مثل ما حظيت به قضية " لالة صفية " . حيث ذكر الشيخ الجنتوري أنّ علماء توات تنازعوا بشأنها ، فكتبوا إليه لينظر ويشاركهم في الخوض فيها ويتأمّل الصواب من عدمه . ومضمونها خلاف حول ملكية دار باعتها امرأة أخرى تدعى " فاطمة بنت علي " ، وحين تملّكتها " لالة صفية " المذكورة ، ادّعى ورثة الأولى حقّ حيازتهم لها من وجهٍ معيّن . يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 99 .

أ – وجود نساء تمّ الحجر عليهن من طرف القاضي قبل الزواج ، نظراً لشيوع سفههن بين أهالي القصر ، وأخريات تمّ الحجرُ عليهن بعد الدخول بهن ، لظهور سفههن بعده [1] .

ب – أنّ بعض النساء كنّ يهجرن بيوتهنّ ، ويرفضن العودة إليها لأسباب مختلفة ، ويطول بذلك نشوزهن رغم تهديدات الأزواج لهنّ ، بعد استنفاذ محاولات الصلح والتحكيم من قِبل أهالي الطرفين [2] .

ج – أحد الأزواج طلّق زوجته ثلاثاً ، ثمّ تزوجها رجل آخر ، وبعد ذلك طلّقها وادّعى أنّها دفعت إليه أموالاً من أجل ذلك ، لتحَلَّ لزوجها الأول [3] .

د – ما كان يُسبّبه وجود الجواري والإماء في المجتمع التواتي من انحراف أخلاق بعض الشباب ، خاصة أنّ كثيرات منهن كنّ يتنقلنَ بين البيوت بكلّ حرية [4] .

هـ – ما تَعَارَف عليه أهل البادية ، المتاخِمة للديار التواتية ، حيثُ يَقْبلون بتبرّج نسائهم ، وهم في ذلك سواء ، وينظر بعضهم إلى بعض ، ويدخل الرجال ـ من غير المحارم ـ على النساء ، ويسافرون معهنّ وينامون جميعاً في موضعٍ واحد [5] .

من خلال ما سبق ذكره عن المرأة التواتية ، يتضّح لنا مدى الزّخم الاجتماعي الناتج عن دورها وفعاليتها في المجتمع ، ومدى الإسهامات متعددة الأوجه لذلك الدور ، إنْ على مستوى الأسرة محيطِها الطبيعي ، أو على مستوى القصر والحيّ امتدادها الحتمي . ولا أدلَّ على ذلك من كثرة النوازل والفتاوى ذات الصلة بالمرأة ووظائفها . وتتكَشّف لنا عديدُ الحقائق ، على رأسها أنّ المرأة لم تكن ظلاًّ أو إمّعة ، بل كانت كياناً مستقلا ، تتمتّع بحقوقَ ثابتةٍ مُعترفٍ بها ، وتمارس انتماءها للمجتمع من جميع الجوانب ، وِفقَ ما خصّه الله ـ عزّ وجلّ ـ وميّزه بها .

---

[1] – كان الشيخ الجنتوري يفتي في مثل تلك الحالات بأن تمكث الزوجة المحجور عليها عاماً ، من يوم دخول زوجها بها ، ثمّ تخرج من الحجر على أن تلزمها أفعالها ، وإن كان ذلك بعد الزواج فلا تخرج من الحجر إلاّ بظهور رشدها بعد ذلك .

يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 29 .

[2] – من تلك الحالات : رجل تنازع مع زوجته ، وصاح عليها بكذا وكذا للشهر إن لم ترجع لداره ، لكنها أبَتْ وظلّت ناشزة عنه .

يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 07 .

[3] – المصدر نفسه ، ص 06 .

[4] – يُشير إلى تلك الظاهرة السلبية ما ورَدَ في إحدى النوازل ، من أنّ أمَةً تملّكها إخوة ، فوطئها أحدُ أولادهم ، فحملت منه وادّعت الولد له ، وأقرّ هو بذلك . وحين سئل الشيخ عبد الرحمن الجنتوري عن إمكانية عتقها ، أفتى بأن الولد ولدُ الزنا ، فلا يجوز أنْ تُعتق به الأمَة ، لأنّها ليست مملوكة لمن وطئها ، بل وجبَ عليه الحدّ .

يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، (النسخة ب) ، ص 146 .

[5] – عقّب الشيخ الجنتوري على تلك الظاهرة قائلاً " وبعد فالخلوة مع غير المحارم محرّمة ، ومن فعل ذلك فهو جرحة فيه ، وعليه الأدب " .

يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 89 .

المبحث الثالث : القضاء نظامه وقضاياه

القضاء من الوظائف الحسّاسة المتعلّقة بالدولة القائمة أو الخلافة ، لأنه مدعاة للفصل بين الناس في الخصومات حسماً للتداعي وقطعاً للتنازع ، عملاً بالأحكام الشرعية المأخوذة من الكتاب والسنّة [1] .

01 – النظام القضائي في توات :

أضحى القضاء من أهمّ الأنظمة والمؤسسات التي فرضت وجودها على ربوع إقليم توات خلال القرن 12 هـ ، في ظلّ انحسار دور السلطتين التنفيذية والتشريعية ، وتنامي المشاكل الاجتماعية والاقتصادية من جرّاء التطور الطبيعي للمجتمع التواتي . ولحِسن حظّ الإقليم فقد تبلور جهاز قضائي مستقلّ ، استمدّ شرعيته وقوّته من تفاعل السكان أنفسهم مع الأوضاع المستجدّة ، وفي اختيارهم للقضاة تنصيباً وعزلاً .

وقد نابَ عن السكان في عقدِ ولاية القضاء لِمن هو أهل لها ذوو الرأي والمشورة ، وأهلُ العلم والمعرفة والعدالة [2] . فإن تعذّر وجود قاضٍ عدلٍ مجتهد في بعض الفترات الانتقالية المحدودة ، فالفصل والحكم يرجع لجماعة المسلمين ، فيجتمع أهل الفضل والدين فيقومون مقام القاضي في ضرب الآجال والطلاق وغير ذلك ، وما هو مصلحة ثابتة عُمِل به [3] . والقضاء . في نظر الشيخ الجنتوري . بمنزلة سفينة مضطربة في بحر الظلمات ، الغالب عليها الهلاك والسلامة نادرة ، لأن الرسول عليه الصلاة والسلام جعل ثُلثَيه خسارة [4] ، والثُلث المتبقّي المفلِح من حيّز اليسير [5] .

والقضاء . كما عرّفه الشيخ الجنتوزري في نوازله . عبارة عن النيابة من الإمام الأعظم أو نائبه في تنفيذ الأحكام الشرعية ، ويختلف عن الفتوى في كونها إخباراً بالحكم على غير سبيل الإلزام ، بينما القضاء هو الإخبار بالحكم على سبيل الإلزام [6] . ويختلف القاضي عن المحكّم الذي قد تُقيمه جماعة من الناس لبعض الأعوام ، نظراً لتحرّجهم انعدام القضاة ، فلا يلزم حكمه إلاّ من أقامه [7] ، والذي عليه العمل هو ما قضى به قاضي الجماعة ، وهو كبير قضاة الإقليم [8] ، على غرار قاضي تينجورارين أو قاضي تيدكلت وغيرهما .

---

[1] – نصر محمد واصل ، السلطة القضائية ونظام القضاء في الإسلام ، ط 2 ، القاهرة : المكتبة التوفيقية ، 1982 م ، ص 119 .

[2] – يتضمّن رسم تولية القضاء في أغلب الأحيان الشروط التي يُقدّم بسببها من يتولى القضاء ، وأسماء الأعيان الذين قبلوه وزكّوا اختياره . يُنظر : رسم تولية القضاء ضمن الملاحق في هذه الرسالة . ص 168 .

[3] – عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 58 .

[4] – إشارة إلى الحديث الشريف " القضاة ثلاثة : اثنان في النار وواحد في الجنة ، رجل عرف الحق فقضى به فهو في الجنة ورجل عرف الحق فلم يقضِ به وجار في الحكم فهو في النار ، ورجل لم يعرف الحق فقضى للناس على جهل فهو في النار " . رواه الترمذي في سننه .

[5] – عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 49 .

[6] – المصدر نفسه ، ص 89 .

[7] – المصدر نفسه ، ص 88 .

[8] – المصدر نفسه ، ص 88 .

والقاضي في توات يمثّل هرم السلطة القضائية ، و كانت له مكانة كبيرة عند عموم السكان ، كما يتمتع باحترام الجميع ، نظرا لأن الشخصيات التي تولّت هذا المنصب تعدّ من أشهر رجال العلم و الدين في وقتها ، و تنحدر من أسَرٍ كبيرة ذات نفوذ قوي لدى الأوساط التواتية ، الأمر الذي دفع مشائخ توات إلى رضاهم التام على اختيارهم [1] . ولم يكن ليتولى هذا المنصب أيّ شخص إلا إذا كان مُلمّاً بالمسائل الدينية من فقه و تشريع واجتهاد على مذهب الإمام مالك ، عدلاً مجتهداً عارفاً بعادات و تقاليد مجتمعه ، مقدّراً لخصوصياته وميزاته ، فلا يحمل الناسَ على النصوص التي اضمحّلت بينهم فيكدّر عليهم ، بل يحملهم على أعرافهم التي لا تخالف الشرع [2] .

وتحيلنا نوازل الشيخ الجنتوري إلى جملة من الاختصاصات والممارسات القضائية التي بُني عليها النظام القضائي في توات ، نُجملها في العناصر التالية :

أ – كان يتمّ تمزيق الأرسام المتعلّقة بالأحكام القضائية من طرف معظم قضاة توات ، خاصة عندما يطلب ذلك المحكوم له . وقد وصف الشيخ الجنتوري عملية تمزيق تلك الأرسام بأنّها مقتضى الصناعة القاضوية ، لأنّ تركَها دون تمزيق ـ وهو فعل فئة قليلة من القضاة ـ كفيل ببعث الفتن والعداوات من جديد وإحياء الخصومات القديمة بين الناس [3] .

ب – كان بعض القضاة يعزل نفسه عن القضاء اختياراً ، لا عجزاً ولا لِعذر ظاهر عليه ، ومِن العلماء التواتيين مَن كان يزكّي ذلك التنّحي شريطة ألاّ يتعلّق لأحد من المتخاصمين حقّ بقضاء القاضي ، حتى لا يؤدّي انعزاله إلى حدوث الضرر [4] . ومن القضاة من كان يمتنع عن الحكم بين بعض الخصوم في نوازل بعينها لاعتبارات وأسباب شخصية ، ممّا دفع بالناس إلى الشكوى منهم [5] .

ج – لم يكن يتمّ تحديد جهة قضائية معينة ، أو إرغام الناس على قصدِ قاضٍ بعينه [6] ، بل يحقّ للمتقاضي

---

[1]– فرج محمود فرج ، المرجع السابق ، ص 45 .

[2]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 64 .

[3]– المصدر نفسه ، ص 81 .

[4]– المصدر نفسه ، ص 81 .

[5]– تشير إحدى النوازل إلى رفض أحد القضاة البتّ في الدعوى المرفوعة إليه ، وإعراضه عن الحكم فيها صيانةً لنفسه وعرضه ، بعدما تبيّن له من مضمونها وهوية المتخاصمين فيها ، وقد زكّى الشيخ الجنتوري ذلك الامتناع لِما ذُكِر .

يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 81 .

[6]– اشترط الشيخ الجنتوري أن يكون صرف القاضي للمتقاضين عن مجلسه إلى من يتأمّل ظهور الحقّ عنده في ابتداء التحاكم ، أي قبل انعقاد المقالات . واستدلّ على ذلك بما نقله ابن فرحون في امرأة قامت عند قاضٍ بصداق ولم يتمكّن من معرفة بيّنتها ، فصرفها عن نظره ، وقال لها اذهبي إلى من شئتِ من الحكام فلعلّ غيري يعرف بيّنتكِ ، فاستحسن الفقهاء فعله . يُنظر : المصدر نفسه ، ص 82 .

اختيار القاضي الذي يعتقد ظهور حقّه عنده ، ولا يسوغ له العدول عنه إلى آخر بعد ابتدائه عنده ، فربّ حقٍّ لا يثبت عند حاكم ويثبت عند غيره . ممّا يدلّ على تنوّع المرجعيات القضائية في توات ، والتفاوت المسجّل في الاجتهادات والتأويلات بين القضاة أنفسهم .

د – أنّ الأحكام الصادرة عن القضاة ليست أحكاماً نهائية ، بل هي قابلة للطعن والاستئناف ، والظاهر من خلال النوازل أنّ الفقهاء والعلماء كانوا يمثّلون الجهة المقوّمة والمعدّلة لتلك الأحكام . فكثيراً ما كان المتخاصمون يلجئون لهم لمعرفة مدى شرعية تلك الأحكام من عدمها ، وقد تتمّ مراجعة بعضها من طرفهم فيُرجعونها إلى القضاة مبيّنين أوجه الاعتراض والتقويم [1] .

هـ – افتقدت الجماعة التواتية بيتَ المال الخاص بتمويل عمل القضاة ، لذا جرى العمل من طرفهم بأخذ الأجرة من المحكوم له ، كما أنّ من يرومُ الحصول على نسخة الحكم في قضية معينة ، هو الذي يدفع للقاضي على قدر تعبه وبحثه في الكتب عن تلك القضية [2] ، لذلك كانت حقوقهم وأجورهم تقديرية ، تختلف باختلاف القضاة والقضايا المعروضة [3] .

و – كانت الجلسات القضائية تُعقد في مجالس خاصة ، وبعض الأحيان في المساجد ، حيث يُلزم الخصوم بحضورها ، ومن يمتنع منهم عن ذلك ، يُهدّده القاضي بالحكم عليه غيابياً [4] . إلاّ أنّ بعض القضاة كانوا يتساهلون مع الشهود ويقبلون منهم شهادتهم نقلاً دون الحضور [5] .

ولم ينحصر عمل القضاة في توات على النظر في الأمور الشرعية والدينية فقط ، بل كان يشمل الإشراف على الموازين والمكاييل بالأسواق العامة [6] ، والسهر على تطبيق القوانين وحفظ النظام العام .، إذْ

---

[1] – تحوي النوازل عديد الحالات الدّالة على تلك المراجعات . ومنها رفعُ الشيخ الجنتوري لأحد القضاة كتاباً ببطلان حكمٍ صادرٍ عنه ، وإعلامه بالدعوى وبالمستندات والبراهين من النصوص التي تُبطل ذلك الحكم وتؤكّد صحة الدعوى .، وغيرها من الأمثلة كثير .

يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 74 .

[2] – المصدر نفسه ، ص 83 .

[3] – اعتبر الشيخ الجنتوري التزام القضاة بـ " الصناعة القاضوية " والفصل بين الخصوم مجاناً من الأمور المحرجة المنتفية مع الدين ، لكنه في نفس الوقت أعابَ على بعض القضاة إفراطهم في أخذ الأموال أكثر من أجر تعبهم في كتابة الحكم ونحوه ، فربّ نازلة ـ يقول الشيخ الجنتوري ـ يأخذون عليها العشرات على قدر يُسر المحكوم له وكثرة المال عنده .

يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 82 .

[4] – المصدر نفسه ، ص 82 .

[5] – أجاب الشيخ الجنتوري عن سؤالٍ متعلّق بما يفعله قضاة توات من الحكم على شهادة النقل دون التودية ، بأنّه جهل بالحكم والقضاء .

يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 83 .

[6] – فرج محمود فرج ، المرجع السابق ، ص 45 .

تُشير النوازل إلى اجتماع أهل تينركوك حين عزموا على إقامة سوق كبيرة بالمنطقة ، واتفقوا على أن ينصّبوا فيها قاضياً عدلاً يفصل بينهم بما أنزل الله ، في أمور البيع والشراء ونحوها من التعاملات [1] .

02 – أشهر القضاة خلال القرن 12 هـ [2] :

تناوب على منصب القضاء خلال القرن 12 هـ العديدُ من الشخصيات العلمية ، المنتمية في أغلبها إلى عائلات وبيوتات اشتهرت بتوارث هذا المنصب كابراً عن كابِر ، واحتكاره لسنوات عديدة . وأشهرها على الإطلاق عائلة البكري في تمنطيط [3] ، التي وصفها الشيخ الجنتوري بأنّها دار القضاء في توات قديماً وحديثاً [4] ، وعائلة الجوزي في أولاد سعيد بتيميمون وعائلة البلبالي في تيمي . ومن أعلام القضاء الذين أشارت إليهم النوازل نجد كلاً من :

1 – القاضي سيدي البكري بن عبد الكريم (ت 1133هـ / 1721م) [5] : وردَ اسمه في النوازل مقروناً بلفظ العلاّمة السيد البكري [6] ، وُلد عام 1042هـ / 1632م ، وفقدَ والده بعد ولادته بأربعين يوماً ، فكفله أخوه القاضي امحمد بن عبد الكريم ، وعنه أخذ مبادئ العلوم في الفقه والنحو والمنطق وغيرها . وكان لا يملّ من النظر والمطالعة في الكتب في كلّ الأحيان ، من ليل أو نهار ، ثم انتقل بعد أن شبّ عوده إلى مجلس الشيخ محمد بن محمد بن علي النحوي الأوجروتي ، ومنه حصّل الإجازة في العلوم ، ثمّ خرج في طلب العلم فقصد العديد من البلدان ، وزار الكثير من الأوطان ، مثل مراكش وفاس ، فاستفاد من علماء هذه البلاد وحاز منهم على إجازات علمية ، ثم رجع إلى مسقط رأسه تمنطيط مفتياً ومدرّسا ، ثمّ ما لبث أن فارقها إلى مجلس الشيخ سعيد قدورة بن إبراهيم الجزائري بالجزائر ، إلى أن توفى هذا الأخير ،

---

[1] – عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 91 .

[2] – ما يُلاحظ من خلال النوازل وغيرها استئثار منطقة توات الوسطى بمناصب القضاء وأعلامه ، ووفرة المصادر المترجمة لمآثرهم وأحكامهم ، تليها منطقة تيجورارين بدرجة أقلّ ، وأخيراً منطقة تيدكلت بصفة نادرة .

[3] – يقول أحد الشعراء مادحاً ومبيّناً أفضلية آل البكري في تولّي مناصب القضاء بتوات :

قُضاةٌ وأَبناءُ القُضاةِ وسَـــادةٌ صَغِيرُهمُ عِندَ الكَبِيرةِ كَابِـــرُ

مَتَى تَلْقَ مِنهُمْ ناشِئاً في شَبِيبَةٍ تَجِدْهُ عَلى مِنهَاجِها هُوَ سَائِرُ

يُنظر : عبد الحميد بكري ، المرجع السابق ، ص 143 .

[4] – عبد الرحمن الجنتوري ، رسالة في بيع أصول الهاربين ، ص 18 .

[5] – يُنظر ترجمته في : البكري بن عبد الكريم بن سيدي البكري ، إعلام الإخوان بأخبار بعض السادة الأعيان ، مخطوط بالخزانة البكرية ، ص 06 / ضيف الله بن محمد بن أبّ ، المصدر السابق ، ص 46 / محمد بن عبد الكريم التمنطيطي ، جوهرة المعاني فيما ثبت لدي من علماء الألف الثاني ، مخطوط بالخزانة البكرية ، ص 20 / عبد الحميد بكري ، المرجع السابق ، ص 129 / محمد عبد العزيز سيدي عمر ، قطف الزهرات من أخبار علماء توات ، ط 2 ، الجزائر : دار هومة ، 2002 م ، ص 119 .

[6] – عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 32 .

فرجع الشيخ سيدي البكري إلى توات مجدَّدا ليعاود منها الرحلة قاصدا الحج ، فمرّ بتونس حيث أسّس زاوية اشتهرت باسمه ، ثمّ اتجه نحو طرابلس الغرب ثم إلى مصر حيث استفاد وأفاد ، فأجازه مفتي المالكية بمصر الشيخ أبو عبد الله محمد الخرشي ، ومن الحجاز طاف بالشام فالعراق ، ثمّ رجع إلى الجزائر حيث طاب له المقام بتقرت نحواً من 30 سنة مدرّساً ومُفتياً [1] .

تولّى سيدي البكري قضاء توات بعد وفاة أخيه الكبير امحمد بن عبد الكريم ، في وقتٍ لم يكن له فيه نظير يُزاحمه علماً وفقهاً وحكمةً . فسلَكَ فيه مسلك العدل بين المسلمين ، ولم يقفْ أحد من معاصريه موقفاً سلبياً من سيرته القضائية ، وكان يُفاصِل بالصلح بين من حضر لديه من المتخاصمين في الغالب من أحواله . ومكث على تلك الحال مدة أو دهراً لا يُفاصِل إلاّ بالصلح ، وكان يقول [2] " إنّ توات ضعيفة لا قدرة لأهاليها على حكم الشرع ، لأنّ الصلح بينهم أولى وأصلح لهم ، وأمّا حكم الشرع فلا بدّ فيه من نزع الشيء من أحد الخصمين ، وكلّ من انتُزِع منه ذلك يناله الضرر على كلّ حال " ، وظلّ متميّزاً في أحكامه وحِكمه إلى أن وافته المنية سنة 1133 هـ ، فنعاهُ العلماء ورثاهُ الشعراء بعديد القصائد ، منها [3] :

آهٍ على توات حلّ الوبالُ بهـــا وصارتْ بعدَ نورِ العلم في الظّلَمِ
بموتِ عالمها الحَبرِ الذي انتشرتْ علومُه بأراضي العُربِ والعَجَـــمِ
يا حسرتى لتمنطيط قد افتتنـــتْ بموت نور الوجود قدوةِ العلـــمِ
بحرِ العلومِ الذي قد طاب عنصرُهُ قاضي القضاةِ ومُحيِ دارِسِ الحِكَمِ

2 – القاضي عبد الكريم بن البكري (ت 1174هـ / 1761م) [4] : تولّى قضاء الجماعة بعد وفاة والده سيدي البكري ، فسلك في ذلك مسلك العدل بين الناس ، واقتدى بوالده في بناء سجلاّته وأحكامه على الصلح بين المتخاصمين ، وربما يُرضي المدعّي من ماله ويقول له اسمح في الباقي ، وبقي في القضـــاء حتى أنهكَ المرض جسمه فترك أمرَه وشؤونه لابنه عبد الحق وهذا بعد أن وضع له وصية بليغة ضمّنها فوائد جليلة [5] . وهو من القضاة الذين عاصروا الشيخ الجنتوري وكانت بينهما مراسلات متعلّقة ببعض المسائل

[1]– عبد السلام بلعالم الأسمر ، المرجع السابق ، ص 18 .
[2]– البكري بن عبد الكريم بن سيدي البكري ، المصدر السابق ، ص 07 .
[3]– ضيف الله بن محمد بن أبّ ، المصدر السابق ، ص 53 .
[4]– يُنظر ترجمته في : البكري بن عبد الكريم بن سيدي البكري ، المصدر السابق ، ص 15 / محمد بن عبد الكريم التمنطيطي ، درّة الأقلام ص 37 / عبد الحميد بكري ، المرجع السابق ، ص 154 / محمد عبد العزيز سيدي عمر ، المرجع السابق ، ص 121 / الصديق حاج أحمد ، التاريخ الثقافي لإقليم توات بين القرنين 11 هـ و14 هـ ، ط 01 ، أدرار : طبع مديرية الثقافة ، 2003 م ، ص 79 .
[5]– عبد الحميد بكري ، المرجع السابق ، ص 156 .

والأحكام الصادرة عن القاضي ، حيث ردّ عليه الشيخ الجنتوري في إحداها قائلاً [1] " وبهذا بعينه يُردّ أيضاً على القاضي سيدي عبد الكريم في قوله فيها " ، وقد اشتهر هذا القاضي بكثرة البذل والعطاء ، فكان يُداري عن نفسه وعرضه وعياله وأهل بلده بكلّ ما يمكّن من ذلك ، من أطعمة أو لباس أو نقود وغيره [2] .

وممّا يؤثَر عنه في فضله ومكانته ما نقله صاحب درّة الأقلام مِن أنّه عزمَ على الرحيل إلى فاس ، وفي طريقه التقى جيشاً عظيماً من البرابر ، فسألهم عن مقصدهم فأخبروه أنهم يريدون غزو بعض قُرى توات ، فعرض عليهم جميع ما يملكه من العبيد والدواب مقابل الرجوع عن ذلك ، لكنهم رفضوا ، فقال لهم أبيعكم نفسي فيحصل لكم مُرادكم بثمنها ، فقالوا كيف السبيل إلى ذلك ومَن يشتريك ؟ فقال : سلطان المغرب المولى عبد الله بن مولاي إسماعيل ، فوقع الاتفاق على ذلك . وبعد دخول الجمع على سلطان المغرب وإخباره ، خاطبه قائلاً : نِعمَ الرجل أنت حقنَ بك الله دماء المسلمين ، فشكره وأجزل عطاءه [3] .

3 – القاضي عبد الحق بن عبد الكريم بن البكري (ت 1210هـ / 1796م) [4] : أخذ العلم عن والده وعن الشيخ عبد الرحمان بن عمر التنلاني تلميذ الشيخ الجنتوري ، وعن الشيخ عمر بن مصطفى الرقادي الكنتي وعن ابن عمّه الشيخ عبد الكريم الحاجب . جدَّ في طلب العلم واجتهد ، ما أهلّه لتولي خطّة القضاء بعد وفاة والده الذي أتحفه بوصية بليغة جاء فيها [5] " إني ولّيتُك هذا الأمر الذي يُضاعَف فيه للمحسِن ثواباً وللمسيء عقاباً ، ولم يكن الباعث على ذلك حبّ الوالد لولده ، وإنما هو لِما تبيَّن لي من ظاهر أمرك ، والله أعلم بسرائرك ، ... فالزم الحق يُنزلك الله منازل أهل الحق ، يوم لا يُقضى بين الناس إلا بالحق وهم لا يظلمون ، وطهِّر يدَك عن إضرار المسلمين وبطنَك عن أموالهم ولسانَك عن أعراضهم ، فإذا فعلتَ ذلك فليس عليك سبيل ... وإيّاك وبطانة السوء ، وحسِّن ظنّك بالمسلمين وصُن أذنك عن أخبارهم تَسْلَمْ من عداوتهم ، وأوفِ لذي الحقوق حقوقهم تُعَنْ عليهم وتستجلبْ مودتهم ، وشاور ذوي العقل والدين يسلم لك دينك ويقلّ عتابهم عليك ، وتجاوز عن هفوات ذوي الهفوات يقلّ ندمك ، وتأنّ في الحكم يندر خطؤك ، واصبر عل ما تكره تصل إلى ما تحبّ بسلام " . فظهر بتوفيقِ الله ونصحِ والده

---

[1]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 77 .

[2]– البكري بن عبد الكريم بن سيدي البكري ، المصدر السابق ، ص 15 .

[3]– محمد بن عبد الكريم التمنطيطي ، درّة الأقلام ، ص 37 .

[4]– كُتب اسمه في بعض المصادر " القاضي سيدي محمد عبد الحق بن القاضي سيدي محمد عبد الكريم بن القاضي سيدي الحاج محمد البكري " . يُنظر : عبد القادر بن عمر المهداوي ، الدرّة الفاخرة في ذكر المشايخ التواتية ، ص 13 / البكري بن عبد الكريم بن سيدي البكري ، المصدر السابق ، ص 17 / عبد الحميد بكري ، المرجع السابق ، ص 157 / فرج محمود فرج ، المرجع السابق ، ص 47 / محمد عبد العزيز سيدي عمر ، المرجع السابق ، ص 125 .

[5]– محمد عبد العزيز سيدي عمر ، المرجع السابق ، ص 125 .

عدلُه وانتشر في البلاد فضله ، وكانت له في ميزان قوانين الشريعة عزائم ، لا تأخذه معها في الله لومة لائم وعضّد علمه وتقواه بتعلّم اللهجات السائدة في توات وما جاورها ، مثل الزناتية والتارقية والتكرورية ، وحين سئل عن ذلك قال [1] " من ولي أمور المسلمين يجب في حقّه أكثر من ذلك " .

وقد جاء في نوازل الشيخ الجنتوري أنّ القاضي عبد الحق كان حريصاً على مُكاتبة العلماء والفقهاء ، طالباً منهم المعونة على إحياء السنة وإماتة البدعة [2] ، ولأجل ذلك سَنّ في القضاء التواتي سُنّة حسنة ، وصنعَ أمراً لم يسبقه إليه منْ كان قبله ، بأنْ شكّل مجلساً استشارياً رُباعياً ، ضمّ خيرة العلماء والفقهاء في توات ـ حينئذٍ ـ وهم الشيخ محمد بن العالم الزجلاوي والشيخ عبد الرحمان بن عمر التنلاني والشيخ عبد الكريم الحاجب والشيخ محمد بن الحاج عبد الله البلبالي ، حيث كان القاضي عبد الحق يعمدُ إلى كتابة المسائل والقضايا المعقّدة في أربع نُسَخ ، ويُحيلها إلى هؤولاء المستشارين وينتظر الردّ كتابياً . وحين ترِدُ عليه الردود في مركز قضائه بتمنطيط ، يقوم بمقارنتها ومِن ثَمَّ مقاربتها وتخريج الأحكام المناسبة [3] . وظلّ ذلك دأبه وعهده حتى وافته المنية وهو محرِم في صلاة الصبح من ذي القعدة عام 1210هـ / 1796م [4] .

4 – القاضي أبو حفص عمر بن عبد القادر التنلاني (ت 1152هـ / 1739م) [5] : وهو من شيوخ توات الأجلاّء الذين أخذ عنهم الشيخ الجنتوري وأقرّ بفضلهم ، وردَت الإشارة إليه في النوازل باسم سيدي عمر الأكبر [6] ، اشتهر بالفقه والإفتاء ، وانتهت إليه الرياسة في ذلك على عموم توات ، وكان قد درّس في جامع القرويين بفاس نحو ثلاث عشرة سنة [7] ، ثم غادرها عائدا إلى تنلان بأرض توات سنة 1129هـ / 1717م ، حيث تولى قضاء الجماعة في الفترة التي انتصب فيها عبد الكريم بن البكري ـ سالف الذكر ـ قاضياً ، ولعلّ مردّ ذلك كثرة القضايا والخصومات ، والرغبة في كسر احتكار تمنطيط دار القضاء ، لكنه ما لبث أن تخلّى عن القضاء وزهد فيه ، ومال في آخر حياته إلى التصوف والزهد [8] .

---

[1] – عبد السلام بلعالم الأسمر ، المرجع السابق ، ص 19 .

[2] – عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 10 .

[3] – حليمة كحلاوي ومريم نيكلو ، تاريخ القضاء بتوات الوسطى من النشأة إلى نهاية ق 13 هـ ، مذكرة تخرّج لنيل شهادة ليسانس في التاريخ ، إشراف : حمادي بن موسى ، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية ، جامعة أدرار ، 2006 / 2007 م ، ص 67 .

[4] – عبد الحميد بكري ، المرجع السابق ، ص 161 .

[5] – يُنظر ترجمته في : عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، فهرسة الشيوخ ، تحقيق : عبد الرحمن باعثمان ، ص 78 / ضيف الله بن محمد بن أبّ المصدر السابق ، ص 64 / محمد بن عبد الكريم التمنطيطي ، جوهرة المعاني ، ص 14 / محمد عبد العزيز سيدي عمر ، المرجع السابق ص 83 / عبد الحميد بكري ، المرجع السابق ، ص 80 .

[6] – عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 65 .

[7] – محمد عبد العزيز سيدي عمر ، المرجع السابق ص 83 .

[8] – عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، فهرسة الشيوخ ، ص 86 .

5 – القاضي محمد بن عبد الرحمان الشهير بسيد الحاج البلبالي (ت 1244هـ / 1828م) [1] :

ذُكِر في النوازل أنّه تتلمذ على يد عبد الرحمن بن عمر التنلاني [2] ، أقرب العلماء إلى الشيخ الجنتوري . كان شيخاً عارفاً مجتهداً ملازماً للتدريس والمطالعة . لازم الشيخ عبد الرحمان بن عمر التنلاني فأخذ عنه علماً جمّاً ، ثم انتقل إلى مدرسة الشيخ امحمد بن عبد الله الونقالي ، فكان من التلاميذ المبرزين لجِدّه واجتهاده ، ما أهله لتولي الخطابة بجامع أولاد علي بن موسى من قصور تمنطيط ، ولما توفى القاضي عبد الحق بن عبد الكريم استخلفه القوم على خطّة القضاء ، فسار في الناس سيرة العدل والإنصاف ، وطالب بدواوين سجلات مشاورات القاضي عبد الحق واعتكف على جمع مباحثها وأحكامها وأضاف إلى ذلك ما ثبت تحقيقه لديه من حوادث الأمور التي نتجت بها قريحته [3] .

لكن الوفاة عاجلت القاضي سيد الحاج قبل أن يبلغ مرامه ، ليواصل مسيرته بعده ابنُه الشيخ سيدي محمد عبد العزيز البلبالي ، الذي تولى القضاء بعد أبيه وأكمل جمع وترتيب تلك الفتاوى والنوازل ، واشتهرت لاحقاً باسم نوازل الغنية . وقد رثى الشاعر يوسف بن عبد الحفيظ بن يوسف التنلاني القاضي سيد الحاج بقصيدة رائعة جاء في بعض أبياتها ما يلي [4] :

انسَ نديمك بالصبابة وانشـــدِ ... بعد المدام قريضك المتجـــوّدِ
شرقت بوازع عصره ببزوغـــــه ... قد كان ديدنه الجهاد بـــلا دَدِ
هجر الكرى حتى تمسك بالعـرى ... فسما ومن طلب العلى لا يرقدِ
حكم الحكومة قسطها قسطاطها ... ورئيسها المنهج السوي لمن هُـدِ
شيخ الورى البلباليُ العلَمُ الـــذي ... هاجت عليه بلابلي وتجلّـــدي
اعلم بأنك قد علوتَ على الورى ... فاصعد على أعلى المكارم تسعدِ

6 – القاضي محمد الجوزي بن امحمد (ت 1177هـ / 1763م) [5] : هو محمد الجوزي بن القاضي امحمد عبد الرحمان بن القاضي محمد الجوزي (الجدّ) بن القاضي امحمد عبد الله بن القاضي عبد

---

[1]– يُنظر ترجمته في : محمد بن عبد الرحمن البلبالي ، غنية المقتصد السائل فيما حل بتوات منذ النوازل ، ترتيب : أحمد الحبيب البلبالي ، المقدمة / محمد بن عبد الكريم التمنطيطي ، جوهرة المعاني ، ص 31 / محمد عبد العزيز سيدي عمر ، المرجع السابق ، ص 47 / عبد الحميد بكري ، المرجع السابق ، ص 98 .

[2]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 85 .

[3]– عبد السلام بلعالم الأسمر ، المرجع السابق ، ص 20 .

[4]– محمد عبد العزيز سيدي عمر ، المرجع السابق ، ص 48 .

[5]– يُنظر ترجمته في : عبد الرحمن الجوزي ، ذاكرة الماضي في أعلام أولاد القاضي ، مرقونة معدّة للطبع .

الكريم بن القاضي أحمد بن القاضي محمد المسعود [1] ، فهو سليل أسرة آل الجوزي النازلة بقصر أولاد سعيد من قرى تيميمون ، والتي توارثت القضاء بالمنطقة جيلاً بعد جيل ، فعُرف أبناؤها باسم " أولاد القاضي " .

عاصر هذا القاضي الشيخ الجنتوري زماناً ومكاناً ، حيث ولي القضاء في منطقة تيكورارين ، وكانت بعض أحكامه القضائية محلّ نقاش ومكاتبة بين الشيخ الجنتوري وتلميذه القاضي الحاج محمد عبد العزيز ، ومنها ما يتعلّق بالتدليل والإعذار في قضية أخوين لأحدهما على الآخر تباعة ، وقد بيّن في رسالته لتلميذه ما يحيط بمجريات تلك القضية ، وما حكم به القاضي المذكور محمد الجوزي [2] .

7 – القاضي محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الكريم (ت 1192هـ / 1778م) [3] : وصفه ضيف الله بن أبّ في رحلته أنّه كان [4] " عالماً متفنّناً ذا بحثٍ حَسَنٍ وتحقيق ، وهو من أشياخ العلامة القاضي سيدي محمد عبد الحق ، ويعتمد على فتواه كثيراً ، ذا يسارٍ كثير وجود وسماحة ، لا يفضلُه أحد في زمانه من عَقِب جدّه الأكبر الشيخ سيدي عبد الكريم في العلم من أقرانه " .

استقرّ الشيخ محمد بن عبد الله بتيميمون ، بعد وفاة والده بها ، واختاره أهلها قاضياً عليهم ، حاكماً بينهم بما أنزل الله ، فلزِمَ حكمُه كلَّ من رضيه يوم إقامته [5] . وفضلاً عن ذلك فقد كان رابعَ أربعة يستشيرهم القاضي محمد عبد الحق البكري ، رغم إقامته بعيداً عنه بالبلاد القرارية .

وبحكم أنّ الشيخ الجنتوري عاش معظم حياته مستقراً بمنطقة تيكورارين (القرارة) ، فقد تفرّد بالإشارة إلى قضاة آخرين غير مشهورين ، شمل مجال قضائهم قصور تلك المنطقة ، على غرار تلميذه الوفي القاضي محمد عبد العزيز المسعدي القراري ، والقاضي سيدي عبد الله بن الزبير [6] .

03 – نماذج عن القضايا المعروضة :

فصَلَ القضاة التواتيون وأصدروا أحكاماً متباينة في قضايا من مجالات متعددة ، اجتماعية واقتصادية وثقافية على وجه الخصوص ، وقد رصد الشيخ الجنتوري بعضاً منها في نوازل القضاء والشهادة كما يلي :

أ – القضايا الاجتماعية : يغلب عليها الطابع العائلي كقضايا الأحوال الشخصية حديثاً ، المتضمنة أمور الطلاق والزواج والنفقة والخلافات الزوجية حول الأملاك وما شابهها . ومن أمثلة ذلك حكمُ قاضي الوقت

---

[1]– حميدة بن زيطة ، ترجمة القاضي محمد بن عبد الله بن الجوزي ، ملتقى أعلام توات ، ص 29 .

[2]– عبد الرحمن الجنتوري ، نوازل الجنتوري ، النسخة ب ، ص 02 .

[3]– يُنظر ترجمته في : ضيف الله بن محمد بن أبّ المصدر السابق ، ص 34 / الصديق حاج أحمد ، المرجع السابق ، ص 81 .

[4]– ضيف الله بن محمد بن أبّ ، المصدر السابق ، ص 34 .

[5]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 91 .

[6]– المصدر نفسه ، المصدر السابق ، ص 73 .

ـ دون ذكر اسمه ـ بفسخ إحدى الزيجات لأسباب بعينها ، لكنّ الشيخ الجنتوري عقّب على ذلك الحكم الصادر من قِبَل القاضي بأنّه فاسد ، وأنّ النكاح صحيح ولا يُفسخ [1] . ومنها قيام القاضي بمنع بعض الورثة من تملّك الميراث حتى يتمّ أداء الديون المترتّبة على المتوفى ، إذ لا ميراث إلاّ بعد أداء الدَّيْن [2] . ومن أمثلة الخلافات الاجتماعية كتابة أحد القضاة لمدين بأن يؤدي ما بذمته لغريمه ، وإلا دلّل عليه بعد انقضاء أجل الإعذار ، ومن ثمّ الشروع في تنفيذ الحكم الصادر ضده [3] .

ب – القضايا الاقتصادية : اشتملت على الأمور المرتبطة بعقود البيع والشراء والتعاملات المختلفة ، وكذا ما يتعلق بالممارسات الزراعية والملكيات المشتركة ، فقد كانت مدعاة لكثرة الشكاوى والخلافات بين الناس وبخاصة مراكز القوافل التجارية والأسواق المحلية ، حيث أقام لها أعيان البلد قضاة متخصصين قارّين [4] ، ومن أمثلتها تعقّب أحد القضاة لِما اشتراه وصيٌّ من مال يتيمه ، وحكمه بإمضاء الشراء بعد أن تبيّن له سداده [5] . ومنها قضية بيع نصيب من الماء بين متخاصمين طال نزاعهما عند القاضي ، فندبهما للصلح على شرطٍ يؤدّيه أحدهما لصاحبه [6] . ومنها كذلك بيوع متعلقة ببعض الأطعمة أو تقويمها بسعر معيّن [7] ،

كما تضمّنت النوازل قضايا مرتبطة بطبيعة عمل القضاة واختصاصاتهم في حدّ ذاتهم ، ومنها مثلاً أن يقوم القاضي بشراء ما باع بالمزايدة على غائب أو مفلس أو طفل من مبتاعه [8] .

04 – مآخذ على القضاة :

عدّ الشيخ الجنتوري في نوازله جملة من العيوب والمآخذ على قضاة توات بلغت العشَرَة ، وإن كان قد وسَمَهم على الغالب بالحيف والجور ، مبرّراً ذلك الوصف القاسي بقوة التهمة في قضاة زمانه [9] ، وتضمّنت

---

[1]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 09 .

[2]– المصدر نفسه ، ص 24 .

[3]– المصدر نفسه ، ص 39 .

[4]– المصدر نفسه ، ص 91 .

[5]– المصدر نفسه ، ص 40 .

[6]– أفتى الشيخ الجنتوري ببطلان ذلك الصلح ، لعدم جواز بيع الماء ، لأنّه قائم على ترك الخدمة في تلك القضية .
يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 21 .

[7]– المصدر نفسه ، ص 24 .

[8]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 47 .

[9]– وضّح الشيخ الجنتوري ما كان يقصده بجور القضاة وحيفهم من خلاله تبيانه ما عاينه أو نُقِل له عنهم من ممارسات سلبية ، تتنافى وأصول مهنة القضاء قائلاً " والجور هو الميل عن الحقّ لرشوة أو عداوة أو صداقة أو حميّة أو قرابة ونحوها ، وحكم الجائر كالغاصب " .
يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 83 .

تلك المآخذ ما غلط فيه قضاة البلاد القرارية بصفة خاصة وشاع بينهم ، دون أن يغفل توضيح الصواب المنصوص عليه في أمّهات الكتب الفقهية المالكية . ويمكن استقراء تلك الأغلاط على النحو التالي [1] :

– الكتابة إلى الخصم وطلب حضوره ، فإنْ أبى حُكِم عليه وأُبطلت حججُه .

– المبالغة في أخذ الأجرة ، وسعي البعض إلى اكتساب الكنوز من القضاء .

– الحكم للوصي بمحاسبة محجوره ، في طلوعه وهبوطه وحفظه وحراسته ووقوفه ونحو ذلك .

– قولهم أن شهادة السماع لا ينتزع به من يد حائز .

– الحكم على شهادة النقل دون التودية ، والشهادة لا تُنقل إلا عن ميت أو غائب .

– بيع أراضي الغائب أو اليتيم بحجة المصلحة العامة ، أو أن المشتري يريد البناء فيها أو الغرس .

– الركون في بعض الأحكام إلى العرف المخالف للشرع ، بل أصله جهل القضاة .

– الكِبر والتصامم عن سماع نصائح الفقهاء ، وإغلاظ بعضهم في القول .

– الإغفال عن تسجيل التاريخ أو تناسيه ، وعدم القدح في الحقّ المقرّر في الشيء من ذمّة وغيرها .

– الإفراط في استغلال سلطة القضاء ، خاصة ضدّ من ثبتت عداوته لهم .

والظاهر أنّ تلك النظرة المتشائمة من أداء القضاة لم تكن حكراً على فقهاء توات وحدهم في تلك الفترة ، فقد وصفَ الشاعر الشنقيطي السالك بن باب العلوي قضاة عصره قائلاً [2] :

قضاةُ العَصرِ طُرّاً جَائِرونا وعنْ نَهجِ الحقيقةِ مَائِلونا

تَراهُمْ كاتِبينَ لمنْ أتَاهُـــمْ وَلم يَخشوا كِراماً كَاتِبينـــا

[1] – عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، نوازل القضاء والشهادة كلّها .

[2] – أحمد الأمين الشنقيطي ، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ، ط 01 ، القاهرة : مطبعة الكتبي وشركاه ، 1920 م ، ص 501 .

خلاصة الفصل الثالث

نستنتج من خلال ما تمّ استعراضه ضمن هذا الفصل بأنّ المجتمع التواتي ثري ومتنوع ، حيث ألمحت النوازل إلى مكوّناته العرقية وطبقاته المعيشية . وبأن ذلك التفاوت الطبقي لم يكن مدعاة للإخلال بنظام الجماعة ، أو سبباً في تولّد مظاهر الترهّل والتداعي ، حيث شكلت تلك الطبقات وحدات اجتماعية منسجمة ، ضمن إطارٍ بنيوي ووظيفي جامع .

كما صوّرت لنا نوازل الشيخ الجنتوري جانباً هاماً من العلاقات البينية العائلية ، التي تميزت بالاحترام والتقدير المتبادل بين أفرادها ، ومظاهر التضامن والتكافل داخل المجتمع ، والتي بيّنت بأنّ المصلحة العامة والإفادة الشاملة كانت شعار التواتيين ودَيْدَنهم في جميع المناحي المعيشية . أمّا الأحباس فإنّ دورها تنامى داخل المجتمع ، فسادت الأوقاف الخاصة والعامة ، وساد بذلك النّفع على الجميع .

وتؤكّد النوازل كذلك تلك الصورة التي طالما وُسم بها المجتمع التواتي ، وهي أنه مجتمع محافظ أصيل ، تؤدي فيه العادات والتقاليد والأعراف دوراً بارزاً ، إذْ تستمد سلطتها من سيادة المذهب المالكي بالإقليم التواتي . فأضحت بذلك مصدراً هاماً من مصادر التشريع ، رغم أنها . أي العادات . أخذت في بعض الحالات مظاهر سلبية ، تمثلت في تفشي بعض الآفات الاجتماعية والمعاملات غير المشروعة وظاهرة التعدي على أملاك الآخرين وغيرها .

وممّا هو جدير بالملاحظة ، ما استنتجتُه من خلال النوازل من شؤون المرأة ومكانتها داخل المجتمع التواتي ، حيث حظيتْ بحقوقها مثل الرجل ، وحرصَ الأعيان والعلماء التواتيون على إيفائها نصيبها من العناية ورفع الغبن ، بعدما فرضت نفسها مكوّنا فاعلاً لا غنى عنه ، يساهم في بناء أسس الأسرة وصرح المجتمع ، متجاوزاً العقبات والمشاكل الناشئة بفعل ذلك الدور وتلك المكانة .

أمّا النظام القضائي في توات فالظاهر عليه الإحكام ، من خلال وضع جملة من المبادئ والأسس المتعلقة بوظيفة القضاء ومواصفات القاضي . كما أنّ ثراء المجتمع التواتي وتباين مكوّناته ساهما في تنوّع القضايا المعروضة وتعدد مجالاتها ، رغم العيوب والمآخذ التي سجّلها الشيخ الجنتوري في نوازله على القضاة التواتيين .

الفصل الرابع

التطور الفكري والثقافي خلال القرن 12 هـ

– تمهيد

المبحث الأول : مواطن الفكر والتعليم ومدارسهما

سيتناول هذا المبحث بوادر وخلفيات النهضة الثقافية الحادثة بإقليم توات ، من خلال استعراض المحطات الثقافية الهامة ، والتعرّف على أشهر الأعلام الذين ساهموا في نشر العلم والمعرفة ، وعلى العلماء الوافدين عليه من مختلف الجهات ، ومن خلال إحصاء الزوايا والمراكز العلمية خلال القرن 12 هـ ، والامتدادات الخارجية لتلك النهضة الثقافية ، من خلال العلاقات الفكرية الوطيدة مع الحواضر المجاورة وعلى رأسها : فاس ، تونس ، تلمسان وتمبكتو ، مع رصدٍ لأهمّ العلوم والفنون المدرَّسة حينئذ .

المبحث الثاني : أشهر الأعلام من خلال النوازل

يُترجم هذا المبحث لأشهر الأعلام التواتيين الذين وردت أسماؤهم في نوازل الشيخ الجنتوري ، من خلال الفتاوى والآراء المنسوبة إليهم ، وهم الشيوخ : عبد الرحمن بن عمر التنلاني ومحمد بن أبّ المزمّري وعمر بن عبد القادر التنلاني ومحمد بن عبد الرحمن بن بعمر ، ومعظمهم ارتبط بالشيخ الجنتوري صداقةً أو دراسة وتعليماً .

المبحث الثالث : الرحلات والمناظرات العلمية

يتناول هذا المبحث الأخير تطور فنَّي الرحلات والمناظرات العلمية في توات ، وتنوّع الرحلات ما بين حجازية وعلمية ، وأشهر الرحّالة التواتيين وما سجّلوه في تنقلاتهم وأسفارهم ، ويستعرض بواكير المناظرات والمراسلات العلمية الحادثة ، وصولاً إلى أشهرها خلال القرن 12 هـ ، انطلاقاً من ورود إشارات ضمن النوازل تشير إلى شيوع وتطور هذا الفن .

– خلاصة الفصل

الفصل الرابع : التطور الفكري والثقافي خلال القرن 12 هـ

كنتُ قد تناولتُ في الفصل السابق مظاهر الحياة الاجتماعية بالإقليم التواتي خلال القرن 12 هـ من خلال ما رصدته النوازل ، من تمايزِ تركيبة المجتمع ومكوّناته ، والمرأة ومكانتها ، والقضاء ونظامه . ولا شكّ أن تلك الحيوية الاجتماعية ذات الأوجه المتعددة ستنعكس إيجاباً على الواقع الثقافي والفكري بالمنطقة وهذا ما سأعمل ـ جاهداً ـ على محاولة تحصيل مسيرته وتعقّب آثار تطوّره في مباحث هذا الفصل . بدءاً بالتعرّف على مكامن الحِراك الثقافي ومواطنه ، المتمثلة في الزوايا والمدارس والعوائل التي أشارت النوازل إلى بعضها ، واحتكاكها الخارجي تأثيراً وتأثراً بالحواضر الإقليمية ، التي بالكاد يستطيع المرءُ فكَّ ارتباطها بالحواضر التواتية المحلية ، بفضل آثار وجهود العلماء والأعلام ، روافد الفكر والمعرفة ، الذين ساهموا في رفع راية الإقليم في المحافل والجوامع العلمية شمالاً وجنوباً . وختاماً أُسلّط الضوء على بعض الظواهر الفكرية الشائعة ، الدّالة على فعالية وتطوّر المشهد الثقافي ، وعلى رأسها ظاهرة الرحلات العلمية داخلياً وخارجياً ، وأسلوب المراسلات والمناظرات الجدلية الفكرية القائم على المنطق والحجة القاطعة .

المبحث الأول : مواطن الفكر والتعليم ومدارسهما

01 – بوادر وخلفيات النهضة الثقافية الحادثة في توات :

امتدت جذور النهضة الثقافية الشاملة التي شهدتها توات في القرن 12 هـ إلى معطيات وتراكمات سبقت ذلك الزمن ، لأن الحاصل لم يكن لينبعث من عدم ، وذلك من خلال ما خلّفه العلماء والفقهاء الذين وطئت أقدامهم الأراضي التواتية ، حين آثروا الهجرة إليها والاستقرار بها والعطاء والإبداع في فلكها ، والتفاعل مع الحركية الثقافية المتولّدة ذاتياً الناشئة بها ، فتركوا بصماتهم وآثارهم راسخة في متون التآليف والتصانيف ، وفي صدور الرجال على مرّ الأجيال .

من أوائل أولئك العلماء الوافدين على الديار التواتية ، القاضي أبو يحي بن محمد المنياري (ت 840هـ / 1436م) من المغرب ، حيث استقرّ بتمنطيط فأسّس بها مدرسة لنشر العلم والمعرفة بين الطلبة المنتسبين ، ووحّد مقادير المكاييل والموازين وضبط قوانين الشرع [1] . ثمّ الشيخ يحي بن يدير بن عتيق التدلسي (ت 877هـ / 1472م) ، الذي اجتهد في تكريس مبادئ اللغة العربية ، وتدريس الفقه المالكي معتمداً على مصنفات المذهب كالمدونة ومختصر ابن الحاجب والموطأ وغيرها ، فأثرى بذلك الساحة العلمية في عموم الإقليم ، ومن ثَمّ اتّفق أهل تمنطيط على توليته قضاء الجماعة للفصل في الخصومات [2] .

---

[1] – محمد بن عبد الكريم التمنطيطي ، درّة الأقلام ، ص 18 .

[2] – أحمد الحمدي ، المرجع السابق ، ص 67 .

ومن الشخصيات العلمية التي أثّرت وأثَّرت في الواقع الثقافي العلمي ، رموز العائلة العصنونية تدريساً وإفتاءً وقضاءً ، خاصة الشيخ عبد الله بن أبي بكر العصنوني ، ثمّ خليفته ابن أخيه سالم العصنوني ، وقد ذاع صيت الشيخ العصنوني إثر السجال الحاد بينه وبين الشيخ المغيلي (ت 909هـ / 1503م) ، حول نازلة اليهود وهدم بِيَعهم في توات [1] ، والذي تجاوز صداه الحدود التواتية إلى فاس وتلمسان وتونس وغيرها من كبريات الحواضر الإسلامية ، وشغل العلماء والمشائخ المغاربة ، في ما يمكن اعتباره تدويلاً ثقافياً فكرياً لتلك النازلة التواتية . وكان المغيلي نفسه قد أثنى على علماء توات وعلومها قائلاً "...ودخلنا توات فوجدناها ديار علم ومقرّ أكابر وأعلام ، فانتفعتُ بهم وانتفعوا بنا " [2] .

أمّا التحوّل الكبير الذي مهّد لديمومةٍ علمية ، طبعت توات في القرنين 10 و 11 الهجريين ، فهو نبوغ وتميّز العائلة البكرية ، بعد أن وضع الشيخ ميمون بن عمرو بن محمد بن عمرو البازي (ت 900هـ / 1495م) حجر أساسها في تمنطيط خلفاً لأبيه عمرو بن محمد . ويُعتبر هذا الشيخ أول من أدخل مختصر خليل إلى توات ، بعدما أجاب في نازلة طُرحت عليه بما يحفظ عن شيخه ابن غازي المكناسي ، لكنّ إجابته لم تلقَ قبولا من طلبة توات في مجلس الشيخ العصنوني ، فرحل إلى فاس وجاء بالمختصر فدرّسه ودارسه مع الطلبة ، فاستحسنوه وعكفوا على دراسته وإشاعته في ربوع توات [3] .

وقد تولّد عن المصاهرة الحاصلة بين العائلتين المشهورتين بالعلم البكرية والعصنونية ظهور علماء أفذاذ ساهموا في وصلِ عُرى الاجتهاد الفكري في توات وتكريس تطوره ، على رأسهم العالم عبد الكريم بن امحمد رائد الحركة العلمية في البلاد التواتية خلال القرن الـ 11 هـ بلا منازع ، حيث تضلّع في علوم القرآن والتجويد والحساب والفرائض والنحو والشعر وغيرها من الفنون ، فاستحقّ لقب " عالم توات في زمانه " الذي أطلقه عليه أبو سالم العياشي في رحلته [4] .

---

[1]– انقسم العلماء المغاربة بسبب تلك النازلة إلى قسمين ، قسم مؤيّد للمغيلي في هدم كنائس اليهود ، وقسم مؤازر للعصنوني في تقريرها . يُنظر : أحمد بن يحي الونشريسي ، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل أفريقية والأندلس والمغرب ، ط 01 ، تقديم : محمد حجي بيروت : دار الغرب الإسلامي ، 1981 م ، ج 02 ، ص ص : 214 . 260 .

[2]– الصديق حاج أحمد ، المرجع السابق ، ص 50 .

[3]– ورد في مخطوط درة الأقلام أنّ مضمون المراجعة التي تمّت بين الشيخ ميمون والعلماء يتعلق برجل اشترى أَمَة من بائعها على أنها ثيّب فإذا بها بكر ، فأفتى عامة أهل العلم بعدم الرد ، إذ البكر أفضل من الثيب ، وقالوا إنما يقع الرد إذا وقع العكس ، لكن الشيخ خالفهم ، وأفتى بالرد ، جاعلاً حجته ما نقله عن شيخه ابن غازي ، فجاهروه بالتكذيب حيث لم يستند في دليله إلى رواية كتاب ، فسافر الشيخ إلى فاس ووجد الأمر مبسوطاً في مختصر خليل ، فاشتراه بأربعين مثقالا ذهباً وقدم به إلى توات ، فكان أول من أدخل مختصر خليل إليها . ينظر : محمد بن عبد الكريم التمنطيطي ، درّة الأقلام ، ص 31 .

[4]– أبو سالم العياشي ، المصدر السابق ، ج 01 ، ص 120 .

وقد تميّز " عالم توات في زمانه " الشيخ عبد الكريم بن امحمد بكثرة التآليف [1] ، التي حفظت علومه وأشاعتها بين الطلبة في القصور والأمصار ، وضمنت الانتفاع بها وعدم انقطاع عمل صاحبها بعد وفاته . لا يزال معظمها مخطوطاً في خزائن آل البكري بتمنطيط ، ومنها " غاية الأمل في إعراب الجمل " ، وهو شرح على لامية ابن المجراد ، و " تحفة المجتاز إلى معالم أرض الحجاز " في فضائل الحج والعمرة وآداب السفر إلى تلك البقاع وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، و " شقائق النعمان في من جاوز المائة بزمان " في ذكر المعمّرين في الإسلام نظماً ، و " سفينة النجاة بأهل المناجاة " ، وهي قصيدة في التوسّل بأولياء الله الصالحين ، و " الرحلة في طلب العلم " [2] ، حيث تعرّض فيه إلى جوانب من حياته اليومية وذكر شيوخه الذين تلقّى عنهم العلم .

وممّا يدلّ كذلك على وجود حركية علمية ناشئة قبل القرن 12 هـ ، الاهتمام بالعلماء والثناء على علومهم وعلى ما يحوزونه من الكتب القيّمة ، ومنها ما تناقلته المصادر عن وجود مكتبة عظيمة مليئة بالكتب من مختلف صنوف العلم في أوكروت ببلاد تيكورارين ، تُنسب إلى العالم الرحّالة محمد بن إسماعيل (ت 1064هـ / 1654م) [3] . وهي كتب نفيسة جدا جاوزتْ ألفاً وخمسمائة تأليف ، اقتنى أكثرها لما كان بمدينة اسطنبول التركية ، اشتراها له الوزير الأعظم العثماني بسبب حكاية وقعت له معه قبل أن يتولى الوزارة . لكنّ معظم تلك الكتب تلاشى بعد وفاة هذا الشيخ بأوكروت ، عدا ما أُرسِل منها إلى المدينة المنورة تنفيذاً لوصيته [4] .

وبالإضافة إلى التصانيف والمكتبات والشيوخ والقضاة ، ساهمت قوافل التجّار والمسافرين والحجاج العابرة للصحراء في ربط إقليم توات بشبكة معرفية متجددة ، ومواكبة آخر التطورات العلمية والقضايا الفقهية الجدلية ، ومسايرة آراء علماء المشرق والمغرب في مختلف القضايا ، رغم بُعد الإقليم عن مراكز العمران والحضارة والثقافة [5] ، ممّا مهّدَ الطريق أمام تبلور حركة علمية شاملة ، وزخم ثقافي هام .

---

[1]– ذُكِرتْ تلك التصانيف في المصادر المحلية مثل جوهرة المعاني ورحلة ضيف الله بن محمد بن أبّ المزمري .

[2]– قام بتحقيقها عبد الحميد بكري تحت عنوان " الرحلة في طلب العلم للشيخ سيدي عبد الكريم بن امحمد " ، عن دار الغرب بوهران .

[3]– **محمد بن إسماعيل المسناوي** أعجوبة زمانه ونادرة وقته وأوانه ، حصّل العديد من العلوم الشرعية وجال البلاد شرقاً وغرباً ، فلم يدعْ المغرب الأقصى ولا إفريقية وبلاد السودان ، وأقام بمصر والحجاز واليمن والعراق وتركيا ، حيث التقى العديد من المشائخ ، ثمّ انتسب إلى الطريقة القادرية ودخل في جملة أتباعها ، اشتهر بالسخاء والدهاء وعلوّ الهمة ، لولا ما ابتُلي به من وسوسة الإمارة وادّعاء المهدوية .
يُنظر : محمد حجي ، موسوعة أعلام المغرب ، ج 04 ، ص 1456 / محمد الصغير اليُفراني ، صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر ، ط 01 ، الدار البيضاء : مركز التراث الثقافي المغربي ، 2004 م ، ص 221 .

[4]– أبو سالم العياشي ، المصدر السابق ، ج 01 ، ص 108 .

[5]– فرج محمود فرج ، المرجع السابق ، ص 15 .

02 – الزوايا [1] والمراكز العلمية خلال القرن 12 هـ :

مع بداية القرن الثاني عشر الهجري ، بدأت جهود العلماء والشيوخ الوافدين على المنطقة ، المتفاعلة مع تحصيل الطلبة المجتهدين تؤتي أكلها ، حيث ظهرت عدة مراكز وزوايا ساهمت في تنشيط الحركة العلمية والفكرية . وهي حركية عامة شملت الجزائر بأسرها خلال تلك الفترة ، وطبعت توات بطابع خاص ، حيث حرص الكتّاب والمؤرخون التواتيون على التأليف في مناقب أهل الفكر والاجتهاد وعطاءاتهم وحياتهم العلمية [2] . وتحيلنا النوازل إلى جوانب من تلك العناية بالعلم [3] ومواطنه وزواياه ، التي برزت كمراكز إشعاع حضاري ، حرص الطلبة على ورودها والنهل من مَعينها ، ومنها ـ حسب ما أشارت إليه النوازل ـ ما يلي :

– **زاوية الرقادي** : ومقرّها زاوية كنته ، أسّسها أحمد بن محمد الرقادي الكنتي سنة 1025هـ / 1616م ، في موقع هام يتوسّط قصور توات الوسطى [4] . وقد ورد في النوازل ما يدلّ على الحيوية والنشاط الفكري الذين طبعا هذه الزاوية ، حيث كان يجري البحث بين طلبتها في بعض المسائل الفقهية واللغوية المثارة ، ويحصل التنافس فيما بينهم حولها ، بل إنهم كانوا يؤلّفون فيها التآليف والتصانيف [5] ، كما كانت هذه الزاوية تستفيد من الكتب القيّمة المجلوبة إليها من مختلف الجهات ، خاصة من بلاد المغرب الأقصى [6] .

– **زاوية تنلان** : أقام الشيخ الجنتوري مرات عديدة بهذا المركز العلمي الهام طالباً ومدرّسا ، حيث أخذ عن أبي حفص عمر بن عبد القادر التنلاني ـ رائد شيوخ الزاوية التنلانية ـ شتى العلوم من تفسير وحديث وعربية وتصريف وكلام ومنطق وأصول وبيان [7] ، وهي فنون جليلة يؤكد تلقينها وجود مؤطّرين متمكنين متخصصين ، وتبلور نظام دراسي فعّال وشامل ، وقد دأب الجنتوري على الإشارة إلى شيخه أبي حفص قائلاً [8] " شيخي سيدي عمر " . كما تميّز هذا المركز بتعاقب ثلّة من علماء توات المميزين على غرار

---

[1] – **الزاوية** مكان معدّ للعبادة وإيواء الواردين المحتاجين وإطعامهم ، فهي مركز علمي وديني واجتماعي ، شاع في بلاد المغرب منذ القرن الخامس الهجري خلفاً لمصطلح الرباط السائد قبله ، ومن الأسماء التي حملتها الزاوية دار الكرامة ودار الضيوف ... الخ .
يُنظر : محمد حجي ، الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي ، الرباط : المطبعة الوطنية ، 1964 م ، ص 25 .

[2] – أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 02 ، ص 349 .

[3] – من مظاهر العناية العلمية الحرص على توظيف اللغة العربية وآدابها ، حيث احتجّ الشيخ الجنتوري على استخدام تعبير عامي ، وردَ في إحدى النوازل قائلاً : " ألم يكن في هذه الوثيقة سوى هذه اللفظة العامية التي ليست تابعاً ولا متبوعاً " .
يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 63 .

[4] – أحمد أبّا الصافي جعفري ، محمد بن أبّ المزمري حياته وآثاره ، ص 49 .

[5] – عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 33 .

[6] – مولاي أحمد الطاهري الإدريسي ، المصدر السابق ، ص 95 .

[7] – عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، النسخة ب ، ص 01 .

[8] – عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 129 .

الشيخين الجنتوري و أبي حفص عمر ، يتقدمهم عبد الرحمن بن عمر والشيخ الأديب محمد بن أبّ والشيخ عمر الرقادي وغيرهم ، وقد ظهر تأثيرهم على الجوّ العلمي بالزاوية . فكانت دروس هؤلاء العلماء تضفي جوا علميا متميزا ، عزّزته تلك المناقشات والمراجعات التي كانت تدور بينهم ، مثل تلك التي كانت تجمع بين الشيخ عمر بن عبد القادر والشيخ عبد الرحمن الجنتوري ، والتي استمرت بين الجنتوري والعالم عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، ممّا يوحي بمدى النشاط والحيوية داخل هذه الزاوية [1] .

– **زاوية أبي حفص** [2] : أسّسها العالم الفقيه أبو حفص عمر بن عبد الرحمن بن عبد القادر بن سيدي أحمد بن يوسف التنلاني سنة 1119هـ / 1707م [3] ، حيث رحل من تنلان وبنى زاوية مستقلة في المهدية بعد أن فجّر المياه وعمّر البساتين [4] . وقد أشارت النوازل إلى مصدر هام من مصادر تمويل هذه الزاوية وغيرها من المراكز العلمية بالمنطقة ، وهو الهبات والصدقات التي دأب المحسنون وميسورو الحال على تقديمها ، والتي شملت ـ فضلاً عن الأموال ـ عروض الماشية والإبل مساهمةً في فعل الخير ابتغاء وجه الله تعالى ودعماً للزاوية في مساعيها السامية [5] ، في ظلّ عدم اقتصار مهام الزاوية على التدريس وتحصيل العلم فقط بل شمل دورها إيواء عابري السبيل وإطعامهم وإصلاح ذات البين وتنظيم عقود الزواج وغيرها من الإسهامات الاجتماعية .

– **زاوية عين صالح** : رصدت النوازل جانباً من النشاط الثقافي الذي تميّزت به هذه الزاوية ، حيث اعتاد الشيخ الجنتوري على السفر إلى مركزها على فترات زمنية متقطعة . ولعلّ مردّ ذلك وجود ثلّة من الشيوخ الأفذاذ الذين تلقّى على أيديهم علومه الأولى قبل سفره وجولاته على قصور توات ، والمنتسبين إلى هذا المركز ، على غرار سيدي إبراهيم بن أحمد الإنصالحي وسيدي عبد العالي بن أحمد الإنصالحي [6] ، كما احتضنت هذه الزاوية العديد من الفقهاء الذين رفعوا لواء العلم ودحضوا مظاهر الجهل في منطقة تيدكلت ، ومنهم الفقيه سيدي أحمد بن الفقيه سيدي إبراهيم وسيدي محمد بن بلحاج وأعلام أولاد أبي القاسم وأولاد الحاج ، فقد كانت لهم علاقات ثقافية وطيدة بأعلام تنلان وغيرهم ، تجسّدت في مواسم عبور

---

[1] – عبد الرحمن بعثمان ، مخطوط فهرسة عبد الرحمن بن عمر التنلاني التواتي مصدر من مصادر دراسة التواصل العلمي بين توات والمجالين المغاربي والسوداني ، الملتقى المشترك بين جامعتي أدرار وتيهرت ، ص 77 .

[2] – تسمّى أيضاً الزاوية المهدية ، يوجد مقرّها بقصر مهدية ، أحد قصور تيمي ، على بُعد 07كم جنوب غرب أدرار .

[3] – أحمد أبّا الصافي جعفري ، المرجع السابق ، ص 51 .

[4] – محمد عبد العزيز سيدي عمر ، المرجع السابق ، ص 89 .

[5] – عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 79 .

[6] – عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، النسخة ب ، ص 01 .

ركاب الحجيج عبر محطات تيدكلت وقصورها [1] ، حيث استفاد هذا المركز من وقوعه في تقاطع محورين هامين ، محور أفقي علمي ديني مزدهر بوفود العلماء والطلبة ، ومحور رأسي اقتصادي تجاري يعجّ بحركة التجار والطلبة من بلاد السودان .

– **زاوية اجنتور** : ومقرّها قصر جنتور (قنتور) أحد قصور تيكورارين ، حيث استقرّ الشيخ الجنتوري مدرّسا وموجّها ومصلحاً ، وانتسب من خلال اسمه الذي عُرِف به إلى هذه الزاوية ، وهي من الزوايا النشيطة بالقرى القرارية ، حيث كانت تُرسَل إلى أقطابها ـ على غرار الجنتوري والمسعدي ـ الأسئلة والفتاوى المختلف فيها ، فمثّلتْ بذلك مرجعية علمية عليا بهذه المنطقة . ويرجع الفضل في ريادتها الفقهية بالمنطقة إلى سيدي الحاج لحسن الشريف الذي أسّسها منذ القرن 08 هـ / 14 م [2] ، ثمّ طوّرها أحفاده وعملوا على تدعيمها بخيرة العلماء مثل الشيخ الجنتوري ، الذي لطالما امتنّ لجهود هؤلاء الأشراف وأشاد بمساعيهم العلمية ، فلقّب نفسه في نوازله ـ تواضعاً ـ بخديم الأشراف [3] .

وقد أسهمتْ زاوية اجنتور في نشر اللغة العربية وآدابها ، في منطقة يغلب على ساكنتها الحديث باللهجة الزناتية الأمازيغية ، وفي تكوين طبقة جديدة من المتعلمين ، تجاوزت بما حوت صدورها من معارف حدود الثقافة الزناتية الأمازيغية المحلية [4] .

– **حاضرة تمنطيط** : من أنشط الحواضر العلمية على الإطلاق ، لم تخلُ يوماً من دُورِ علمٍ أو مجالس قضاء ، انتصبتْ صرحاً ثقافياً جامعاً ، يدرّس شتى صنوف العلوم النقلية والعقلية ، ويستقبل طالبي العلم من مختلف الأمصار والأقطار ، كما كان محلّ إثارة لمختلف المسائل والقضايا ، الناشئة عن العلاقات الاجتماعية الكثيفة المنعوت بها [5] . وقد عظُم شأن هذا الصّرح بفضل جهود آل البكري ، الذين استقرّوا به وتصدّروا التدريس والقضاء والإفتاء ، وحوّلوه إلى مركز استقطاب ثقافي شامل ، يتباهى الطلبة بالانتساب إليه والتنافس ضمن صروحه ومعاهده ، حيث يقول في ذلك صاحب نسيم النفحات [6] " ولما أجلى الله اليهود عن أرض توات ، صار مركز إشعاع للعلم والمعرفة واقتباس الهدى والفصل بين الناس بالحق والعدل ، عندما استقرّ به أولاد الولي الصالح والقطب الفاتح سيدي محمد البكري ... " .

---

[1]– عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، الرحلة الحجية ، ص 04 .

[2]– أحمد أبّا الصافي جعفري ، المرجع السابق ، ص 47 .

[3]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 06 .

[4]– رشيد بلّيل ، المرجع السابق ، ص 29 .

[5]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 34 .

[6]– مولاي أحمد الطاهري الإدريسي ، المصدر السابق ، ص 103 .

– **زاوية سيدي البكري** : أقام دعائمها سيد البكري بن عبد الكريم سنة 1120هـ / 1708م [1] ، في موقع هام يربط بين حاضرتي تمنطيط وتيمي اللتين كان لهما سبق الصدارة في عموم توات [2] ، فأضحتْ معهداً علمياً تفتّقت فيه المواهب والأفكار ، ومقصداً لذوي الصلاح والإصلاح ، ومعبراً حتمياً لمن يقصد قصور توات متجهاً شمالاً أو جنوباً ، فيُريح الراحلة ويتقوّى بالزاد ـ وذلك عهد المسافرين والزوّار بزوايا توات كلّها ـ وفي ذلك يقول صاحب نسيم النفحات [3] " ومن عاداتهم إكرام الضيف ، والمسافر لا يحتاج إلى حمل الزاد معه ، لأنّ في كل قصر من قصورها عادات ، فإذا كان القصر فيه زاوية لها أحباس على إطعام الطعام للأضياف فإنّ المسافر يقصد دار الزاوية فيجد فيها كل ما يحتاج إليه هو ومن معه ، ويجد حتى علف الدواب ، وما أكثر هذه الزوايا في ذلك القطر العزيز المبارك " .

– **زاوية بادريان** : ومن المهام العظام المنيطة بالزوايا في إقليم توات حفظ المصنّفات والمؤلفات ، وما اختطته أيادي العلماء والقضاة ، من وثائق تحبيس أو أحكام قضاء أو فتاوى ونوازل وغيرها من كنوز العلم . ومن الزوايا القائمة بتلك المهمات أحسن قيام زاوية بادريان بناحية تيكورارين ، التي أرسى دعائمها محمد عبد الله الصوفي مع مطلع القرن 11هـ / 17م [4] ، وقد تعدّدت أدوار هذه الزاوية من إطعام وتعليم ومحطة لركب الحجيج في تلك الناحية ، فضلاً عن حفظ الرسائل والمخطوطات ، بالإضافة إلى استقبال أتباع ومريدي الطريقة ، خاصة وأن هذه الزاوية كانت ثمرة جهود ثلاثة من أقطاب التصوف في عائلة الصوفي ، وهم سيد الحاج بومحمد وولده سيد الحاج الصوفي ثمّ ولده سيدي محمد عبد الله [5] .

– **حاضرة تيميمون** : تشير نوازل الجنتوري إلى جانب هام دال على تمتّع هذه الحاضرة بقدر لا بأس به من النشاط العلمي والفقهي على وجه الخصوص ، حيث كانت محطة هامة في انتخاب أولي العلم والحكمة لمنصب القاضي ، كما أنّ مصدر الاعتراض الذي كان يُبديه بعض الأعيان إنما يعود لحرصهم على استيفاء المرشّح لذلك المنصب شروط التمكّن العلمي والنبوغ الفكري [6] .

---

[1]– أحمد أبّا الصافي جعفري ، المرجع السابق ، ص 51 .

[2]– يروي صاحب درّة الأقلام قصة متعلّقة بدواعي اختيار سيد البكري ذلك المكان ، مفادها أنّ والده كان قد حبسها عليه ، وأنّ تأسيسها هو ترجمة لاتفاق ورغبة أهل الديوان في ذلك الوقت ، من أولياء الله الصالحين ، ومنهم سيدي علي ابن حنيني صاحب زاوية زاجلو الذي زكّى ذلك الاختيار ، إذْ أصبحتْ المعبر الحتمي لمن يتسوّق في تيمي من أهل تمنطيط ، أو لمن يقصد تمنطيط من أهل تيمي .
يُنظر : محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق التمنطيطي ، المصدر السابق ، ص 48 .

[3]– مولاي أحمد الطاهري الإدريسي ، المصدر السابق ، ص 60 .

[4]– أحمد أبّا الصافي جعفري ، المرجع السابق ، ص 49 .

[5]– رشيد بلّيل ، المرجع السابق ، ص 195 .

[6]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 91 .

وقد استقطبتْ حاضرة تيميمون خلال تلك الفترة العديد من الشخصيات العلمية ، على رأسها محمد بن أبّ المزمري ، حيث عاش وأبدع في ربوعها ، ودُفن في ثراها ، والقاضي سيدي محمد بن عبد الله والشيخ أبو فارس سيدي محمد عبد العزيز ابن سيد الحاج ، الذي كانت داره مجمعاً للطلبة والسائلين وكلّ من ينتسب إلى العلم فعلاً أو معنًى ومحبّة بتيميمون [1] .

– **حاضرة بودة** : تدعّمت هذا الحاضرة بتأسيس زاويتها مطلعَ القرن 12 هـ ، على يد الشيخ محمد بن عمر [2] ، كما استفادت من الرصيد التاريخي الهام الذي تمتّع به قصر بودة ، وشهرته محلياً وإقليمياً ، ممّا شكّل سنداً ودعماً لجهود علماء وفقهاء حملَ معظمهم لقب البوداوي ، في إشارة إلى الانتساب والمساهمة في العطاءات المعرفية التي تعدّت الحيّز الجغرافي الضيّق ، على غرار العالم محمد بن الحاج أحمد البوداوي [3] ، والفقيه أحمد بن محمد بن مسعود الغماري البوداوي [4] . كما نبغت عوائلُ بعينها ـ مثل الجعفريين ـ مستغلة حرص أربابها على اقتناء الكتب القيّمة ، أو نسخ النادر والنفيس منها .

– **حاضرة آقبلي** : تُعتبر من المراكز العلمية الرئيسة في منطقة تيدكلت ، ذاع صيتها بعد أن أحيا أبو نعامة محمد بن عبد الرحمان العقباوي سُنّة استقبال وتجميع وفود الحجيج من بلاد السودان ، فسمّي لذلك شيخ الركب النبوي ، وبذا الاسم تُعرف الزاوية التي أسّسها سنة 1137هـ / 1725م [5] . والظاهر أنّ عُرى العلم والمعرفة لم تنفصم يوماً عن تلك البقاع ، إذ كان الشيخان أحمد بن الحاج الأمين و محمد بن الحسين القبلاويان ممّن أجازوا الشيخ الجنتوري في بعض الفنون [6] . وقد كان طلبة العلم من أقبلي وما جاورها يتلقون دروسهم الأولى بهذه الزاوية ، ثمّ ينتقلون إلى زوايا توات الوسطى الواحدة بعد الأخرى ، من أجلِ إشباع نَهَمِهم العلمي ، فقد ذكر الفلاني القبلاوي في رحلته أنّه قصد توات لقراءة العلم بها في النصف الأول من القرن 12 هـ ، بعدما تلقّى أساسيات العلوم في أقبلي ، وأنّ رحلته استغرقت زمناً طويلاً بسبب كثافة المراكز والزوايا التي عبَرَها ، واشتهار الشيوخ والعلماء بها ، حيث مرّ على زوايا سالي وزاجلو وأدغاغ وأولاد أوشن وأولاد أونقال وصولاً إلى تيمي وتينلان [7] .

---

[1]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 133 .

[2]– أحمد أبّا الصافي جعفري ، المرجع السابق ، ص 51 .

[3]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 63 .

[4]– المصدر نفسه ، ص 130 .

[5]– أحمد أبّا الصافي جعفري ، المرجع السابق ، ص 51 .

[6]– عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، فهرسة الشيوخ ، ص 116 .

[7]– عبد الله بن أحمد الفلاني ، الرحلة في طلب العلم ، مخطوط بخزانة مولاي سليمان بن علي ، آدغا ، أدرار ، ص 01 .

– **زاوية كوسام** : رغم قرب هذه الزاوية من قلاع العلم في تمنطيط وتنيلان ، فإنّها أثبتت وجودها وحافظت على خصوصياتها التعليمية ، منذ وضع الأعلام البلباليون أساسها وتوارثوا ريادتها ، فتخطّت حدود إقليمها وتجاوز تأثيرها قصور ملّوكة وبني تامرت وغيرها ، ووقع عليها الاختيار من قِبل العديد من العلماء للتدريس في رحابها [1] ، وقد جاء في ثنايا نوازل الجنتوري ذكرٌ لبعض أعلام العائلة البلبالية .

03 – علاقات توات الثقافية الخارجية :

رغم وقوع الإقليم التواتي في أقاصي الصحراء ، وتعدّد المعيقات الطبيعية التي تعرقل مسيرة قاصديه ، فإنّ ذلك لم يحُلْ دون تفاعله مع محيطه الخارجي ، فانبعث اسمُه واشتهر رسمُه بين الأقاليم الشمالية والجنوبية وتبوّأ بذلك مكانة بين الحواضر القائمة خلال القرن 12 هـ . وربط معها علاقات ثقافية شاملة تأثيراً وتأثّراً شكّلت على مرّ العقود شبكة واسعة من التقارب والتواصل العلمي . وقد رصدت نوازل الشيخ الجنتوري جانباً هاماً من ذلك التواصل ، الذي طبع علاقات توات مع الحواضر التالية :

أ – توات وحاضرة فاس [2] : شكّلت مدينة فاس المحجّ العلمي الأول للتواتيين بلا منازع ، وربطتها بتوات صِلات علمية وطيدة ، وأخرى دينية متمثلة في وقوعهما على محور الحج المغاربي ، وقد تبلورت تلك العلاقات الثقافية قبل القرن 12 هـ ، من خلال الأعلام التواتيين الذين قصدوا معاهدها وجوامعها وبخاصة جامع القرويين [3] ، الذي تعاظم إشعاعه الفكري والحضاري رغم تداعي الدول قياماً وسقوطاً . وكان الغرض من السفر ـ مع مشاقّه ـ الاستزادة من الدراسات والحصول على الإجازات ، في علوم بعينها لا يتأتّى تحصيلها سوى في المعاهد والمراكز المغربية الكبرى ، مثل مدينة فاس التي وصف الشيخ الجنتوري علماءها بأنهم " لا يتصرّفون إلاّ بالبيّنات ، وهذا لا يخفى " [4] .

---

[1]– محمد عبد العزيز سيدي عمر ، المرجع السابق ، ص 29 .

[2]– **فاس** أهمّ مدن المغرب الأقصى ، أسّسها السلطان إدريس الثاني بن إدريس الأكبر سنة 192هـ / 808م بعد أن ضاقت مدينة وليلي عاصمة الأدارسة الأولى بساكنيها ، وهي مدينتان : عدوة القرويين وعدوة الأندلسيين . وقد تصاعدت عمارتها وتفجّرت عيونها واستمر إشعاعها زمنا طويلاً ، خاصة بعد تأسيس جامع القرويين . أما اسمها فقيل بسبب حمل السلطان إدريس فأساً يبدأ به الحفر ويختطّ به الأساسات ، وقيل بسبب العثور على فأس كبيرة أثناء الحفر ، وقيل بتغيير وقلب اسم مدينة قديمة كانت هناك منذ ألف سنة واسمها ساف . يُنظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، بيروت : دار صادر ، 1977 م ، ج 04 ، ص 230 / علي الجزنائي ، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، تحقيق : عبد الوهاب ابن منصور ، ط 2 ، الرباط : المطبعة الملكية ، 1991 م ، ص 23 .

[3]– **جامع القرويين** تمّ بناؤه من طرف السيدة أمّ البنين فاطمة بنت محمد الفهري القيرواني ، بمالها الخاص الذي ورثته عن والدها بدءاً من شهر رمضان سنة 245هـ / 859م ، في عهد السلطان يحي بن محمد بن إدريس ، ثمّ صلّت فيه شكراً لله تعالى الذي وفقّها لذلك . ومع اتساع مدينة فاس أقيمت به الخطبة ، وصُنع له منبر من خشب الصنوبر ، وكان أول من خطب فيه الشيخ عبد الله بن علي الفارسي . يُنظر : علي الجزنائي ، المصدر السابق ، ص 46 .

[4]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 78 .

ومن العلماء التواتيين الذين فرضوا وجودهم على المشهد الثقافي بفاس أثناء هذه الفترة ـ رغم المنافسة العلمية الحادّة ـ ودرّسوا في جوامعها وجامعاتها ، وقد دُفن بعضهم في مقابر علمائها وصلحائها :

– الشيخ أبو الحسن علي بن الحاج **التواتي** (ت 1058هـ/ 1648م) ، الذي اشتهر بالعلم والصلاح ، وضريحه بين المدن عدوة فاس ، قرب مسجد الشوك ، يُزار ويُتبرّك به ، وإليه يشير الشاعر في قوله [1] :

وسيدي عليٌ التواتي بجامع الشوك من السّراتِ

– الشيخ سيدي عبد الرحمان المعروف بمعاذ **التواتي** (ت 1104هـ / 1693م) ، كان مشهوراً بالصلاح عند الكافة من أهل فاس ، ذا أحوال وكرامات ، لا يأكل إلا من عمل يديه ، أحبّه الناس في حياته ، ثمّ اختلفوا حول موضع دفنه بعد وفاته ، فحُفِر له ثلاثة مقابر ، كلّ يبتغي البركة من وراء ذلك [2] . وقد أشار إليه وإلى كراماته صاحب أرجوزة صلحاء فاس قائلاً [3] :

كذا التواتي له الكرامه من زاره نال به مَرَامَه

– الشيخ عبد السلام بن محمد الجعفري **التواتي** (ت 1155هـ / 1742م) من المشهورين بعلمهم وتقواهم بفاس ، لازمَ الجلوس في القرويين ، وكان يجلس له أقوام لاستماع معارفه ، فيأتي من ذلك بما يسحر الألباب ويقضي منه العجب العجاب ، اعتلى مراتب الطريق والولاية ، فكان يقول " الطريق أولها فنون ووسطها جنون وآخرها قيل يكون وقيل لا يكون " [4] .

– الشيخ الكوش **التواتي** الموري (ت 1158هـ / 1745م) ، كان آدم اللون ، من أهل توات الذين استقروا بفاس ، ثمّ انتقل إلى جزيرة المورة قرب البندقية ، بعد أن سيطر عليها الأتراك العثمانيون ، مقدّماً للطريقة الطيبية الوزانية ، فانتشر صيته واشتهر بملازمة السنة واجتناب البدعة [5] .

– سيدي الحاج محمد **التواتي** (ت 1183هـ / 1769م) ، دُفن بفاس ، وحضر جنازتَه جمع عظيم ، وكذا زوجته فقد كانت طيبة العشرة ، كان هو يدّعي أنها السبب في صلاحه وتقواه ، بينما كانت هي تدّعي في حياته وبعد مماته أنه السبب في صلاحها وتقواها ، ولم تلبث حتى توفيت بعده ودُفنت بإزائه [6] .

---

[1]– أبو عبد الله محمد بن جعفر الكتاني ، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس ، تحقيق : محمد حمزة بن علي الكتاني ، ط 4 ، الموسوعة الكتانية لتاريخ فاس ، 2005 م ، ج 01 ، ص 340 .

[2]– محمد حجي ، موسوعة أعلام المغرب ، ج 05 ، ص 1827 .

[3]– محمد المدرع النجار الأندلسي ، أرجوزة في مشاهير صلحاء فاس ، تحقيق : خالد بن أحمد الصقلي ، فاس : ظهر المهراز ، ص 15 .

[4]– محمد حجي ، المصدر السابق ، ج 06 ، ص 2126 .

[5]– المصدر نفسه ، ج 06 ، ص 2260 .

[6]– محمد بلقاسم الحفناوي ، المصدر السابق ، ص 108 .

– أبو العباس أحمد بن محمد بن الونّان **التواتي** (ت 1187هـ / 1773م) ، من فحول الشعراء ، يعود نسبه إلى العرب من بني معقل ممن توطّنوا توات ، كان والده من ندماء سلطان المغرب محمد بن عبد الله العلوي ، وهو من كنّاه بأبي الشمقمق تشبيهاً بالشاعر الكوفي الماجن المشهور . ثمّ انتقلَ ذلك اللقب إلى أبنائه ، ومنهم أبو العباس بن الونّان [1] ، كان صاحب قريحة سيّالة ، وخاطر متدفق وفكر نقّاد ، قصد السلطان العلوي محمد بن عبد الله ، ولما تعذّر عليه الوصول إليه ، اعترضه في موكبه ونادى بأعلى صوته :

يا سيِّدي سِبْطَ النَّبي أَبُو الشَّمَقْمَقِ أَبِي

فعرفه السلطان وأمر بإحضاره إلى منزله ، فحضر وأنشد بين يديه الأرجوزة الشهيرة التي أصبحت تعرف بالشمقمقية ، واشتهرت بين أدباء المغرب اشتهاراً لا مزيد عليه ، لِما احتوته من أغراض شعرية وفنون أدبية مختلفة ، مثل الغزل والوصف والحماسة والمدح والهجاء والحكم والأمثال وأيام العرب وأخبارها وعوائدها وأحوالها ، ممّا يدلّ على غزارة علمه وقوة ملَكَتِه ، وهي قصيدة قافية في نحو ثلاثمائة بيت [2] .

وفضلاً عن أولئك العلماء ذوي الأصل التواتي الذين عاشوا ودُفنوا في فاس ، تذكر المصادر التاريخية عشرات الأعلام التواتيين الذين اتّخذوا هذه الحاضرة محطة رئيسية من محطات حياتهم العلمية ، وتصدّروا حِلَق التدريس والإفتاء خلال القرن 12 هـ / 18 م ، وقد عاد معظمهم إلى قصور توات وحواضرها ، محمّلاً برصيد معرفي هام وخبرات متراكمة ، ومساهماً في تنشيط الحركية الثقافية المنبعِثة بتوات .

ومن أبرز هؤولاء الشيوخ الشيخ سيد البكري بن عبد الكريم التمنطيطي الذي تنقّل في طلب العلم ، فزار مراكش وفاس بالمغرب الأقصى ، ودرس على يد كثير من الشيوخ هناك [3] . والشيخ عمر بن عبد القادر التنلاني الذي مكث بفاس ثلاثَ عشرة سنة مشتغلاً بالقراءة والإقراء [4] ، فتكاثرت الطلبة علـــى

---

[1]– امبارك جعفري ، علماء توات في حاضرة القرويين بفاس خلال القرن 12 هـ ، ملتقى أدرار تيهرت ، ص 139 .

[2]– عبد الله كنّون ، النبوغ المغربي في الأدب العربي ، ط 2 ، المغرب ، 1960 م ، ج 01 ، ص 316 .

[3]– أحمد أبّالصافي جعفري ، الحركة الأدبية في منطقة توات خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين ، رسالة دكتوراه في الأدب ، إشراف : أ د . محمد زمري ، جامعة تلمسان ، 2006 / 2007 م . ص 307 .

[4]– نقلَ تلميذه عبد الرحمن بن عمر صورة حيّة عن أسلوب الإقراء والإلقاء قائلاً " ... ولما اشتهر أمره وظهر حاله وفاح طيبه ، طُلب منه الإقراء بجامع القرويين ، فأقرأ به مدة جالساً على الأرض ، ثم إن الطلبة لما كبرت الحلقة وضعف عن إبلاغ أقصاها نصبوا له كرسياً ليجلس عليه ، فلما جاء لموضعه على العادة وجده فأبى أن يجْلس عليه وجلس بحذائه ، فلمّا انفضّ المجلس ألحَّ عليه الطلبة في الجلوس عليه وشكوه عُذرهم فلم يُسعفهم بمرادهم وأبى ذلك كل الإباية ، فلمّا رأوا ذلك منه طلبوا حيلة يتوصّلون بها لمرادهم ، فاتّفق رأيهم على أن لا يتركوا له موضعاً يجلس فيه إلا موضع الكرسي ، فلما جاء غداة ذلك اليوم إلى المجلس ، نظر فلم يرَ موضعًا يجلس فيه إلا الكرسي ، فجلس عليه فأخبرني بعض أهل المجلس أنه لما جلس عليه ، لم يزل لونه يحمرّ ويصفرّ حتى انفضّ المجلس ، حياءً منه وتواضعاً رحمه الله " .
يُنظر : عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، فهرسة الشيوخ ، ص 82 .

حلقته حتى لم يبقَ في الجامع حلقة أعظم منها ، كلّ ذلك ومعظم أشياخه أحياء [1] . والشيخ الشاذلي بن عمر بن عبد القادر (ت 1173هـ / 1760م) ، اشتهر بعد وفاة والده ، وكان له باع في جميع العلوم ، انتقل إلى فاس وتوفى بها [2] . والشيخ عبد الرحيم بن محمد التواتي (ت 1189هـ / 1775م) وهو من العلماء الذين عادوا إلى توات بعد رحلة علمية حافلة بفاس ، حفظ القرآن بالقراءات السبع مع التجويد ، وكان أعجوبة في الحفظ والاستحضار [3] . والشيخ محمد الإداوعلي الشنقيطي (ت1198هـ / 1784م) الذي تنقل بين حواضر شنقيط وتوات وفاس ، واستقرّ به المقام بقصر أعباني بفنوغيل ، وقد اشتهر عند علماء توات بشاعر المديح النبوي ، ومن قصائده نونية وميمية في مدح الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عاش مرتحلاً حتى توفى بأرض التكرور [4] .

ولعلّ ذلك الاندماج الثقافي بين حاضرتي فاس وتوات ، هو الذي يفسّر السهولة والانسيابية في تبادل القضايا والفتاوى بينهما [5] ، على أنّ التفاوت في درجة الاجتهاد والنبوغ الفقهي بينهما لم يكن جليّاً في أغلب الأحيان ، فقد ورد في النوازل ما يعضّد ذلك ، وهو أنّ الشيخ الجنتوري أفتى في نازلة رُفعت إليه بإعمال قول أحد المتخاصمَين واسمه ابن محمد في قضية ميراث ، لكنّ الخصم الآخر الذي لم يؤخذ برأيه ويُدعى ابن علي آثر الذهاب إلى علماء فاس وتلمسان ، وبعد عرض القضية عليهم أفتوه جميعاً بما كان الشيخ الجنتوري قد أقرّه وأفتى به من قبل [6] . وفي نازلة أخرى أجاب بعض علماء فاس بصحة ثبوت الإرث للمقرّ له ، مطابقةً لفتوى الشيخ الجنتوري [7] .

ب – توات وحاضرة تمبكتو [8] : ساهمت رحلة الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي الشهيرة إلى بلاد السودان في تضاعف عدد التواتيين بمدينة تمبكتو منذ القرن 09هـ / 15م ، حيث استقروا بها تجاراً وعلماءَ

---

[1] – عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، فهرسة الشيوخ ، ص 82 .

[2] – أمبارك جعفري ، المرجع السابق ، ص 139 .

[3] – عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، فهرسة الشيوخ ، ص 153 .

[4] – أحمد أبّالصافي جعفري ، الشيخ سيدي محمد الإداوعلي حياته وشعره ، وهران : دار الغرب للنشر والتوزيع ، 2008 م ، ص 13 .

[5] – عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 36 .

[6] – المصدر نفسه ، ص 111 .

[7] – المصدر نفسه ، ص 95 .

[8] – **تمبكتو** أو تنبكت من أشهر مدن السودان الغربي (مالي) ، أسّسها توارق مقشرن في أواخر القرن 05 هـ / 11 م ، ثمّ توافد عليها التجار والعبّاد والصالحون من أهل مصر ووجل وفزّان وغدامس وتوات ودرعة وتفيلالت وفاس وسوس وغيرها من قبائل الصنهاجة بأجناسها فأصبحت بذلك مأوى العلماء والعابدين ، ومألف الأولياء والزاهدين ، ومسلكاً للسالكين في ذهابهم ورجوعهم .
يُنظر : عبد الرحمان السعدي ، المصدر السابق ، ص 20 / الحسن الوزان (ليون الإفريقي) ، المصدر السابق ، ج 02 ، ص 165 .

وفقهاءَ ، ينشرون العلم ويبنون المدارس والزوايا ، حتى أصبحت الجالية التواتية هناك من أكبر وأنشط الجاليات [1] ، ويعضّد ذلك الدور وتلك القيمة ما ذكره صاحب فتح الشكور من أنّ مقابر تمبكتو تعجّ بالصالحين والعلماء التواتيين ، وأنّ عددهم يربو على الخمسين [2] . ولا غروَ إذاً أن يدعوَ العلاّمة الشيخ أحمد بابا التمبكتي (ت 1036هـ / 1627م) لتوات وأهلها قائلاً [3] " ... بلاد توات صانها الله تعالى من ضروب الآفات ، ومن نقص الثمرات " .

وقد استمرت العلاقات الثقافية بين الحاضرتين ، من خلال التقاء العلماء والفقهاء في قوافل الحج ، بعدما أصبحت توات (تيدكلت) المعبر المفضّل لوفود حجّاج بلاد السودان ، ومن خلال الزيارات المتبادلة والإجازات الممنوحة ، حيث ورد في نوازل الجنتوري ما يشير إلى ذلك ، من خلال إطّلاعه [4] ـ كما ذكر ـ على إجازات علمية بخطّ أحد علماء تنبكتو . وذلك دليل على وجود روابط ثقافية وحضارية بين جانبي الصحراء ، ساهم في تكريسها علماء شكّلوا خلال القرن 12 هـ همزة وصل بين تمبكتو من جهة ، وبين توات ـ وتيدكلت بصفة خاصة من جهة أخرى ـ نذكر منهم :

– أحمد بن الأمين الغلاوي التواتي (ت 1157هـ / 1744م) [5] : كان من العلماء العاملين ، قائماً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فاضلا جوادا شجاعا مهابا متواضعاً ، حسن الخلق ، ذا معرفة وحفظ لفروع الفقه ، مستحضراً لها ، لاسيما ما اشتمل عليه المختصر ، جمّاعاً للكتب ، انتفع على يديه كثير من المهاجرين والأعراب ، حجّ مرات بيت الله الحرام ، وهو شيخ الركب من تمبكتو حتى يصل إلى آقبلي من بلاد توات ، فيكون الأمر لأبي نعامة القبلاوي ، لقيَه الشيخ الجنتوري في حجته الأولى ، وصحبه من مصر حتى وصلا لبلاد عين صالح ، وأخذ عنه فأجازه الغلاوي وأثنى عليه [6] . له شرح مفيد على نظم ابن سعيد السوسي سمّاه " كشف الغمة في نفع الأمة " وتأليف جيّد في المنطق ، توفى بفزّان ودُفن بها بعد هبوطه من المشرق ، وقد أدّى مناسك الحج .

– الشيخ سيدي أبو الأنوار التنلاني (ت 1168هـ / 1755م) [7] : هو ابن عبد الكريم بن أحمد بن

---

[1]– فرج محمود فرج ، المرجع السابق ، ص 114 .

[2]– الطالب محمد البرتلّي الولاتي ، المصدر السابق ، ص 70 .

[3]– أحمد بابا التمبكتي ، معراج الصعود إلى نيل حكم مجلوب السود ، مخطوط المكتبة الوطنية بالرباط ، رقم 1029 د ، ص 01 .

[4]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 22 .

[5]– يُنظر : الطالب محمد البرتلّي الولاتي ، المصدر السابق ، ص 48 / عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، فهرسة الشيوخ ، ص 155 .

[6]– عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، فهرسة الشيوخ ، ص 155 .

[7]– يُنظر : عبد القادر بن عمر المهداوي ، مخطوط الدرة الفاخرة ، ص 03 / الصديق حاج أحمد ، المرجع السابق ، ص 89 / محمد عبد العزيز سيدي عمر ، المرجع السابق ، ص 80 .

يوسف التنلاني ، ولد سنة 1077هـ / 1666م بزاوية تنلان ، وأخذ عن الشيخ سيدي محمد بن دين الله التطافي ، ثم سافر بعد ذلك إلى أرض التكرور ، وتربّع هناك على عرش التدريس والإفتاء فترة طويلة من الزمن ، وتوافد على مجلسه العلماء والأعيان من تمبكتو وما جاورها ، ثمّ انتقل بعد ذلك إلى تيدكلت وبنى بها زاويته المشهورة التي أصبحت تُنسب إلى ولد ابنته مولاي هيبة ، وأقام بها إلى أن وافاه الأجل هناك .

– الشيخ مولاي عبد المالك الرقاني (ت 1207هـ / 1793م) [1] : ابن الشيخ مولاي عبد الله الركّاني ، كان مشهور الولاية معظّماً عند الخاصة والعامة ، عظم صيته في توات والتكرور ، واشتهر فضله فيهما ، وكان حسن الصوت بالقرآن ، أوتي من مزامير آل داوود . مكث اثني عشر عاماً لا ينام ليلاً ولا نهاراً ، جعل سلسة في خشب سقف البيت في رقبته إذا أراد أن يصلي يمكن معها السجود والجلوس ، ولا يمكن معها الاضطجاع ، استقرّ بزاويته المنسوبة إليه برقان ، فسخّر الله الخلق له يخدمونه ويخدمون زاويته ، ويهدون له الأموال فينفقها في سبيل الله تعالى ، وكذلك ماله كلّه ، مثّلت زاويته ملتقى المريدين والعلماء وطالبي الصلح من تمبكتو وأروان وشنقيط وتوات وغيرها .

– الشيخ عمر بن محمد المصطفى بن أحمد الرقادي الكنتي (ت 1157هـ / 1744) [2] : من شيوخ الزاوية الرقادية المشهورين ، كان متواضعاً ، حسن الخلق ، فصيحاً ذا رنّة حسنة ، فقيهاً نحوياً لغويا أديباً شاعراً ، محفوظ اللسان ، وجيهاً نبيهاً ، نبغ في علوم جمّة ، وتفرّد عن غيره في طرق التدريس ، جال قرى توات ومراكز علمها ، وطاف بمدن بلاد التكرور والتقى علماءها ، فجمع بذلك بين خصائص الحاضرتين وأساليب التدريس فيهما ، واعتمد في ذلك على جمع الكتب بكلّ ما أمكنه من شراء أو نسخ ، وتقييد أجوبة العلماء حيثما حلّ أو ارتحل ، فشكّل رافداً علمياً متدفقاً بين رمال الصحراء ، وظلّ ذلك دأبه حتى أتاه أجله ببلاد فزّان ، في رحلة العودة من الحج .

ج – توات وحاضرة تونس [3] : شكّلت حاضرة تونس منذ قرون محطّ أنظار العديد من التواتيين ، الذين نزلوا بها واستوطنوها ، بل فيهم من عقّب هناك بنين وحفدة ، أصبحوا يُعرفون لاحقاً بلقب التواتي ، تمييزاً

---

[1]– الطالب محمد البرتلّي الولاتي ، المصدر السابق ، ص 201 .

[2]– عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، فهرسة الشيوخ ، ص 127 .

[3]– **تونس** من مدن إفريقية الكبيرة ، اسمها القديم ترشيش ، وتونس حادث لها واشتقاقه من التأنيس ، عمّرت من أنقاض مدينة كبيرة قديمة بالقرب منها تسمى قرطاجنّة ، تقع في سفح جبل ولها خمسة أبواب ، دخلها حسّان بن النعمان عنوة سنة 70هـ / 689م ، وبنى بها مسجداً وأسكنها طائفة من المسلمين وأحكم بناءها . ذكر صاحب المؤنس أنّ الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور كان يصفها بإحدى القيروانَين ، تعظيماً لها ، وهي دار علم وفقه ، من أعظم بلاد أفريقية وأطيبها ثمرة وأنفسها فاكهة ، وعاصمة الأمراء من بني حفص .

يُنظر : محمد بن أبي القاسم القيرواني (ابن أبي دينار) ، المؤنس في أخبار إفريقيّة وتونس ، ط 1 ، تونس : المطبعة التونسية ، 1869 م ص 06 / ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج 02 ، ص 60 .

لهم عن بقية الجاليات الساكنة بالأقاليم التونسية ، ورغبة منهم ـ فيما يبدو ـ في حفظ الأصول والخصوصيات . فنتج عن ذلك التواجد احتكاك ثقافي ، رصدته النوازل من خلال السفر والتوجّه إلى تلك المدينة [1] ، أو من خلال الاستشهاد بما ذهب إليه الأشياخ المحقّقون من تونس [2] ، والأمر ذاته يصدق على حاضرة إفريقية الأولى وعاصمتها التاريخية مدينة القيروان [3] .

غير أنّ العلاقات الثقافية بين الحاضرتين كانت قد تأصّلت منذ القرن التاسع للهجرة ، حين استُفتي المفتي التونسي محمد الرصّاع حول قضية يهود توات الشهيرة ، وكان من الذين أوصوا في مراسلاته لعلماء توات بالتسامح والاعتدال تجاههم [4] . كما ساهمت قوافل الحجيج التي كان يفِدُ بعضها على تونس ، عبر الطريق المحاذية لحافة الأطلس الصحراوي وجبل الأوراس [5] في توطيد تلك العلاقات .

أمّا الشخصيات العلمية التواتية التي أثْـرَت الحياة الثقافية في تونس ، وتركت بصماتها على الحركة الفكرية العلمية في تلك الحاضرة وأخواتها ، ورعَتْ عهد الصلة والتواصل بينها وبين توات ، فقد نشطت بشكل جليّ خلال القرن 12 هـ مقارنة مع القرون السابقة ، ومن أشهرها كلٌّ من :

– الشيخ سيدي محمد التواتي (ت 1031هـ / 1622م) [6] : هو أبو عبد الله محمد بن مزيان التواتي الملقّب بسيبويه المغرب ، ارتحل من المغرب الأقصى إلى مدينة قسنطينة ، فاشتهر بها وانتشر علمه وأقبلت إليه الطلبة وانتفعوا به ، ومنهم تلميذه الشيخ عبد الكريم الفكون ، نبغ في الأصول وعلم القراءات والمنطق والبيان والنحو بالأخص ، وكان يبيت مكبّا على القراءة ، لا يُرى إلا مطالعاً أو ناسخاً ، ثمّ بدا له بعد ذلك الانتقال إلى تونس ، حيث شاع خبره ووقع له القبول عند عامتها وأهل باديتها ، فدرّس بمدرسة الباي أبي الحسن علي باشا ، وبمدينة باجة التونسية كانت وفاته بالطاعون .

خلّف هذا العالم التواتي الرحّالة الذي جسّد معاني التواصل الثقافي بين المغارب الثلاثة (الأقصى والأوسط والأدنى) تآليف قيّمة ، اعتُمد بعضُها في برنامج التدريس بجامع الزيتونة ، لكنَّ معظمها لا يزال

---

[1]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 12 .

[2]– المصدر نفسه ، ص 88 .

[3]– المصدر نفسه ، ص 37 .

[4]– روبار برنشفيك ، تاريخ أفريقيّة في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15 م ، ترجمة : حمادي الساحلي ، ط 1 ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، 1988 م ، ج 01 ، ص 440 .

[5]– روبار برنشفيك ، المرجع نفسه ، ج 02 ، ص 248 .

[6]– يُنظر : عبد الكريم الفكون ، منشور الهداية في كشف حال من ادّعى العلم والولاية ، تحقيق : أبو القاسم سعد الله ، ط 1 ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، 1987 م ، ص 57 / أحمد أبّالصافي جعفري ، العلاقات الفكرية والثقافية بين إقليم توات وحواضر المغرب الإسلامي ، ملتقى أدرار تيهرت ، ص 126 .

مخطوطاً في رفوف المكتبات التونسية والأوروبية ومنها : " غنية الراغب ومنية الطالب " و " شرح الشواهد الشعرية لمن أراد التفرّس في العربية " ، و " الخبر في معرفة عجائب البشر " وغيرها .

– الشيخ الكوش التواتي التونسي (ت ق 12 هـ) [1] : كان آدم اللون كوشاً من أهل توات ، أرسله شيخه مولاي التهامي اليملحي الحسني إلى تونس نزولاً عند رغبة أهلها ، فبنى زاويته بخارج باب مدينة تونس ، ومنها انتشر صيته وعلا قدره ، واجتمع عليه التونسيون ، فلازموا السنة وتركوا البدع ، وعاش حياته بين ظهرانيهم مرغوباً مطلوباً ، ظهرت له كرامات وخوارق للعادات ، وعيّن المقدّمين والأتباع في الأقطار التونسية ، فلزموا صحبته حتى وافته المنية ودُفن في زاويته المذكورة .

– الشيخ محمد العربي بن محمد التواتي (ت بعد 1149هـ / 1736م) [2] : انتصب للتدريس بالجامع الكبير في تونس ، فأفاد وأجاد ، وتخرّج على يديه خلق كثير ، كما تولّى منصب القضاء ، فكانت سمته العفة والصلاح والزهد .

ومن الشيوخ التواتيين الآخرين الذين أشعّوا بمعارفهم وعطاءاتهم الفكرية البلاد التونسية كلّ من [3] : أبو عبد الله محمد التواتي (ت 1107هـ / 1696م) ، محمد الصغير بن محمد العربي التواتي (ت بعد 1180هـ / 1766م) ، الشيخ سيدي احميدة التواتي (ت بعد 1188هـ / 1774م) ، الشيخ سيدي محمد السنوسي التواتي (ت بعد 1194هـ / 1780م) . بالإضافة إلى الشيخ القاضي سيدي البكري بن عبد الكريم ، الذي رحل إلى تونس في طريقه إلى الحج ، وأسّس بها زاوية مشهورة باسمه إلى الآن ، لكنه لم يلبث فيها طويلا حيث رحل عنها إلى ليبيا ثم مصر ومنها نحو البقاع المقدسة [4] .

د – توات وحاضرة سجلماسة [5] : انعكست العلاقات التجارية الاقتصادية وقوافل الحجّاج الذاهبة الآيبة بين الحاضرتين [6] ، على التبادل الثقافي والفكري بينهما ، فكثيراً ما كانت تجود قوافل الحج المغربية العابـــرة

---

[1]– محمد حجي ، موسوعة أعلام المغرب ، ج 06 ، ص 2260 .

[2]– أحمد أبّالصافي جعفري ، المرجع السابق ، ص 127 .

[3]– المرجع نفسه ، ص 127 .

[4]– عبد الحميد بكري ، المرجع السابق ، ص 130 .

[5]– **سجلماسة** ثاني مدينة تشيّد بالمغرب الإسلامي بعد القيروان ، بُنيت سنة 140هـ / 757م ، كانت عاصمة إمارة بني مدرار الخارجية ، وفي القرن 11 هـ / 17 م أصبحت عاصمة للدولة العلوية . أهّلها موقعها الاستراتيجي كهمزة وصل أساسية بين مختلف أقطار المغرب وبلاد السودان الغربي من جهة ، والمشرق الإسلامي من جهة ثانية ، للتحكم لمدة طويلة في تجارة القوافل ، مما ساهم في ازدهارها وتطورها .
يُنظر : لحسن تاوشيخت ، المرجع السابق ، ص 224 / ياقوت الحموي ، المرجع السابق ، ج 03 ، ص 192 .

[6]– ذكر العياشي في رحلته أنّ طريق سجلماسة ـ توات كانت أفضل طرق الحج ، وأنّه زار الصالحين من الأحياء والأموات في سجلماسة .
يُنظر : أبو سالم العياشي ، المصدر السابق ، ج 01 ، ص 72 .

أرض توات بأعلام الفقه والفكر من سجلماسة ، فيستغلّ مريدو العلم وجودهم ، وينكبّون على مواطن إقامتهم طلباً للإجازة والاستزادة ، ومن أولئك الأعلام السجلماسيين الذين حطّت رواحلهم بتوات : الشيخ محمد المكي بن الصالح السجلماسي (ت ق 12 هـ) ، الذي حلّ في إحدى رحلاته بتيمي ، فقصده بعض الطلبة ومنهم عبد الرحمن بن عمر التنلاني حيث أخذ عنه علم التجويد بالقراءات السبع [1] . والشيخ أبو العباس أحمد بن عبد العزيز الهلالي السجلماسي (ت 1175هـ / 1761م) ، الذي كان يتبنّى الطلبة المجتهدين من توات ، فقد كان مقصدهم المفضّل في مدينة سجلماسة ، ويأخذون عنه ما اشتهر به ونبغ فيه من علوم عقلية ونقلية ، حين يعزم على الرحيل إلى المشرق ، وإن تعذّر ذلك ، أو أبطأ أجلُه عليهم ، فإنّهم كانوا يلجئون إلى مراسلته كتابياً في الزاوية التي كان يدرّس بها في سجلماسة [2] ، وهو صاحب النصيحة المشهورة التي يقول في أولها [3] :

يا أيُّها الإنسانُ هُبَّ من كراك واصْحُ من السُّكر الذي قدِ اعْتراك

إنّ الرحيلَ يا أخي قريـــــبُ وكلُّنا مسافر غريـــــــــــبُ

ورغم وقوع سجلماسة على مداخل الصحراء ، فإنّها كانت خلال تلك الفترة مدينة عامرة [4] ، لم تعدم العلم والعلماء بحالٍ من الأحوال . لذا حرص بعض العلماء التواتيين على السفر إليها ومزاحمة علمائها والأخذ منهم ، على غرار الشيخ عبد الرحمن بن عمر التنلاني والشيخ الفقيه الحاج محمد البلبالي الذي مكث زمناً طويلا في مدينة سجلماسة ، قبل أن يعود إلى توات ويعتزل الحياة وتصاريفها [5] .

د – توات وحاضرة تلمسان [6] : من الحواضر الإسلامية التي ورد ذكرها في النوزال ، حيث استشهد الشيخ الجنتوري في إحداها بما أجاب به بعض علماء تلمسان على أسئلة مشابهة وردت إليه [7] . إضافة إلى

---

[1]– عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، فهرسة الشيوخ ، ص 187 .

[2]– المصدر نفسه ، ص 195 .

[3]– عبد الله كنّون ، المرجع السابق ، ج 01 ، ص 292 .

[4]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 116 .

[5]– المصدر نفسه ، ص 116 .

[6]– **تِلِمْسَان** أعظم حواضر المغرب الأوسط ، وهي كلمة بربرية مركبة من تلم ومعناه تجمع وسان معناه اثنان أي التّل والصحراء ، أصلها مدينتان متجاورتان مسوَّرتان . يُقال أنها البلد الذي أقام به الخضر ـ عليه السلام ـ الجدار المذكور في القرآن . وهي مدينة عريقة في التمدّن ، لذيذة الهواء عذبة الماء ، استوطنها العلماء ، ومدحها الشعراء ، واشتهرت عاصمةً للزيانيين من بني عبد الواد منذ 633هـ / 1236م . يُنظر : أبو زكريا يحي ابن خلدون ، بغية الروّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، الجزائر : مطبعة بيير فونتانا الشرقية ، 1903 م ، ج 01 ص 09 / ياقوت الحموي ، المرجع السابق ، ج 02 ، ص 44 .

[7]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 107 .

أنّها كانت تمثّل المرجعية الفقهية الثانية بالنسبة لعلماء توات بعد نظيرتها المغربية فاس ، إذا ما تعلّق الأمر بالمسائل المختلف فيها [1] .

وترجع جذور تلك العلاقات الثقافية المسجّلة بين الحاضرتين إلى قرون خَلَتْ ، سبقت القرن 12 هـ حيث تشير المصادر إلى انخراط تلمسان في الخلاف الفقهي المتولّد عن قضية يهود توات ، من خلال خوض علمائها وقضاتها فيه ، وعلى رأسهم مفتي تلمسان أبو العباس أحمد بن محمد بن زكري (ت 899هـ / 1494م) ، والقاضي أبو زكريا يحي بن أبي البركات الغماري التلمساني (ت 910هـ / 1504م) ، فقد كانا ممّن عارضوا الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني منشأً وداراً ، التواتي مستقرّاً ومزاراً ، في موقفه من يهود توات [2] ، معضّدين بذلك رأي القاضي التواتي عبد الله العصنوني .

كما أن العديد من الدور التلمسانية العريقة والمشهورة بالعلم سارت على خطى الشيخ المغيلي ، وفضّلت الهجرة نحو توات ، بعد انتشار عقد الدولة الزيانية في القرن 10 هـ / 16 م ، وتغلّب الأسبان على مدينة تلمسان . وجدير بالذكر أنّ معظم تلك العوائل التلمسانية قد استقرّت في قصور تيكورارين وتوزّعت على قُراها [3] . ممّا كان له الأثر الطيّب في تدعيم العلوم المحلية ، ونشر اللغة العربية وآدابها ، وبعث النشاط الثقافي والصوفي بهذه المنطقة .

04 – العلوم والفنون المدرَّسة :

أصابَ توات العلمِ والفكرِ في القرن 12 هـ / 18 م ما أصاب الجزائر ، من ركونٍ للعلوم النقلية التقليدية ، وقصورٍ عن تحصيل المستجدّات العلمية العقلية التجريبية ، إذا ما استثنينا علوم الحساب والفلك والهيئة ، فإنّها حاولت مزاحمة العلوم السائدة الغالبة على البرنامج اليومي للطلبة ، والمتمثلة في التفسير والحديث والعربية والتصريف والكلام والمنطق والأصول والبيان [4] ، رغم ندرة العلماء المتمكّنين من تلقينها . بينما غلب التركيز على تحفيظ القرآن الكريم والسيرة النبوية الشريفة والمتون الفقهية المالكية نثراً وشعراً ، مع تسجيل ملاحظة هامّة وهي أنّ الأساليب والطرائق المرتبطة بتعليم القرآن الكريم والأحاديث والمتون ، المعتمدة في تلك الفترة ، لا تختلف كثيراً عن مثيلاتها المنتهجة في وقتنا الحالي [5] .

---

[1] – عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 111 .

[2] – ابن أبي مريم التلمساني ، المصدر السابق ، ص 254 .

[3] – رشيد بلّيل ، المرجع السابق ، ص 68 .

[4] – عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، النسخة ب ، ص 01 .

[5] – من ذلك مثلاً صنع الطعام للطلبة بقصد قراءة السلكة (أحزاب القرآن الكريم) ، وهي عادة لا زالت قائمة إلى اليوم في قصور توات . يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 143 .

ويمكن من خلال كتب النوازل وغيرها من المصادر المحلية [1] ، رسمُ لوحة نمطية موحدّة للعلوم التي كانت تدرّس خلال القرن الثاني عشر ، وأمّهات المصادر التي كانت تدرّس من خلالها ، فضلاً عن مختصراتها وشروحها ، والتي يبدو أنها شملت توات وما جاورها من الأقطار المغاربية ، على النحو التالي :

– علم التفسير ، ويدرّس من خلال كتاب " المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز " لابن عطية (ت 542هـ / 1147م) .

– علم الحديث ، ويدرس من خلال " صحيح البخاري " و " صحيح مسلم " و " شمائل الترمذي " ثمّ " الأربعين النووية " .

– السيرة النبوية ، وتدرس من خلال كتاب " الشفا بمعرفة حقوق المصطفى " للقاضي عياض السبتي (ت 544هـ / 1149م) .

– علم التوحيد ، ويدرس من خلال كتاب " العقيدة الكبرى " للسنوسي (ت 895هـ/ 1490م) .

– علم الفقه ، ويدرس من خلال " رسالة ابن أبي زيد القيرواني " (ت 386هـ / 996م) ، و" المرشد المعين " لعبد الواحد ابن عاشر الأندلسي الفاسي (ت 1040هـ / 1631م) و" تحفة ابن عاصم الغرناطي " (ت 829هـ / 1426م) .

– علم الأصول ، ويدرس من خلال كتاب " جمع الجوامع " للسبكي (ت 771هـ / 1369م) .

– علم المنطق ، ويدرس من خلال كتاب " السلم المرونق " للأخضري (ت 983هـ / 1575م) .

– علم التصوف ، ويدرس من خلال " الحكم العطائية " لابن عطاء الله (ت 709هـ / 1309م) .

– علم النحو ، ويدرس من خلال " ألفية ابن مالك " لابن مالك (ت 672هـ / 1273م) .

– علم العروض ، ويدرس من خلال " الخزرجية " لأحمد بن مسعود الخزرجي (ت 601هـ / 1205م).

وما يؤكّد ذلك التوجّه العلمي العام الشامل مناطق توات ، هو اقتصار التأليف والإبداع على تلك الفنون ، حيث تعدّدت المؤلّفات الفقهية واللغوية ، التي نذكر منها على سبيل القصر لا الحصر ما يلي :

* كتب النوازل والفتاوى الفقهية التي سادت خلال هذا القرن ، وقد سبق ذكرها .

* حاشية مستقلة على الشيخ عبد الباقي الزرقاني للجنتوري .

* روضة النسرين في مسائل التمرين وشرحها لابن أبّ المزمّري .

* مختصر السمين في إعراب الكتاب المكنون لعبد الرحمن بن عمر التنلاني .

[1] – ومنها بصفة خاصة كتب الفهارس ، على غرار فهرس شيوخ عبد الرحمن بن عمر التنلاني وفهرس شيوخ عمر بن عبد القادر التنلاني .

* ألفية الغريب لمحمد بن محمد العالم الزجلاوي .
* الوجيز في شرح مختصر خليل للزجلاوي .
* مختصر النوادر لعبد الرحمن بن عمر التنلاني .
* تحلية القرطاس بالكلام عن مسألة الخمّاس لابن أبّ المزمّري .
* تأليف في التصوف في أحوال أرباب القلوب للجنتوري .
* رجز في علم الكلام في مسألة الكون للجنتوري .
* فهرس شيوخ عبد الرحمن بن عمر التنلاني .
* فهرس شيوخ عمر بن عبد القادر التنلاني .

كما أشارت نوازل الجنتوري إلى جانب هام من جوانب التدريس ومصادر تمويله ، وهو أن يُعطى الإمام أو الفقيه جزءاً من الغلّة حين نضوجها ، في مقابل القيام بتعليم الصبيان والكبار على حدٍّ سواء ، ويبقى الأمر بأيدي أهل البلد إنْ شاءوا تزكيته وتثبيته ، أو إخراجَه والإتيان بغيره [1] .

المبحث الثاني : أشهر الأعلام من خلال النوازل

حُقَّ للقرن الثاني عشر الهجري أن يوصف بأنه قرن التجديد العلمي و الزخم الفكري ، مقارنة بما شهدته توات في سالف القرون . وذلك بالنظر إلى العدد الهائل من الأعلام العلماء والفقهاء الذين أضاءوا بعلومهم ربوع توات ، وأحيوا بجهودهم واجتهاداتهم وتنافسهم ما كاد يندرس من العلوم والفنون . وفضلاً عن الشيخ المصلح عبد الرحمن الجنتوري ، تحيلنا النوازل إلى عديدِ الأعلام الذين جادت قرائحهم بمؤلّفات قيّمة ، حفظت أسماءهم وآثارهم على مرّ الأزمان ، ومن أشهرهم [2] :

01 – عبد الرحمن بن عمر التنلاني (ت 1189هـ / 1775م) [3] : يُكنّى أبا زيد ، وهو من أعظـــم

---

[1]– من شواهد ذلك سؤال بعضهم الشيخ الجنتوري في إحدى النوازل عن إمام دخل في زمان أبريل ، ما أخذ شيئاً ممّن علّمه ، ولا أعطاه أحد من أهل البلد شيئاً في تلك الساعة ، وبقي بينهم أعواماً ، إلى أن أخرجه بعض أهل البلد وأتوا بغيره ، والغلّة موجودة حينئذ . هل يأخذها كلَّها أو يقسمها مع الداخل ، وهل يحاسب بما فاته من الغلّة حين دخل أم لا ؟ فأجاب الشيخ الجنتوري قائلاً " ... وبعد فالغلّة الموجودة تُعطى للإمام الخارج . في النازلة . ولا شيء منها للإمام الداخل " .

يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 69 .

[2]– تمَّ إحصاء جملةٍ من الأعلام المذكورين في النوازل سابقاً في مبحث القضاء ، المتضمن في الفصل الثالث .

[3]– يُنظر ترجمته في : عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، فهرسة الشيوخ ، تحقيق : عبد الرحمن بعثمان ، ص 25 وما بعدها / عبد القادر بن عمر المهداوي ، الدرة الفاخرة في ذكر المشايخ التواتية ، ص 05 / محمد بن عبد الكريم التمنطيطي ، جوهرة المعاني ، ص 23 وما بعدها / محمد باي بلعالم ، الغصن الداني في ترجمة وحياة عبد الرحمان بن عمر التنلاني ، الجزائر : دار هومة ، 2004 م ، ص 03 وما بعدها / عبد الرحمن بن عمر التنلاني / الصديق حاج أحمد ، المرجع السابق ، ص 87 وما بعدها / محمد باي بلعالم ، الرحلة العلية إلى منطقة توات ج 01 ، ص 220 وما بعدها / محمد عبد العزيز سيدي عمر ، المرجع السابق ، ص 99 وما بعدها .

شيوخ توات في القرن 12 هـ ، وأكثرهم تأليفاً وتقييداً ، لقّب بالعلاّمة والشيخ والأستاذ [1] . ولِد في تنلان ودرس بها ، ثمّ انتقل إلى اجنتور ، عند شيخه أبي زيد عبد الرحمن الجنتوري ، ومكث بها أربعة اشهر ، ثمّ عاد على تنلان ، ومنها رحل إلى بلاد التكرور ، وطاف بمدنها ، وأخذ الإجازات تلوَ الإجازات من علمائها ، ثمّ زار سجلماسة بالمغرب الأقصى ، طالباً للعلم باحثاً عن أهله [2] .

لقد أثنى العديد من الشيوخ والمؤرّخين على الشيخ عبد الرحمن التنلاني ، وبيّنوا مدى اجتهاده في المسائل وحرصه في تحصيل العلم والمعرفة ، والمكانة التي تبوّأها بين أترابه من العلماء ، فوصفه صاحب جوهرة المعاني بأنّه [3] " ... شيخ الشيوخ وبقية الرسوخ ، العلاّمة ، الفهّامة ، علم الأعلام ، ومرشد الإسلام أبو زيد كان . رحمه الله . عالماً ثاقبَ الذهن ، ذا وقار وديانة ، انتهت إليه رياسة الفقه بالديار الصحراوية " . وقال عنه المهداوي في تقييده الدرة الفاخرة [4] "... عالم العصر ، من أهل قيام الليل ، كان من غرائب الدهر ، تقدّم في جميع فنونه وكان شيوخ عصره يبالغون في الثناء عليه ، صالحا ، مجتهدا ، نوازلياً ، عجيباً فاضلاً متفوقاً في فنونٍ كثيرة ، وتخرّج عنه الأعلام والأعيان " .

أمّا شيخه عبد الرحمن الجنتوري فقد أشاد بعلمه وتفوقه ، ودعا له بالظفر والسيادة ، وأحلّه مراتب العلماء الشيوخ ، وهو لا يزال تلميذاً آخذاً عنه . حيث خاطبه في إحدى رسائله إليه قائلاً [5] " ... إلى الشيخ الأجلّ ، العالم الأنْبَلِ أبي زيد سيدي عبد الرّحمن بن عُمر ، شيّد الله مناره ، ونوّر سريرته ، وجعله ممّن ساد وظفر " ، ممّا يدلّ على حسن ظنّ الشيخ الجنتوري بتلميذه عبد الرحمن التنلاني ، وتفرّسه فيه ملامح الفطنة والنبوغ والريادة .

وكان الشيخ التنلاني يبادل شيخه الجنتوري معاني التقدير والاحترام ، ويخفض له جناح الذل من التواضع والعرفان بفضله ، بعد أن انتسب له وصار ابنه في الدين على حدّ قوله [6] . وكان يرفض الخوض في المسائل والنوازل نيابةً عنه ، أو إصدار الأحكام بشأنها قبل عرضها عليه ، فقد كاتبه في إحدى المراسلات بما نصّه [7] " ... وحكّموني في نازلتهم ، ولما أوقفوني على دعاويهم وبيّناتهم ، توقفتُ على الحكم بينهم حتى أعرض ذلك على حضرتكم العلية ، وأستشيركم فيما أحكم به بينهم " .

---

[1]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 33 .

[2]– عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، فهرسة الشيوخ ، ص 28 .

[3]– محمد بن عبد الكريم التمنطيطي ، جوهرة المعاني ، ص 23 .

[4]– عبد القادر بن عمر المهداوي ، المصدر السابق ، ص 06 .

[5]– عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، فهرسة الشيوخ ، ص 120 .

[6]– المصدر نفسه ، ص 119 .

[7]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 116 .

ورغم أنّ الشيخ عبد الرحمن بن عمر لم يتولَّ منصب قاضي الجماعة في توات ، إلاّ أن القاضي الشهير عبد الحق بن عبد الكريم ـ الذي عاصره ردحاً من الزمن ـ لم يكن ليقطع أمراً حتى يُشهده ويستشيره ولم يزلْ معتمداً على فتواه وروايته ، مقتفياً في الحوادث أثَرَ منقوله واختياراته ، فدارت بينهما الكتابات والمراسلات ، نصح في إحداها التنلاني القاضيَ المذكور قائلاً [1] " إذا خاطبتُك بعزو المنقول فاحكم بذلك وعُهدتُه عليَّ ، وإنْ خاطبتك بالمقول فاقرع باب نظرك فإنَّك مسئول " .

ويبدو أنّ الشيخ عبد الرحمن التنلاني قد خالف القاعدة القائلة بأنّ حظّ علماء توات من الكتابة والتدوين قليل ، وأنهم يتصدّون للتعليم والتأليف في صدور الرجال فقط ، فقد سار على خطى شيخه الجنتوري ، وألّف في شتى صنوف العلم ، في الفقه والفلك واللغة وأدب الرحلة ، ومن مشهور ذلك [2] :

– أرجوزة في علم الفلك مكونة من 21 بيتاً ، تكلم فيها عن منازل النجوم وعدّة الشهور يقول في مطلعها

الحَمْـدُ للهِ الـذي عَلَّمَنَـــا مِنَ النُّجُـومِ مَا بِهِ اهْتداؤنا
فِي ظُلُمَـاتِ البَحْـرِ ثُمَّ البَرِّ سُبْحَـانهُ مِنْ قَـادِرٍ وَبَـــرِّ
وخصّنـا بأفضَـلِ البَرايـــا محمدٍ ذي الفَضْـل والمزايـا
صَلَّـى عَلَيْـهِ اللهُ ثمَّ سَلَّمَـا وَآلِـهِ وَكُـلّ مَنْ لَهُ انتَمَـــى
وَبَعْدُ فَالقَصْدُ بِذَا المسْطُورِ قَسْمُ المنَـازِلِ عَلى الشهُـورِ
لِبَعضِهـا أُشير بالحُـــروفِ بالعَددِ المصْطلَحِ المعْــروفِ
رَابِـع ينيـر لسّعـد بَلـــع وللسعُـودِ يـزه فَلتَسَتمِـــع
وحي للإكليلِ ثم الآخِـرة اجعله للقَلب تنَلْ مفاخـره

إلى أن يقول:

قَد انْتَهى والحَمُد لله عَلى مَا مَنَّ مِنْ آلائِـه وأفْضَـلا

– أرجوزة شبكة القنّاص في نظم درة الغواص ، وقد أشار إليها صاحب مخطوط جوهرة المعاني [3] .

– مجموعة تقاييد وفتاوى ، جمعها الشيخ محمد عبد الكريم بن عبد الملك البلباني في كتابيه : الجامع وغاية الأماني في أجوبة أبي زيد التنلاني .

[1] – محمد باي بلعالم ، الغصن الداني في ترجمة وحياة عبد الرحمان بن عمر التنلاني ، ص 42 .

[2] – عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، فهرسة الشيوخ ، ص 31 .

[3] – محمد بن عبد الكريم التمنطيطي ، جوهرة المعاني ، ص 23 .

– الفهرسة التي ذكر فيها شيوخه ، والفنون العلمية التي درسها عليهم ، وتلقَّاها بالإجازة منهم ، وهي تشتمل على 100 ورقة بالكتابة الدقيقة ، افتتحها بقوله : يقول راجي عفو مولاه الكريم وفضل جوده العميم ، عبد الرحمن بن عمر التواتي منشأً ومولداً ، الأموي أصلاً ومحتداً ... [1] .

– مختصر النوادر ، وهو كتاب في الفقه لابن أبي زيد القيرواني ، اختصره الشيخ ، ونسخه تلميذه محمد بن مالك القبلاوي تطرق فيه إلى أمور تخصّ العبادات والمعاملات ، كالصلاة والصيام والبيوع والمغارسة والقضاء والشهادات والتفليس وغيرها .

– تقريظ على نظم الأجرومية لابن أبّ المزمّري ، وهي قصيدة قرّظ بها شيخه ابن أبّ ، بعد انتهائه من نظم " نزهة الحلوم في نظم منثور ابن آجروم " ، يقول فيها :

إذا رُمْتَ نَظْماً يَزْرِي بِالدّرّ في سِلكِ فَلاَزِمْ ذَا الشيخِ بنَ أُبّ أَخَ النسْـــكِ

بَدَا فيهِ فَرْداً بَينَ أَعْلامِ عَصْـــــرِهِ وَحَازَ بِهِ سَبْقاً وَفَضلاً بِلاَ شَـــــكِّ

فمَا انْفَكّ مُذْ أَزْمَان يُبْدي عجائبـا بِصوغِ قرِيضٍ مُحْكَمِ النَّظْمِ والسَّبـــكِ

إلى أن يقول :

فقد حوَتْ مَعْ إِيجَازِها لُبَّ أَصلِهـا أَدَامَ بِهَا نَفْعاً إلهِي ومَالِكِـــــــــي

وَأَولَى الذي أبْداها خَيْـرَ آلائِـــه فَقدْ سَهَّل الصَّعبَ الذي كُنّا نَشتَكِي [2]

– مختصر السمين في إعراب الكتاب المكنون ، وهو اختصار لكتاب ضخمٍ شهير ، ألَّفه شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يوسف النحوي الشافعي الحلبي المعروف بـ " السمين " . قال التنلاني في عرضه أسباب اختصاره هذا الكتاب ، أنّه وجده كبيراً في أربعة أسفار ، كلّ سفر جاء في ثلاثين كراسة بالقالب الكبير ، ولما وقف عليه شغف به وعجز عن تحصيله لكبر حجمه ، فاستعان بالله على اختصاره والتصرّف فيه .

وللشيخ عبد الرحمن بن عمر التنلاني مؤلّفات أخرى ، يطول في بسطها القول ، ولعلّ آخرَها ما قيّده في رحلته الحجية ، التي تعتبر من أجلِّ ما أُلِّف في فن الرحلة في توات . ذكر فيه المؤلّف مراحل رحلته من منطلقها من توات حتى الوصول إلى البيت الحرام ، ثم تتبع طريق العودة إلى القاهرة ، بعد أداء مناسك الحج حيث وافته المنيّة هناك ، ودُفن حذاء قبر عبد الله المنوفي [3] . وصلّى عليه جميع من كان في الركب ، إضافة إلى ألوفٍ من المصلّين من مصر .

[1] – محمد باي بلعالم ، الغصن الداني ، ص 55 .

[2] – محمد باي بلعالم ، الغصن الداني ، ص 57 .

[3] – عبد القادر بن عمر المهداوي ، المصدر السابق ، ص 05 .

ولم تمر وفاة هذا العلم التواتي الجليل بعيداً عن توات ، دون أن تثير الأحزان وتستدعي أقلام الشعراء المحليين ، حيث جادت قرائحهم بمرثيات معبِّرة ، أشهرها ما نظمه تلميذه الشيخ محمد بن محمد العالم الزجلاوي في حقّه حيث قال [1] :

وإذا ذكرتَ مِنَ الحوادثِ جمّـــة فاذكرْ رزيةً لا رزيةَ عوضَهـــــا

واذكرْ أبَا زيدٍ ولوعةَ فَقْـــــــدِه وتلهّفَ الإسلامِ منه ورحضَهـــا

إلى أن يقول :

يا عَيْنُ جودي بالدُّموع لِفَقدِ مَن لِمُصابِهِ بكتِ السماءُ وأرضُهـــا

كما خلّد الشاعر التواتي محمد بن مبروك البوداوي اسم التنلاني وموطن إقباره ، في مرثيته الشهيرة من بحر الوافر ، والتي جاء فيها [2] :

ألاَ يَا مِصرُ قَدِ اِزْدَدتِ فَخْـراً بِخَبْرٍ حَلَّ مَقْـبَرَةَ الْمَنُوفـــــي

بُعَيْدَ زيارَةِ الهَادِي الْمُنَـبَّـــأ مَنْ حجّ البَيْتَ حَقّاً بِالـوُقُوفِ

إلى أن يقول :

ويُـقْصَد بِالنَّوَازِلِ كُلّ يَـــوْمٍ فيَكْـشِفُ مَا عَلَيْها مِنْ رضِيفِ

ويَصْرِفُ للطَّرِيقَـةِ مَنْ أَبَاهَا وَأَبْغَـضَهَا عَلَى رَغْـمِ الأُنُـوفِ

ويختمها بقوله :

تُوفِّيَ في مَساكِنِ مَصْرَ فَجراً وكَمْ صَلَّتْ عَلَيهِ مِنْ صُفوفِ

02 – عمر بن عبد القادر التنلاني (ت 1152هـ / 1739م) [3] : يُكنَّى أبا حفص ، ويُلقَّب بعمر الأكبر [4] ، تمييزاً له عن الشيخ عمر التنلاني المهداوي الملقب بالأصغر ، وهو شيخ كل من عبد الرحمن بن عمر سالف الذكر ، وعبد الرحمن الجنتوري ، وشيوخ آخرين ، لذا اشتُهر بشيخ الشيوخ [5] . نشأ بزاوية

---

[1]– محمد باي بلعالم ، الغصن الداني ، ص 73 .

[2]– محمد عبد العزيز سيدي عمر ، المرجع السابق ، ص 100 .

[3]– يُنظر ترجمته في المصادر والمراجع التالية : عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، فهرسة الشيوخ ، تحقيق : عبد الرحمن باعثمان ، ص 78 / ضيف الله بن محمد بن أبّ المصدر السابق ، ص 64 / محمد بن عبد الكريم التمنطيطي ، جوهرة المعاني ، ص 14 / عمر بن عبد القادر التنلاني ، فهرسة الشيوخ ، تحقيق : عبد الكريم طموز ، الفصل الأول / محمد عبد العزيز سيدي عمر ، المرجع السابق ، ص 83 / عبد الحميد بكري ، المرجع السابق ، ص 80 .

[4]– تحتوي نوازل الجنتوري على العديد من الأجوبة المنسوبة للشيخ عمر بن عبد القادر ، أُشير إليه في بعضها بالشيخ سيدي عمر الأكبر . يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 65 .

[5]– محمد عبد العزيز سيدي عمر ، المرجع السابق ، ص 83 .

جدّه في تنلان ، وقرأ بها القرآن وشيئاً من الفقه ، ثمّ رحل وهو ابن تسع عشرة سنة إلى مدينة فاس ، فأقام بها نحو ثلاث عشرة سنة ، يأخذ العلم عمّن ألفاه بها من الأعلام ، ويُزاحم المشهورين من شيوخ وعلماء القرويين ، وبعد عودته منها أفاد من علمه العديد من الطلبة .

ولعلّ أبرزهم عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، الذي أشاد بعلمه وشخصيته المهيبة قائلاً [1] " ... شيخنا الإمام العلمُ العلاّمة البحر الفهّامة ، شيخ الشيوخ ، ومن له القدم والرّسُوخ ، أبو حفص سيدي عمر بن عبد القادر بن عمر ، والده سيدي أحمد بن يوسف ، كان رحمه الله عالماً ، عاملاً ، حافظاً ، ثاقبَ الذِّهن فصيح اللّسان ، مع عفة ووقار وهيبة ، تهابُه الولاة فمن دونَهم ، لا يكاد يُراجَع في مجلسه لهيبته مع انبساطه وكثرة تبسّمه ، وإيراد الحكايات المضحكة فيه ، لولا ذلك لأذهل أهله عن فهم عبارته ، ولقد حدّثني بعض من أثق به ، وقد كان يجالس الولاة ويُداعبهم ، فَضلاً عن غيرهم ، ويفِد عَلى الملوك ويتجاسر على مخاطبتهم ، أنّه ما رأى قطّ أهيَبَ منه رحمه الله تعالى " .

ورغم أنّه عاصرَ الشيخ الجنتوري ، إلاّ أن هذا الأخير كان يقرّ بأسبقيته ، ويخاطبه بـ [2] " شيخِنا أبي حفص " ، وينقل بعضاً ممّا صرّح وأفتى به ، مستخدماً لفظ [3] " سيدي عمر بن عبد القادر " . فكان أثره عليه عظيماً ، حيث يقرّر الشيخ الجنتوري في إجازته لتلميذه عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، مبيّناً ذلك التأثير الكبير لشيخه عليه بقوله [4] " وأخذتُ الفقه أيضًا ، سماعاً وإجازةً مُطلقة ، كتابةً ومشافهةً ، عن شيخنا الحافظ الفقيه ، الجامع بين المنقول والمعقول ، الضارب في كل فنٍّ بأوفر نصيب ، الذي لو لم ألقَه ما ذهبتُ و لا جئت ، أبي حفص سيدي عمر بن سيدي عبد القادر . أدام الله بقاءه . وعَمَّمَ النَّفع به لكلّ وارد وصادر .

وذلك دأبُ العلماء فيما بينهم ، وتلك أخلاقهم . أمّا الكتّاب والمؤرّخون فيبدو أنّ لهم رأياً آخر ، حيث نُقِل عن ضيف الله بن محمد بن أبّ قوله [5] " حدّثنا السيد الحاج خالد أنّ والدي (يعني محمد ابن أُبّ المزمّري) رحمه الله قال بأنّ السيد الحاج عبد الرحمن الجنتوري أقوى من شيخه سيدي عمر التنلاني ، وأكثر منه علماً ، وإنّه لو حضره لقَرَأ عليه " .

---

[1]– عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، فهرسة الشيوخ ، ص 78 .

[2]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 13 .

[3]– المصدر نفسه ، ص 145 .

[4]– عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، فهرسة الشيوخ ، ص 93 .

[5]– ضيف الله بن أبّ ، المصدر السابق ، ص 32 .

لكنّ الشيخ أبا حفص عُمَر لم يعمّر طويلاً ، حيث توفى وعمره لم يتعدَّ أربعاً وخمسين سنة ، وقد مالَ في آخر عمره لطريقة الصوفية ، وأخذها عنه جماعة ، فكانوا يزورونه كلّ خميس فيخرج إليهم ، ويجلس لتعليمهم وتذكيرهم وتربيتهم ، فظهرت بركته عليهم [1] .

لم يكن الشيخ أبو حفص عمر ممّن أهمّهم التأليف ، فقد شغله القضاء والتدريس وتسيير شؤون الزاوية والسهر على توجيه الطلبة عن الكتابة وتسويد الصفحات ، فلم يكن له من التآليف سوى فهرسة ، ذكرَ فيها شيوخه وما أخذه عنهم ، وله تقييدات على مواضع من المختصر ، وطُرر وأبحاث في بعض كتبه تدل على غزارة علمه وثقوب ذهنه ، ومنها كذلك مجموعة فتاوى ، وله تقاريظ شعرا ونثرا ، ومراسلات محتواة في بعض المؤلّفات ، مثل رحلة ضيف الله ابن أبّ [2] .

03 – محمد بن أُبَّ المزَّمّري (ت 1160هـ / 1747م) [3] : هو الأديب الفقيه الشاعر ، ذو المواهب والملَكات المتعددة . طاف مناطق توات الثلاث ، تيدكلت وتوات وتيكورارين ، وارتبط اسمه بها ، حيث وُلد في قصر أولاد الحاج قرب آولف ، ودرس في زاوية كنتة ونبغ واشتهر ، فتحوّل إلى التدريس ، ثمّ استقرّ أخيراً في تيميمون ، كما تنقل الشيخ ابن أب بين سجلماسة وفاس من بلاد المغرب ، وبين تمبكتو وأروان من بلاد السودان ، ممّا ساهم في تبلور شخصيته وتنوّع معارفه ، وأصبح بذلك من أبرز الشيوخ والأدباء التواتيين في عصره ، يقصده الطلبة من مختلف قصور توات .

وقد ربطتْ الشيخ ابن أبّ بالشيخ الجنتوري علاقات خاصة ، بحكم استقرارهما معاً في منطقة تيكورارين وتماثل عمريهما ، وتميّز كلّ واحد منهما في فنون دون غيرها . فأصبح ابن أبّ اللغوي مرجعاً للجنتوري في الضوابط الشعرية والأدبية ، كما كان الجنتوري الفقيه مقصداً لابن أبّ في ما أشكل عليه من مسائل فقهية ونوازل محلية . فكانا يقضيان النهار معاً ، يتدارسان العلوم والفنون ، ويعرض أحدهما على صاحبه ما جادت به قريحته ، ورغب في أخذ رأيه بشأنه [4] .

ومن الشيوخ الآخرين الذين شهدوا بفضل الشيخ ابن أبّ المزمري وأقرّوا بفضله ، عبد الرحمن بن عمر التنلاني الذي وصفه بأنه كان " فقيهاً ، أديبا ، نحويا ، لغويا ، تصريفيا ، عروضيا ، فائقَ من لاقيتُ

---

[1]– عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، فهرسة الشيوخ ، ص 86 .

[2]– عمر بن عبد القادر التنلاني ، فهرسة الشيوخ ، ص 58 .

[3]– يُنظر ترجمته في : عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، فهرسة الشيوخ ، ص 133 / محمد بن عبد الكريم التمنطيطي ، جوهرة المعاني ، ص 14 / ضيف الله بن أبّ ، المصدر السابق ، ص 11 / محمد عبد العزيز سيدي عمر ، المرجع السابق ، ص 111 / مولاي أحمد الطاهري الإدريسي ، المصدر السابق ، ص 111 / محمد باي بلعالم ، الرحلة العلية إلى منطقة توات ، ج 01 ، ص 89 / أحمد أبّا الصافي جعفري ، محمد بن أُبّ المزمري حياته وآثاره ، ص 59 / فرج محمود فرج ، المرجع السابق ، ص 99 .

[4]– ضيف الله بن أبّ ، المصدر السابق ، ص 67 .

في الفنون الثلاثة الأخيرة ، رائقَ الخط ، شاعراً ، مجيداً ، مفلقاً ، لا يبارى فيه ولا يُجارى ، حتى لقد قال في عنفوان شبابه مخبِراً عن حاله :

إذا سَادَ بالإقْدَام عَمْرٌ وبالذّكَـــا تفرّد إياسٌ وبالجُود حَاتـــمُ

فإنّ شِعَاري صَنْعَةَ الشّعرِ فالذي يُنَازِعُني فيهَا فَذَلِكَ ظَـــالِمُ

وقد نظم قصائد ومقطعات ، لو جُمعت لكانت ديواناً كبيراً [1] .

ومن القصائد التي نظمها ما انفردتْ نوازل الشيخ الجنتوري بتدوينه ، وهي قصيدة في فضل الذِّكر وطريقته ، سمّيت فدية الأذكار ، يقول فيها [2] :

الحمدُ للهِ العظيمِ البـــارِي مُنجي العبيدِ منْ عذابِ النارِ

فاتحةٌ فديتُها روِينَـــــا بخمسةٍ وزِدْ لها سَبعينَـــــا

كذا ثمانِ مائةٍ منْ بَسمَلَـهْ كذا رَوينا عنْ ثِقاتِ النَّقَلَـهْ

وسبِّح الإلَهَ واحمدنَّـــــهُ ألفاً بِصيغةٍ وعظِّمَنـــــهُ

سبعينَ ألفاً لا إلَـــــه إلاَّ اللهُ عزّ ربُّنا وجـــــلاَّ

وقلْ هُو الله أتتْ مرويـــة مائةَ ألفِ مرةً فخرِيـــة

فإنْ فعلتَ بعضَها يكفيكَ واجتهِدَنْ في جمعِها تُنْجيـكَ

وقد خلّف الشيخ ابن أبّ تآليف قيّمة ، طُبع بعضها ، وبقي أغلبها مخطوطاً ، غلبت عليها القصائد الشعرية والتآليف اللغوية [3] . ولا يزال بعضها مُتداولاً إلى يومنا هذا على ألسنة طلبة الزوايا والمحاضر والمدارس الدينية بالإقليم ، على غرار النظم الشهير المسمّى " العبقري " ، الخاص بالسهو في الصلاة ، المقتبس من مختصر الشيخ الأخضري ، والذي بدأه بقوله [4] :

الحَمْدُ للهِ الجزيلِ النِّعَـــــــمِ مُرشِدِ مَن عَنْ سُبُلِ الحقّ عَـــمِ

ثمّ صلاةُ اللهِ يَتلُوها السَّـــــلامْ على رسولِ اللهِ سَيِّدِ الأَنَـــامْ

إلى أن يقول :

وبعدُ فاعلَمْ أنَّني قصـــــدْتُ إنجازَ مَا كُنتُ بهِ وَعـــــدتُ

---

[1] – عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، فهرسة الشيوخ ، ص 133 .

[2] – عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 146 .

[3] – أحصى الدكتور أحمد أبّا الصافي جعفري العشرات من القصائد والتآليف ، في معرض حديثه عن حياة العلاّمة ابن أبّ ، فليُرجَع إليه . يُنظر : أحمد أبّا الصافي جعفري ، محمد بن أُبّ المزمّري حياته وآثاره ، ص 66 وما بعدها .

[4] – محمد باي بلعالم ، الرحلة العلية ، ج 01 ، ص 104 .

مِنْ نَظْمِ سهوِ الشَّيخِ الأخْضَريِّ مُعتذراً لِكُلِّ لوذَعـــــــــيِّ

ومِن تصاريف الأقدار أنّ وفاة ابن أبّ المزمري كانت في نفس السنة التي أفلَ فيها نجم الشيخ أبي زيد عبد الرحمن الجنتوري ، وهي سنة 1160هـ / 1747م ، حيث توفي بتيميمون ودُفن بها ، وقبره مشهور يُزار ، يُعرف بقبر العبقري نسبة إلى المؤلَّف الشهير المذكور [1] .

04 – محمد بن عبد الرحمن بن عمر التنلاني (ت 1233هـ / 1818م) [2] : من الأعلام التنلانيين التواتيين المشهورين ، وكنيتهُ الواردة في نوازل الجنتوري هي أبو عبد الله [3] . ساهم في إثراء تلك النوازل بجملة من الفتاوى [4] ، أخذ العلم عن والده الشيخ أبي زيد عبد الرحمن التنلاني ، ثمّ انتقل إلى سجلماسة للدراسة على يد الشيخ أبي العباس أحمد بن هلال السجلماسي ، الذي أشاد بسرعة تحصيله وبمستواه العلمي ، فأرسل إلى والده يبشّره بذلك قائلاً [5] :

إنَّ الهِلالَ إذا رَأيْتَ نُمـــوَّهُ أيقَنْتَ أنْ سَيَكُونُ بَدراً كَامِلاً

وقد تصدّر محمد بن عبد الرحمن للإفتاء والتدريس في حياة أبيه ، في مناطق عدة ، منها قصر أقبلي ، وكان يراسل أباه في ما استعصى عليه من النوازل . حتى أنّ محمد بن عبد المالك البلبالي جمع كتاباً سمّاه " الجامع " ، ضمّنه الكثير من الفتاوى والنوازل التي جاءت على شكل أسئلة وأجوبة متبادَلة بينه وبين أبيه ، مبتدئة بـ [6] " وسأل الابن أباه " .

وإضافةً إلى الفتاوى المنسوبة للشيخ محمد بن عبد الرحمن ، المتضمَّنة في نوازل الجنتوري ، فقد كان كثير النسخ للكتب ، حيث ألّف العديد من الرسائل والنوازل ، أهمّها كتاب غاية الأماني في أجوبة أبي زيد التنلاني ، وضمّنها العديد من النوازل والأسئلة الفقهية التي تبادلها مع والده . وتختصّ بمسائل العبادات والمعاملات ومسائل الميراث والنزاعات حول الأراضي وغيرها . فاستحقّ بذلك إثراء الشيوخ والمؤرخين المحليين له ، ومنهم المهداوي صاحب الدرّة الفاخرة ، الذي قال عنه [7] " ... كان عالماً مجتهدا في البحث ،

---

[1]– أحمد أبّا الصافي جعفري ، المرجع السابق ، ص 95 .

[2]– يُنظر ترجمته في : عبد القادر بن عمر المهداوي ، المصدر السابق ، ص 08 / محمد عبد العزيز سيدي عمر ، المرجع السابق ، ص 103 / الصديق حاج أحمد ، المرجع السابق ، ص 90 .

[3]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 20 .

[4]– المصدر نفسه ، ص 106 .

[5]– محمد عبد العزيز سيدي عمر ، المرجع السابق ، ص 104 .

[6]– عبد الرحمن بعثمان ، الدور العلمي للزاوية التنلانية ، ملتقى أعلام توات ، ص 11 .

[7]– عبد القادر بن عمر المهداوي ، المصدر السابق ، ص 09 .

من حفّاظ الحديث والفقه والمنطق والعروض . اشتهر بالدين وحسن السيرة ، وكان عديم النظير في العلم على اختلاف فنونه ، متبحّراً في معرفة أحكامه ومعانيه ، من أعيان العلماء ومشاهير الفضلاء ، انتهت إليه الرياسة في التجويد وعلم الحديث " .

والجدير بالملاحظة . من خلال نوازل الشيخ الجنتوري . أنّ لمنطقتي تيكورارين وتيدكلت حظاً مماثلاً من نشاط الشيوخ والأعلام ، رغم أن المصادر المحلية وكتب التراجم المعاصرة أغفلت نقل أخبارهم ومآثرهم ، على خلاف ما استأثرت به منطقة توات الوسطى . ومنهم الشيخ محمد بن عبد العزيز المسعدي القراري ، الذي كان يُراجع شيخه الجنتوري في بعض المسائل [1] ، والحاج محمد بن عبد الجبار التنكرامي محبّ الشيخ وخديمه [2] ، ومحمد بن الحسين التحموني [3] . فضلاً عن شيوخ تيدكلت الذين أخذ عنهم الشيخ الجنتوري في مستهلّ دراسته ، وعلى رأسهم والده الشيخ سيدي إبراهيم بن عبد الرحمن ، وابن عمه عبد العالي بن أحمد بن عبد الرحمن ، وسيدي أحمد بن الحاج الأمين الغلاوي القبلاوي وغيرهم من الشيوخ والعلماء .

المبحث الثالث : الرحلات والمناظرات العلمية

لقد تنوّعت مظاهر النشاط الثقافي وتعدّدت أوجهه في مناطق توات الثلاث ، ولم تعُدْ تقتصر على ما اسودّ من الصحائف نسخاً وتأليفاً ، أو على الركون إلى العزلة والانطواء جمعاً وتقييداً . بل انخرط معظم الأعلام في حركية علمية تنافسية ، جعلت من الحلّ والترحال سبباً للتزوّد والتأثير ، ومن المراسلات العلمية والمناظرات الجدلية سلاحاً للدفاع عن الأفكار والاجتهادات ، وسبيلاً للمقارعة والإقناع .

01 – الرحلات التواتية :

ازدهرت حركة التنقل والترحال من وإلى قصور توات خلال القرن 12 هـ / 18 م أيّما ازدهار ، مستفيدة من المساعي الفردية الذاتية المبذولة من طرف العلماء والمؤرّخين من جهة ، ومن الموقع الاستراتيجي لتوات وانسيابية الاتصال بالحواضر الإقليمية من جهة أخرى . ويمكن تمييز نوعين متباينين من الرحلات ، أحدهما اتّخذ من بلاد الحجاز مقصداً ومن الحج هدفاً ، أما النّوع الثاني فقد ارتبط بطلب العلم وتحصيل فنونه والسعي في سبيله ، رغم مشقّة السفر وهجر المال والولد ، ومع كل خطوة من خطوات تلك الرحلات كان القلم أنيساً وشاهداً على يوميات الرحلة من منطلقها إلى مقصدها [4] .

---

[1]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 133 .

[2]– المصدر نفسه ، ص 05 .

[3]– لم أعثر على ترجمته . ذُكر اسمه في : المصدر نفسه ، ص 21 .

[4]– أحمد أبّا الصافي جعفري ، الحركة الأدبية في منطقة توات ، ص 270 .

والظاهر أنّ كتابة الرحلات وتدوين المحطّات أصبحت ظاهرة مألوفة ، طغتْ على مساهمات الجزائريين الثقافية عموماً خلال القرن 12 هـ ، فكانت بعض رحلاتهم نتيجة للحج ، وبذلك تكون رحلات حجازية وبعضها نتيجة لطلب العلم ، وبذلك تكون رحلات علمية [1] .

أ – الرحلات الحجازية : رغم أنّ الشيخ الجنتوري لم يدوّن رحلته الحجازية ، إلاّ أنه أشار إليها في نوازله ، في معرض الحديث عمّن لقيهم من العلماء في الحجاز والمشرق عموماً ، والمسائل التي استكشفهم عنها [2] . بينما يُعتبر تلميذه عبد الرحمن بن عمر التنلاني رائد فنّ الرحلة التواتية بامتياز ، من خلال رحلته الحجازية التي شرع فيها رفقة ركب الحجيج سنة 1188هـ / 1774م ، وقد سجّل في ثناياها كلّ ما ارتبط بمحطّاتها ضبطاً ووصفاً ، وما أحاط بمجرياتها من لقاءات ومحاورات علمية . وكان قد ابتدأها بخطبة دينية مسجوعة يقول فيها [3] " الحمد لله الذي فرض على المكلفين من عباده حجّ بيته العتيق ، وغفر ذنوب من حجه وهو بذلك حقيق ، وأحمده على ما هدانا إلى خير طريق ، وأشكره على ما منحنا من التوفيق ... " [4] .

وتصوّر تلك الرحلة الحجازية أوجهاً قيّمة متعددة ، فمنها الوجه التاريخي الذي نستنبطه من خلال الحديث عن المزارات التاريخية في توات وفزّان وطرابلس ومصر والحجاز وغيرها ، وذكر الوقائع والمواقف الحرجة التي تعرّض لها الركب في غدوّه ورواحه . والمظهر الجغرافي المتمثل في استذكار الجبال والوهاد والبسائط والوديان والدروب التي مرّت بها القافلة منذ انطلاقها من قصر تنلان ، والوجه الثقافي الذي جسّدته الإشارة إلى بعض الشخصيات التي صادفها التنلاني في طريقه أو نزل عندها . وقد ساهم زمن الرحلة الذي تجاوز نصف السنة في إثراء جوانبها ، حيث امتدّ ذهاباً من شهر جمادى الأخير [5] إلى شهر ذي الحجة [6] . أمّا رحلة الإياب فلم تطُلْ ، حيث توفي صاحب الرحلة في القاهرة ، بعد دخولها في شهر محرم أو شهر صفر الموافقين لبداية السنة الهجرية الجديدة 1189هـ / 1775م [7] .

ب – الرحلات العلمية : تنوّعت بين الرحلات الداخلية نحو مراكز المعرفة في توات ، والرحلات الخارجية نحو الحواضر العلمية المجاورة . فمِن أمثلة اللون الأول ما أشارت إليه النوازل من تردّد الشيخ الجنتوري وسفره

---

[1] – أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 02 ، ص 381 .

[2] – عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 28 .

[3] – يوجد نصّ الرحلة مخطوطاً في نسخةٍ بخزانة بن الوليد بقصر باعبد الله ، ومدوّناً ضمن كتاب الغصن الداني للشيخ باي ، ص 61 .

[4] – عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، الرحلة الحجية ، ص 01 .

[5] – عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، الرحلة الحجية ، ص 02 .

[6] – محمد باي بلعالم ، الغصن الداني ، ص 60 .

[7] – أحمد أبّا الصافي جعفري ، الحركة الأدبية في منطقة توات ، ص 273 .

بعض المرات إلى مركز عين صالح [1] ، إضافةً إلى رحلة أبي عبد الله الفلاني إلى الديار التواتية ، وهي رحلة قام بها الشيخ أبو عبد الله المذكور من بلاد التكرور إلى مركز تنلان ، لتلقّي العلم عن الشيخ عبد الرحمن بن عمر التنلاني بزاوية تنلان ، حيث مكث عنده شهرين وستّ ليالٍ ، وقد صوّر في تلك الرحلة بعضاً من الأحوال الاقتصادية في توات ، كما تحدّث عن الإجازة التي تلقّاها من لدن الشيخ عبد الرحمن التنلاني ، وهي في العموم رحلة قصيرة لا تتجاوز خمس صفحات ، اعتمد فيها على الاختصار ، والسرد المتتالي لأطوار الرحلة ، دونما تركيز على الجوانب الفنية المتعلقة بأدب الرحلات [2] .

ومن أهمّ نماذج اللون الثاني للرحلات العلمية رحلة أبي حفص عمر بن عبد القادر التنلاني ، وهي رحلة هامة ، قادته إلى حاضرة فاس لطلب العلم ، عدّد فيها شيوخه الذين أخذ عنهم ، وعرض إلى بعض المسائل التي ناقشهم فيها ، كما تحدث عن تصدّره التدريس بالمدرسة المصباحية وجامع القرويين . فهي فهرسة لشيوخه ، تسلّط الضوء على التواصل الحضاري بين توات والحواضر العلمية في المغرب الأقصى [3] . وهي وثيقة وسند علمي لطلبة وعلماء توات في نفس الوقت ، إذ تدلّ على خصوصيات عصر مؤلِّفها وبيئته التي درس فيها ، كما تحمل تراجم لعلماء كلٍّ من فاس ومكناسة الزيتون في ذلك العصر وبعض أوصافهم ، وطرق تدريسهم وهيئة مجالسهم العلمية [4] .

كما تُنسب للشيخ عبد الرحمن بن عمر التنلاني رحلات عديدة ذات مقاصد علمية صرفة ، فضلاً عن رحلته الحجية سالفة الذكر ، منها ما ذكره الشيخ باي في كتابه الغصن الداني على النحو التالي [5] :

* رحلة إلى بلاد التكرور بمعية شيخه سيدي عمر بن محمد بن المصطفى الكنتي ، مزجت محطاتها بين متعة القراءة والمذاكرة من جهة وحسن العشرة ورغد العيش من جهة أخرى ، ممّا يدل على ازدهار الحياة الثقافية بتلك الأقاليم ، وتحسّن مستوى المعيشة بها ، وتعوّد التواتيين على ورود مدنها .

* رحلة إلى مدينة أروان ، مقتفياً أثر شيخه سيدي عمر المذكور ، من أجل القراءة عليه ، والإفادة من علومه ، والاغتراف من مناهل ومصادر شيوخه التكروريين .

* رحلة إلى مدينة سجلماسة ، قاصداً شيخه سيدي صالح بن محمد الغماري ، حيث أوضح الهدف من الرحلة حين لقي الشيخ ، وهو أخذ القرآن الكريم بمقرأ الإمام نافع بروايتي ورش وقالون ، فمكث عند ذلك

---

[1]- عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 74 .

[2]- توجد نسخة وحيدة لتلك الرحلة في خزانة مولاي سليمان بن علي بقصر أولاد أوشن ، أدرار .

[3]- توجد من هذه الرحلة أكثر من نسخة ، وقد حقّقها الأستاذ عبد الكريم طموز في إطار الإعداد لرسالة الماجستير .

[4]- عمر بن عبد القادر التنلاني ، فهرسة الشيوخ ، تحقيق : عبد الكريم طموز ، ص 67 .

[5]- محمد باي بلعالم ، الغصن الداني ، ص 58 .

الشيخ حتى ختم السلكة كاملة (أي القرآن الكريم) .

ورغم تميّز الشيخ عبد الرحمن بن عمر عن غيره في أدب الرحلة التواتية ، بفضل حرصه على التقصّي والتدوين ، فإنّ الرحلات العلمية ظلّت سمةً بارزة شاملة خلال القرن 12 هـ ، وانخرط في مسيرتها معظم الأعلام ، على غرار الشيخ عبد الرحمن الجنتوري ، الذي قادته رحلة علمية إلى مدينة فاس ، لكنّه لم يسجّل حيثياتها وجزئياتها ، كما أنّها لم تدمْ فترة طويلة ، بناءً على طلب أهله [1] .

02 – المناظرات والمحاورات العلمية :

أ – خصائص المحاورات التواتية : المناظرات أو أدب البحث من الفنون القديمة ، الدّالة على حركية المجتمعات ورقي النشاط العلمي والثقافي ، وقد يرِد هذا الفن بأسماء أخرى مثل المحاورة أو الجدل ، وهو [2] : علم يبحث في كيفية إيراد الكلام بين المناظرين ، وفي الأدلة من حيث إنها يثبت بها المدعى على الخصم ، والغرض منه تحصيل ملَكة طرق المناظرة ، لئلاَّ يقع الخلط في البحث فتضيع الحقيقة ، ويتعذّر الوصول إلى الصواب . أو هو : تردُّد الكلام بين اثنين ، قَصَد كل واحد منهما تصحيح قوله وإثباته ، مقابل إبطال قول صاحبه ، باستخدام الحجج والبراهين القاطعة .

وقد ساهمت عوامل عديدة في تبلور هذا الفن وشيوع مظاهره في أرجاء توات ، منها طبيعة المذهب المالكي السائد في بلاد المغرب قاطبة ، حيث إنّ المناظرات التي جرت بين فقهاء المالكية كثيرة لا يمكن حصرها واستقصاؤها ، ومالت في معظمها إلى مسائل الفقه [3] ، وهو الجانب الغالب على البحث العلمي في ربوع توات . كما أنّ بعضها توّج بمؤلّفات خاصة أو ورقات ذوات العدد ، وقد عضّد ذلك التوجه ودعّمه جمعٌ من العلماء ، على غرار الشيخ الجنتوري الذي أقرّ بأنّ [4] " الأفهام مختلفة ، ولا يجوز القول مثلاً بأن ثلاثين عالماً يغلبون واحداً أو اثنين ، لأن الحقّ إنما هو حيث جعله الله تعالى " .

والملاحظ ورود إشارات ضمنية إلى شيوع ذلك الفن ، وتحكيم القرطاس واليَراع بين المتحاورين في إحدى نوازل الشيخ الجنتوري ، حين قال [5] " ومن ظنّ اختلاف كلامنا ، فليمدّ قلمه ليطمس المبطِلَ من المحقّ ، والله أعلم " ، ومن نازلة أخرى قوله " ... ثمّ إنّ بعض الناس لامَ كلَّ من أفتى فيها غاية اللوم ،

---

[1] – عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، فهرسة الشيوخ ، ص 87 .

[2] – عمر الجيدي ، المرجع السابق ، ص 165 .

[3] – عمر الجيدي ، المرجع السابق ، ص 165 .

[4] – استدلّ الشيخ الجنتوري في توضيح تلك الفكرة بما وقع للإمام الشافعي حين خالفته أيمةُ الأمصار ، وما ضرَّه ذلك لأنّ السُّنة معه . يُنظر : عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 116 .

[5] – عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 13 .

وكأنه استنقص فتوى القوم " [1] ، وفي نازلة ثالثة شكل حادٌ من أشكال التحاور ، في قوله [2] " ... فنازعَ في ذلك حتى قال قولاً ، وصدر منه ما السكوت عنه أولى " ، وتلك النماذج جميعها إنّما تدلّ على علوّ كعب المتناظرين وسعة علومهم وكثرة إطّلاعهم .

وقد مثّلت تلك المحاورات سبيلاً للتواصل الفكري بين علماء الإقليم من مناطقه الثلاث فيما بينهم من جهة ، وفي مواجهة أترابهم المغاربة وغيرهم من جهة أخرى ، ووسيلة للوصول إلى توحيد الأفهام والاجتهادات . بَيْدَ أنّ الغرض منها لم يكن لأجل الشهرة أو استعراض المعارف والقدرات ، بل من أجل إظهار الحقّ والرجوع إليه ، ليهلك من هلك عن بيّنة ويحي من حيي عن بيّنة ، فاشتدّ الصراع إثرَ ذلك بين عباقرةٍ أعلام ، تصارعوا في سبيل العلم قصد بيان الحق الشرعي وإعلاء كلمته [3] .

ب – بواكير المناظرات في توات : ارتبط فنّ المناظرات في تاريخ توات بالشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي (ت 909هـ / 1503م) ، حيث جمعته بعلماء فاس مناظرة شهيرة ، بعدما أنكر علماء فاس عليه دعوته الإصلاحية ، واتهموه بالطموح إلى الملك ، فأرسل إليهم كتابه مصباح الأرواح في أصول الفلاح فطالعه الفقهاء ، فمنهم من أنفَ ومنهم من أنصف ، فلمّا اشتدّ الخلاف بينه وبين الفقهاء قدم إلى فاس لأجل المناظرة مع علمائها بحضرة السلطان الوطّاسي محمد الشيخ بن أبي زكريا [4] ، فخرج الفقهاء إلى لقائه والسلام عليه ، وكان له ستة مماليك من السودان كلهم يحفظون مدونة البرادعي [5] ، وكلهم فقهاء ، فلما استقرّ المجلس قال لأحد المماليك واسمه ميمون ، تكلم مع الفقهاء في نازلة اليهود ، فغضب الفقهاء وعادوا إلى ديارهم ، وهاجر المغيلي على إثرها فاس إلى الصحراء [6] .

وللشيخ المغيلي كذلك محاورة شعرية شهيرة مع الشيخ جلال الدين السيوطي ، يدور موضوعها حول علم المنطق وفائدته ، وضرورة التمكّن منه . إذ اعتبره الشيخ المغيلي وسيلة ضرورية لإدراك الحق ، على غير

---

[1]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 19 .

[2]– المصدر نفسه ، ص 19 .

[3]– محمد باي بلعالم ، الرحلة العلية ، ج 02 ، ص 80 .

[4]– **الشيخ بن أبي زكريا** (ت 910هـ / 1504م) أول ملوك بني وطاس المرينيين ببلاد المغرب الأقصى ، وواضع أسس الدولة الوطاسية . يُنظر : أحمد بن خالد الناصري ، المصدر السابق ، ج 04 ، ص 119 .

[5]– **البرادعي** أبو سعيد خلف بن أبي القاسم محمد ، من فقهاء المالكية بالقيروان ، ومن كبار أصحاب أبي زيد القيرواني ، اشتهر باختصاره مدونة الإمام مالك ، في كتابه المسمى " التهذيب في اختصار المدونة " ، استقر في صقلية واشتهر بها ، توفى سنة 373هـ / 983م .
يُنظر : محمد بن محمد مخلوف ، شجرة النور الزكية ، ص 105 .

[6]– محمد بن عسكر الشفشاوني ، دوحة الناشر ، ص 130 .

رأي السيوطي الذي قلّل من شأنه ، فكاتبه بقصيدة يقول في مطلعها [1] :

سمعتُ بأمرٍ ما سمعتُ بمثلِـــهِ وكلُّ حديثٍ حُكمُه حُكْمُ أصلهِ

أَيُمكِنُ أنَّ المرءَ في العلمِ حجّـةٌ وينهَى عنِ الفُرقانِ في بعضِ قَولهِ

فأجابه السيوطي بنظم شبيه ، علّل فيه ما ذهب إليه بشأن المنطق ، بدأه بقوله :

حَمدتُ إلَهَ العرشِ شُكراً لِفضلهِ وأُهْدي صلاةً للنَّبي وأهْلـــــــهِ

عَجيبٌ لنظمٍ ما سمعتُ بمثلــهِ أَتاني عَنْ حَبرٍ أُقِرُّ بنُبْلـــــــــهِ

ولم تقتصر المناظرات بين علماء توات وغيرهم من العلماء على الفقه فقط ، بل شملت فنوناً أخرى ، على غرار النحو والأدب . فقد روى عبد الكريم الفكون القسنطيني (ت 1033هـ / 1624م) في كتابه " منشور الهداية " مناظرة حادّة في علم النحو ، بين شيخه محمد بن راشد الزواوي (ت 1033هـ / 1624م) والشيخ سيدي محمد بن مزيان التواتي (ت 1031هـ / 1622م) الملقّب بسيبويه المغرب . وذكر أنّها كانت مصحوبة بمظاهر الغضب والانفعال ، وأنه لم يتبيّن الصواب بينهما ، ورغم ذلك التنافس فقد كانت ـ كما قال ـ سيرتهم جميعاً محمودة ، وآثارهم مشهودة ، وسقطاتهم معدودة [2] .

ج – أشهر المحاورات في القرن 12 هـ : تصوّر نوازل الشيخ الجنتوري نماذج عديدة عن المحاورات الدائرة بين علماء توات خلال تلك الفترة ، ينطلق معظمها من الاختلافات الفقهية ، بسبب التباين الجلي في الاجتهاد في الفتوى ، وتفاوت التقدير والاستخراج المتعلّق بالنوازل والمستجدّات ، ومن أشهرها ما يلي :

* مراسلة طويلة بين الشيخ الجنتوري وتلميذه عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، موضوعها مراجعةُ الأخيرِ شيخَه في قضيةٍ زاوجتْ بين التحبيس والحيازة [3] .

* مناظرة بين الشيخ الجنتوري وأحد القضاة حول حُكم صادر بخصوص نازلة ، أوضح في ختامها الشيخ حُجته وموقفه قائلاً [4] " ... وأنتَ خبير بأن ما في المدوّنة عن ابن القاسم يتعلّق بالحيّة ، والنازلة في الميّتة ، فهما نقيضان ، ولا شكّ أن الحكم مخالف لمستندكم قطعاً ، وهذا ما حيّرني فتنبَّهْ له ، فإنه دقيق عندي ، لكن قد يكون الشيء جليّا عند شخص ، وعند آخر يكون خفيّاً " .

---

[1]– أحمد بابا التنبكتي ، نيل الابتهاج ، ص 578 .

[2]– عبد الكريم الفكون ، المصدر السابق ، ص 107 .

[3]– عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 116 .

[4]– المصدر نفسه ، ص 50 .

* محاورة بين الشيخين عبد الرحمن الجنتوري وأبي حفص عمر بن عبد القادر التنلاني ، حيث جرى بينهما كلام طويل في نازلةٍ متعلقة بثلث الوصية [1] .

* محاورة الشيخ عبد الرحمن الجنتوري مشافهةً لِثُلَّةٍ من علماء المشرق ، حين لقيهم بِرسمِ الحج ، فاستكشفهم ـ كما قال ـ بشأن صحة فتاوى وأجوبة نُسبت إلى المذهب [2] .

ومن المحاورات والمناظرات الأخرى التي دارت بين مراكز توات العلمية وبين أقطابها ، ما نقله الشيخ باي في الرحلة العلية ، كما يلي :

* محاورة بين الشيخ الأديب محمد بن أبّ المزمري وعلماء زاجلو ، موضوعها قضاء دَين الميت مما صولح عليه من دية العمد ، وهل تدخل فيه الوصية ، حيث كان الاختلاف جليا ، وسعى كلّ طرف منهما إلى إقناع صاحبه على حسب فهمه فيها [3] .

* محاورة بين مجموعة من علماء كوسام من توات الوسطى ، ومجموعة من علماء أقبلي من تيدكلت ، حوتها أربعُ رسائل متبادَلة بين الطرفين ، حول صحة الصلاة في الغار وتحت الهدم وبطلانها [4] . وقد ضمّن كلّ طرف رسائله ما يُعضّد رأيه ويقوّي برهانه في تلك القضية .

ورغم العلاقات الوطيدة القائمة بين الأعلام المتناظرين ، وتواضع بعضهم لبعض ، إلاّ أن كلّ واحد منهم كان حريصاً على إفحام صاحبه وإقناعه ، وتغليب دليله وموقفه ، ولو استدعى الأمر في بعض الأحيان الاستشهاد بمقولات أو أمثلة أو أبيات شعرية تبدو قاسية ، وتتجاوز تحفّظ التلميح إلى شدّة التصريح ، ومن تلك النماذج الشواهد التالية :

* " ومن ظنّ اختلاف كلامنا فليمدّ قلمه " [5] .

* " إذا لم تكنْ للمرءِ عَينٌ بَصيرة فلا غروَ أنْ يرتابَ والصّبح مُسفِرُ " [6] .

* " واستقللتَ برأيك ، ومن استقلّ برأيه زلّ كما اعتلّ ، عفا الله عنّا وعنك ، قال الشاعر :

وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيـــــــــم " [7] .

---

[1]- عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 129 .

[2]- المصدر نفسه ، ص 28 .

[3]- محمد باي بلعالم ، الرحلة العلية ، ج 02 ، ص 99 .

[4]- المرجع نفسه ، ص 101 .

[5]- عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 13 .

[6]- محمد باي بلعالم ، الرحلة العلية ، ج 02 ، ص 103 .

[7]- المرجع نفسه ، ص 107 .

والغالب على تلك المناظرات السابقة كونها تصبّ جميعاً في مجرى الفقه وروافده ، حيث وفّرت النوازل المطروحة مجالاً واسعاً لعرض القرائن والأدلة الفقهية . بينما أخذتْ مناظرات أخرى في نفس الفترة الزمنية منحى آخر ، وجاءت على شكل ألغاز شعرية ، كما في البيتين المأخوذين من إحدى القصائد [1] :

هذا سؤالٌ مَطروح غَريبُ لُغْز دَقِيق لَفْظُهُ غريـــبُ

بَعِير طائِر بِلا جَنـــــاح يُفرِّخ أو يَبيضُ في البطاحِ

والجواب على ذلك اللغز متضمَّن كذلك في قصيدة مشابهة ، جاء في مطلعها :

خُذِ الجوابَ واصْغَ لِلبَيــانِ بِعَونِ ربّنا الكَبير العَــالِي

هذا نُعاسٌ يَغْشَى للإنسانِ به يَؤمُّ القبرَ في الخَــوالِي

وصفوةُ القول أنّ الاختلافات الحاصِلة بين علماء توات ، والمحاورات الحادّة المسجَّلة بينهم ، مظهر من مظاهر السِّجال العلمي والتطور الفكري والإبداع الفني ، ولم تكن لِتفسدَ للودّ بينهم قضية . وأنّ الأمر لا يعدو على أن يكون مجرد اختلاف في الأفهام بخصوص ما تعلّق بالفقه منها ، فالبعض منهم كان حريصاً على النظر في أصول المسائل ، بينما حرص البعض الآخر على النظر في خصوصيات النوازل ، كما أقرّ بذلك الشيخ عبد الرحمن الجنتوري في نوازله [2] .

[1] – محمد عبد العزيز سيدي عمر ، المرجع السابق ، ص 30 .

[2] – عبد الرحمن الجنتوري ، المصدر السابق ، ص 35 .

خلاصة الفصل الرابع

يتبيّن لنا من خلال مباحث الفصل الرابع السابقة غِنى إقليم توات بالمراكز والدور الثقافية خلال القرن 12 هـ ، وازدهار النشاط العلمي والفكري بها ، ومردّ ذلك تراكم جملة من المعطيات التاريخية ، شكّلت خلفيات متراكمة لانبعاث النهضة الثقافية الشاملة المذكورة ، حيث توزعت المراكز والمدارس والزوايا عبر ربوع القصور التواتية ، من شمالها إلى جنوبها ، مع تسجيل نوع من التمايز في المستويات والقدرات ، أمْلتهُ طبيعة كل قصر وخصوصياته .

والملاحظ من خلال ما سبق عرضه أن هذه النهضة الثقافية تجاوزت الحدود الجغرافية التواتية ، وتداخلت في كثير من معطياتها مع الحواضر الثقافية المحيطة بتوات تأثّراً وتأثيراً ، فتوطّدت العلاقات الثقافية إثرها ، ومثّل الأعلام التواتيون قواسم مشتركة فيما بينها ، من خلال تنقلاتهم وزياراتهم المستمرة ، محملين بشتى صنوف العلم والمعرفة .

كما يمكن التوصل إلى نتيجة أكيدة وهي أن القرن 12 هـ مثّل قرن الأعلام بلا منازع ، بالنظر إلى العدد الهائل من العلماء الذين ازدانت بوجودهم الحركة الفكرية التواتية ، فساهموا في إثراء الساحة العلمية إقراءً وتأليفاً ، وعلى رأسهم الشيوخ : عبد الرحمن الجنتوري وعمر بن عبد القادر التنلاني وعبد الرحمن بن عمر التنلاني ومحمد بن أب المزمري وسيدي البكري والزجلاوي وغيرهم كثيرون .

ومن المظاهر الدالة على تلك الحركية الثقافية الحاصلة وحيويتها شيوع ظاهرة الترحال العلمي ، والكتابة في أدب الرحلة ، حيث تنوعت الرحلات ما بين علمية وحجازية ، وحملت بين طياتها فوائد جمّة ، تجاوزت الغرض المباشر لها ، وأدّى ذلك إلى تبلور ظاهرة ثقافية أخرى ، هي المحاورات والمناظرات والمراسلات ما بين العلماء والفقهاء ، حيث تعددت أسبابها ومضامينها ، وشكّلت مناخا علميا مميزاً ، سادته الأدلة الدامغة والقرائن الجلية .

الـــخـــاتـــمـــة

الخاتمة

شهدَ إقليم توات في العصر الحديث ما يمكن اعتباره نهضة ثقافية علمية حضارية ، مكّنته من أن يتبوّأ مكانة مرموقة بين الحواضر والمدن المتاخمة له ، ساهمت في تفعيلها عوامل موازية ، على غرار العامل الاقتصادي التجاري ، والعامل الجغرافي الإستراتيجي . وقد تبلورت تلك الحركية بجلاء ، وتجسّدت ملامحها وصورها في تنافس ثلّة من الأعلام التواتيين عطاءً واجتهاداً ، وفي وفرة التآليف والتصانيف ، التي شملت مختلف الفنون والعلوم ، وفي تناثر المدارس والزوايا عبر ربوع وقصور توات .

ويعدّ القرن 12 هـ / 18 م أخصب الفترات والمراحل زخماً وإبداعاً ، ومحصّلة طبيعية للظروف السائدة على المستويين المحلي القريب والإقليمي المتفاعِل ، حيث تقاطعت خلاله المعطيات والإسهامات في شتى المجالات ، وتميّز عن القرون السالفة بتشكّل أنماط اجتماعية وثقافية حديثة داخل المشهد التواتي ، وأصبح بحق قرن التجديد في معانيه المتعددة ، ممّا كان له الأثر المباشر في انبعاث تلك النهضة العلمية .

ويؤكّد ذلك التحول الحاصل الكمّ الهائل من الكتابات والمخطوطات التي تحويها خزائن توات ، الدّالة على وفرة العطاء والإبداع ، خاصة في العلوم النقلية المهيمنة على حجم المصنفات ، وعلى رأسها الفقه وأصوله ، والنحو وفنونه ، والتاريخ ونقوله ، والتي أتاحتْ للباحثين المنقّبين عن التراث المحلي فرصة الغوص في أعماقه ، واستخراج درَره وكنوزه .

وقد جاءت هذه الدراسة المتواضعة قي إطار ذلك السياق ، حيث عالجت الإشكاليات المرتبطة بالحياة الاجتماعية ، وتطور المشهد الثقافي التواتي ، من خلال النوازل الفقهية لأحد الشيوخ المشهورين في ذلك العصر ، وهو الشيخ عبد الرحمن بن إبراهيم الجنتوري . مع ما تقدمه تلك النوازل من مسارات مفتاحية وأجوبة كافية للعديد من التساؤلات حول أوضاع توات القرن 12 هـ في جميع المجالات ، بغض النظر عن غلبة الطابع الفقهي الموسومة به .

ورغم أن تجربة استنباط واستنتاج المعطيات الاجتماعية والثقافية من خلال كتب النوازل ليست بالمحدثة ، إلا أنه يمكن استشعار نكهة الحداثة ورسم صور جديدة بعد كل دراسة ، بالنظر إلى المميزات والخصوصيات الزمانية والمكانية . وهذا ما عاينتُه عقب الانتهاء من الدراسة الاجتماعية والثقافية لإقليم توات من خلال نوازل الشيخ الجنتوري ، حيث خرجتُ بالحقائق والنتائج التالية :

– الأهمية البالغة للإقليم التواتي خلال تلك الفترة ، نظراً للموقع الاستراتيجي الهام ، والحركية التجارية الكبيرة التي طبعت معظم محطاته .

– تعدّدتْ القراءات المتعلقة بإشكالية تسمية توات من لدن الدارسين والباحثين ، وتباينتْ التفسيرات والآراء المؤصّلة لها ، ممّا يدل على تلك المكانة الهامة التي أصبحت تتبوأها .

– ثراء القرن 12 هـ بسبب التمايز الواضح في الأوضاع السائدة ، في المجالات السياسية والأمنية والاقتصادية ، وقدرة التواتيين الفائقة على وضع نظام هيكلي إداري خاص بهم ، أصبح بديلاً عن مراكز الاستقطاب الإقليمية المجاورة .

– أهمية الدور الذي أُنيط بالعلماء والفقهاء ، على غرار الشيخ الجنتوري الذي مثّل مرجعية دينية اجتماعية وثقافية ، ونموذجاً للشخصيات المحورية ذات العطاءات الفكرية المجدّدة .

– شيوع وتنوّع المصنفات الفقهية النوازلية ، وغنى مضامينها ، على غرار نوازل الجنتوري ، ونوازل الزجلاوي ، ونوازل الغنية للبلبالي .

– تباين مكوّنات المجتمع التواتي ، وتمايز فئاته وشرائحه ، وانصهارها جميعاً في بوتقة علاقات اجتماعية مبنية على أسس وثوابت قارّة ، تمثّل الأعراف والعادات ركيزتها الأساسية .

– تمتّع المرأة التواتية بقسط كبير من الحريات والحقوق ، وتمكّنها من تخطي حدود الحواجز النمطية التقليدية ، ومساهماتها الفعّالة في المحيطين الأسري والاجتماعي .

– تبلور نظام قضائي خاص بإقليم توات ، دعامته قضاة مشهود لهم بالعلم والدراية ، وقوامه فقهاء مقوّمون للأحكام القضائية الصادرة ، مع السبق الجلي للشيخ الجنتوري في هذا الإطار .

– انتشار الزوايا والمراكز العلمية في أنحاء الإقليم ، وتسابق الطلبة في مجالات العلم والمعرفة ، وتنافسهم في الفنون المعتمدة للتدريس ، وانتصاب مجموعة كبيرة من العلماء والفقهاء ، الذين تمكنوا من ربط علاقات ثقافية مميزة مع حواضر المغرب الأقصى ، ومع بلاد السودان .

– شيوع ظاهرة المحاورات والمناظرات العلمية ، وتسلّح الأعلام بالأدلة والمنطق وإعمال الفكر والرحلات نحو مختلف الأمصار والأقطار .

ذلكم جانب جزئي تمكّنتُ من إلقاء الضوء عليه بفضل مخطوط نوازل الشيخ الجنتوري . والأكيد أنّ هناك جوانب أخرى لا زالت خافية ، يمكن العبور إليها عبر جسر المخطوطات المحلية المتداعي من يوم لآخر ، إنْ لم يتداركه المركز الوطني للمخطوطات بالترميم ، أو يهبّ الباحثون وذوو الاختصاص إلى ما تبقى من دُرره ومكنوناته ، فيخرجوها من رمسها ويطلقوها من حبسها .

الـمـلاحـــق

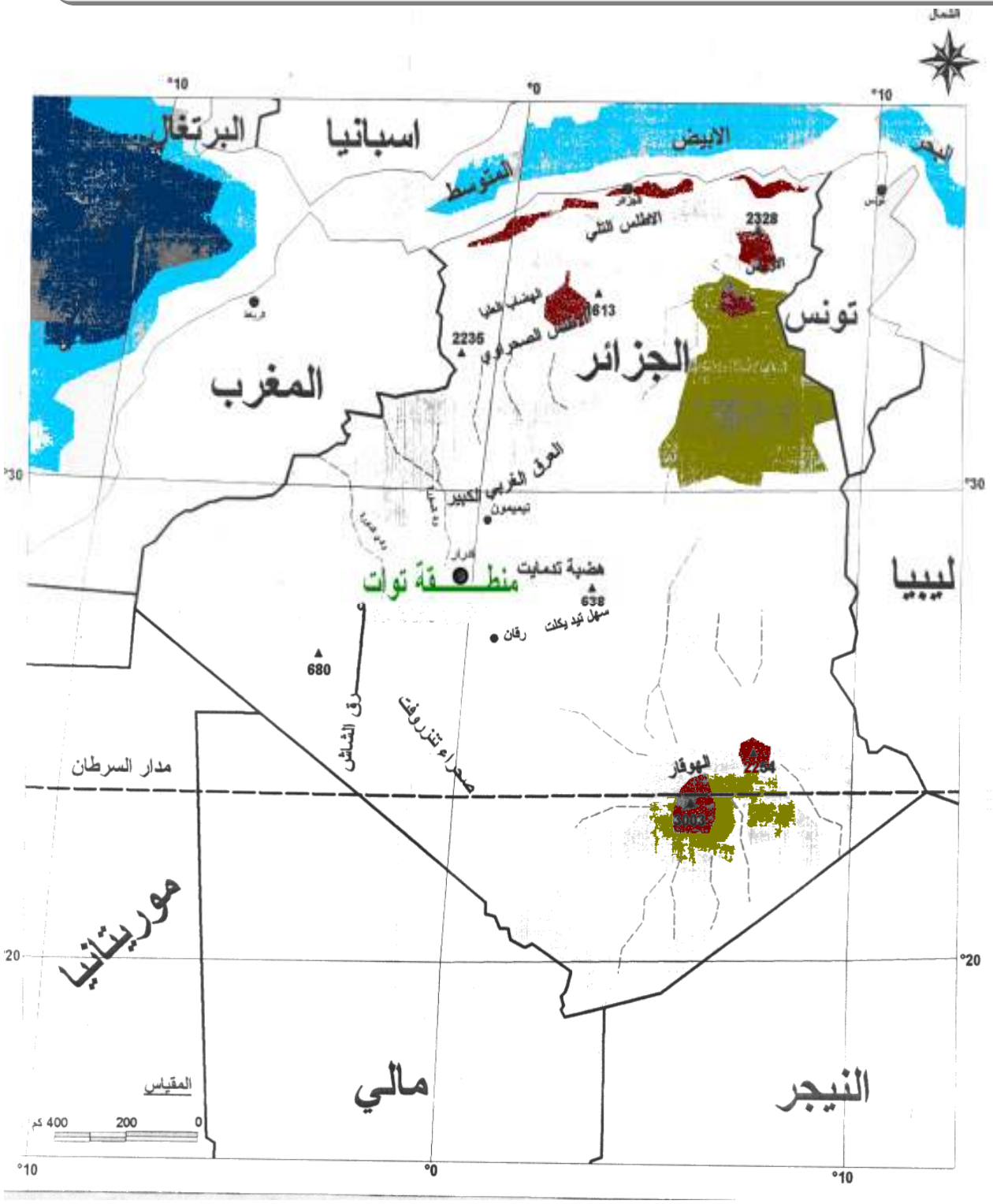

الملحق رقم 01 : موقع إقليم توات وحدوده

المصدر : بن سويسي محمد ، العمارة الدينية الإسلامية في منطقة توات (تمنطيط نموذجاً) من القرن 6 هـ إلى 13 هـ ، ص 202 .

ش

الملحق رقم 2

خريطة توضح موقع بلاد توات وتخومها الصحراوية الغربية الحالية

الملحق رقم 02 : خريطة الخصائص الجغرافية لإقليم توات

المصدر : فرج محمود فرج ، إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين ص 03

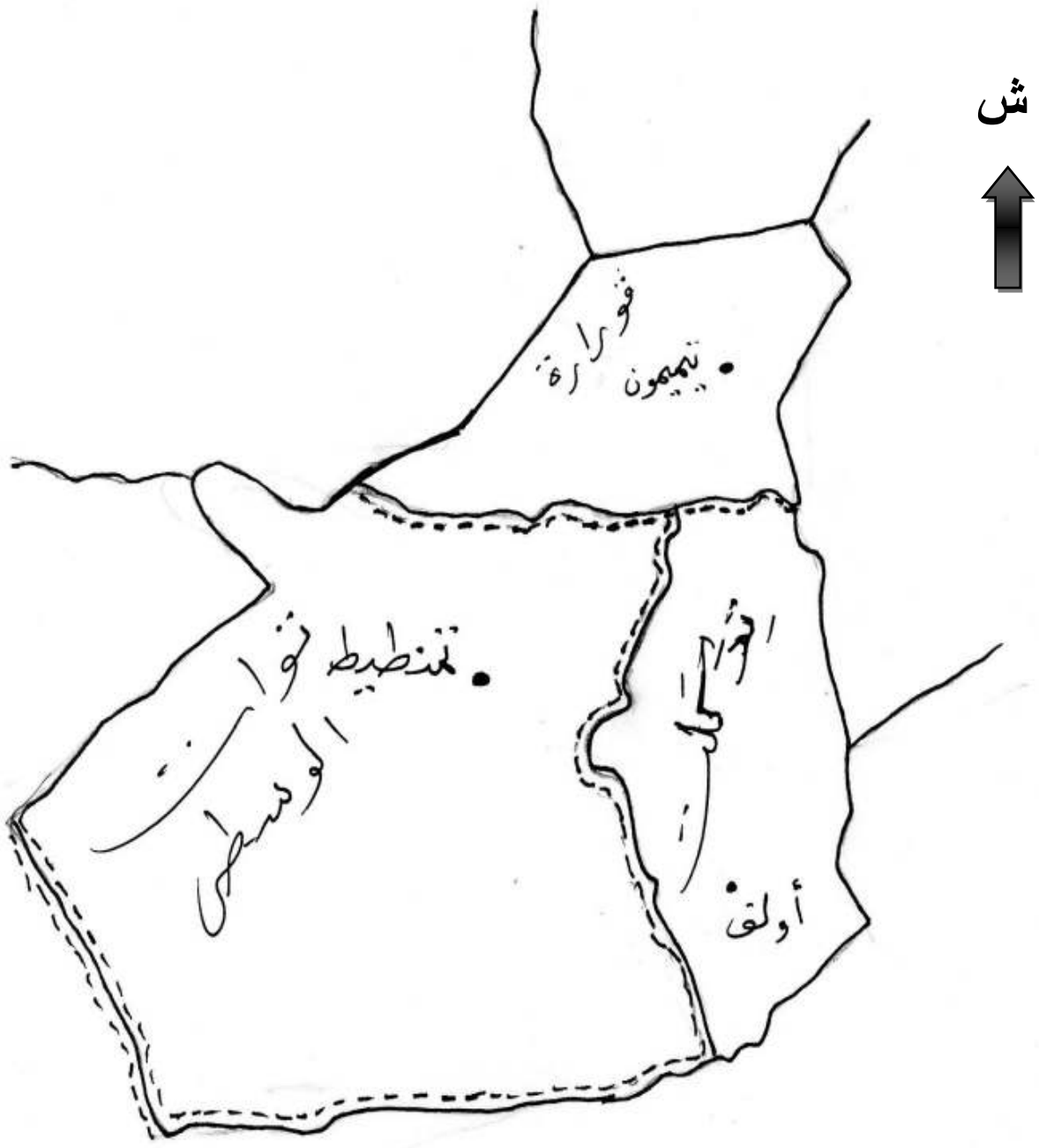

حدود داخلية

حدود دولية

• مقر عاصمة الإقليم

الملحق رقم 03 : مناطق توات الثلاث وعواصمها

من إعداد الطالب

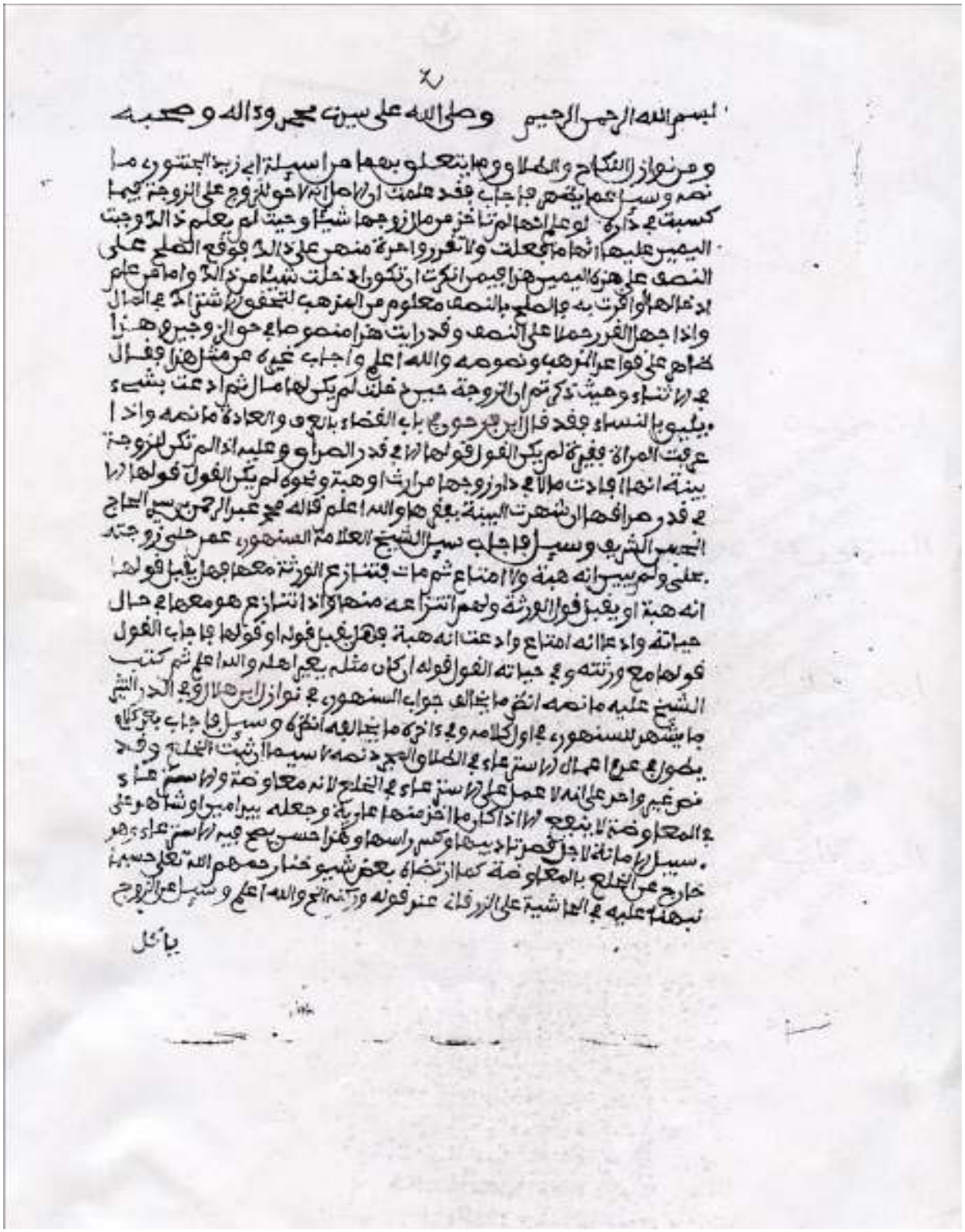

الملحق رقم 04 : الورقة الأولى من نوازل الجنتوري

المصدر : خزانة با عبد الله

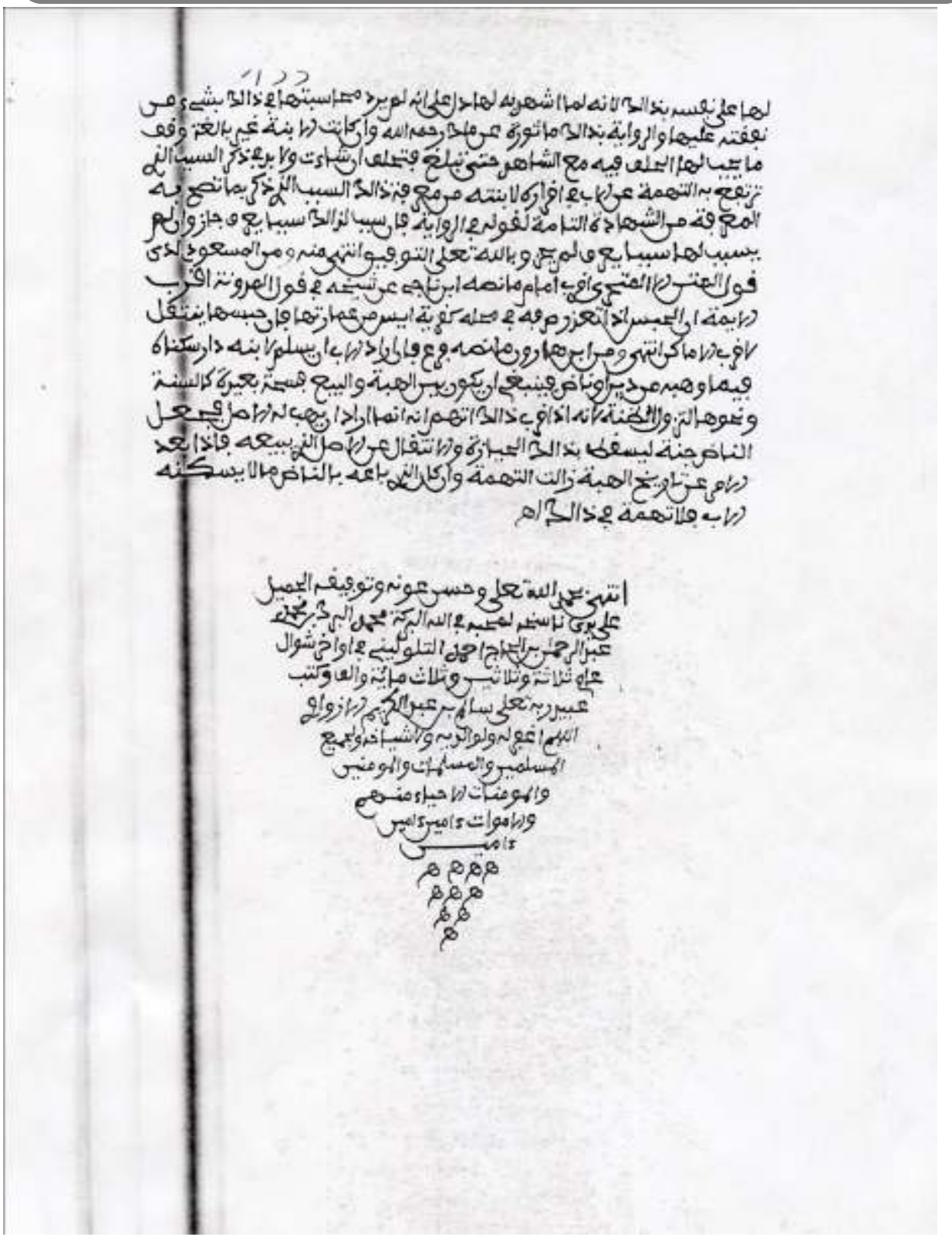

الملحق رقم 05 : الورقة الأخيرة من نوازل الجنتوري

المصدر : خزانة با عبد الله

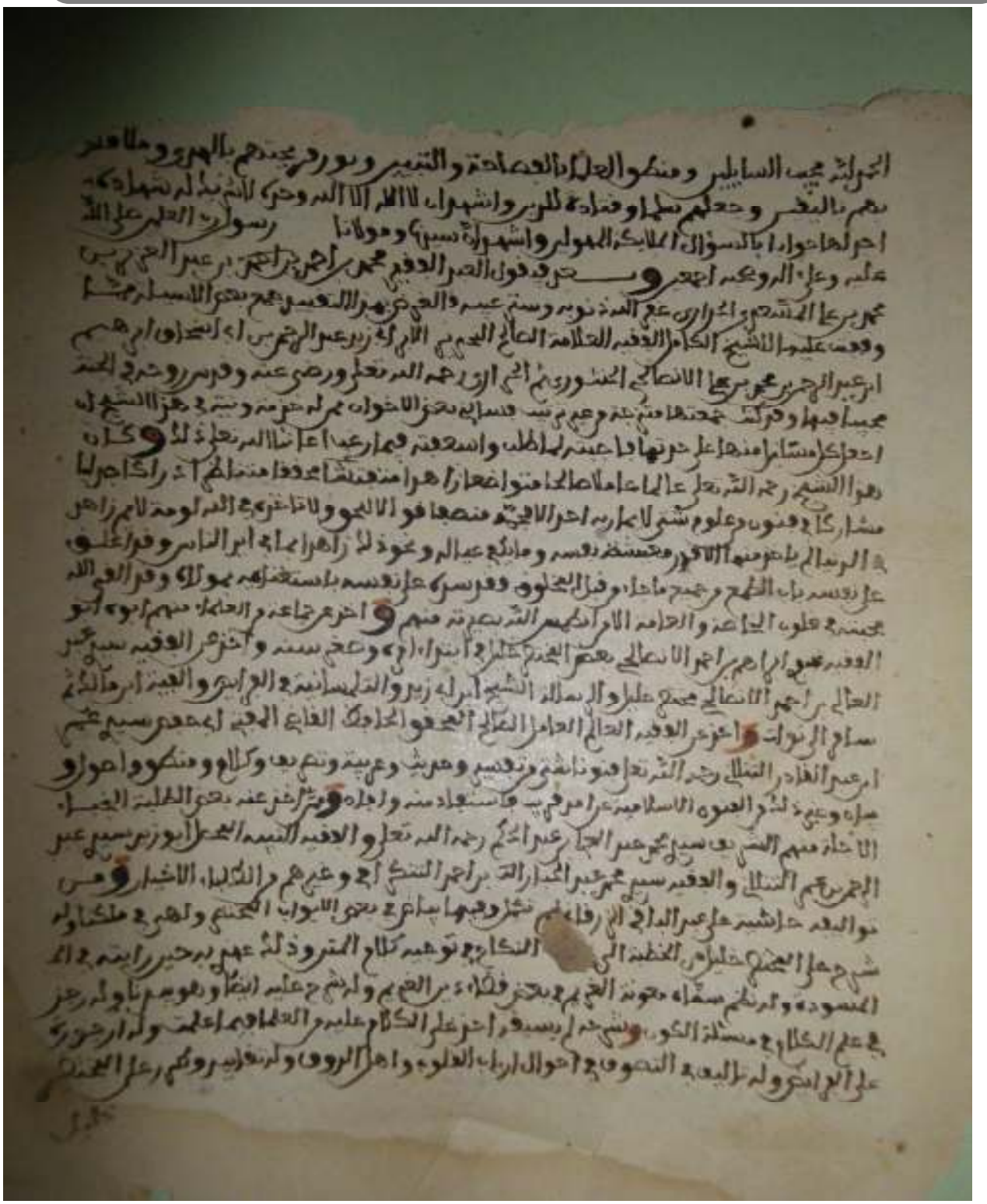

الملحق رقم 06 : الورقة الأولى من نوازل الجنتوري (النسخة ب)

المصدر : خزانة المطارفة

الملحق رقم 07 : الورقة الوسطى من نوازل الجنتوري (النسخة ب)

المصدر : خزانة المطارفة

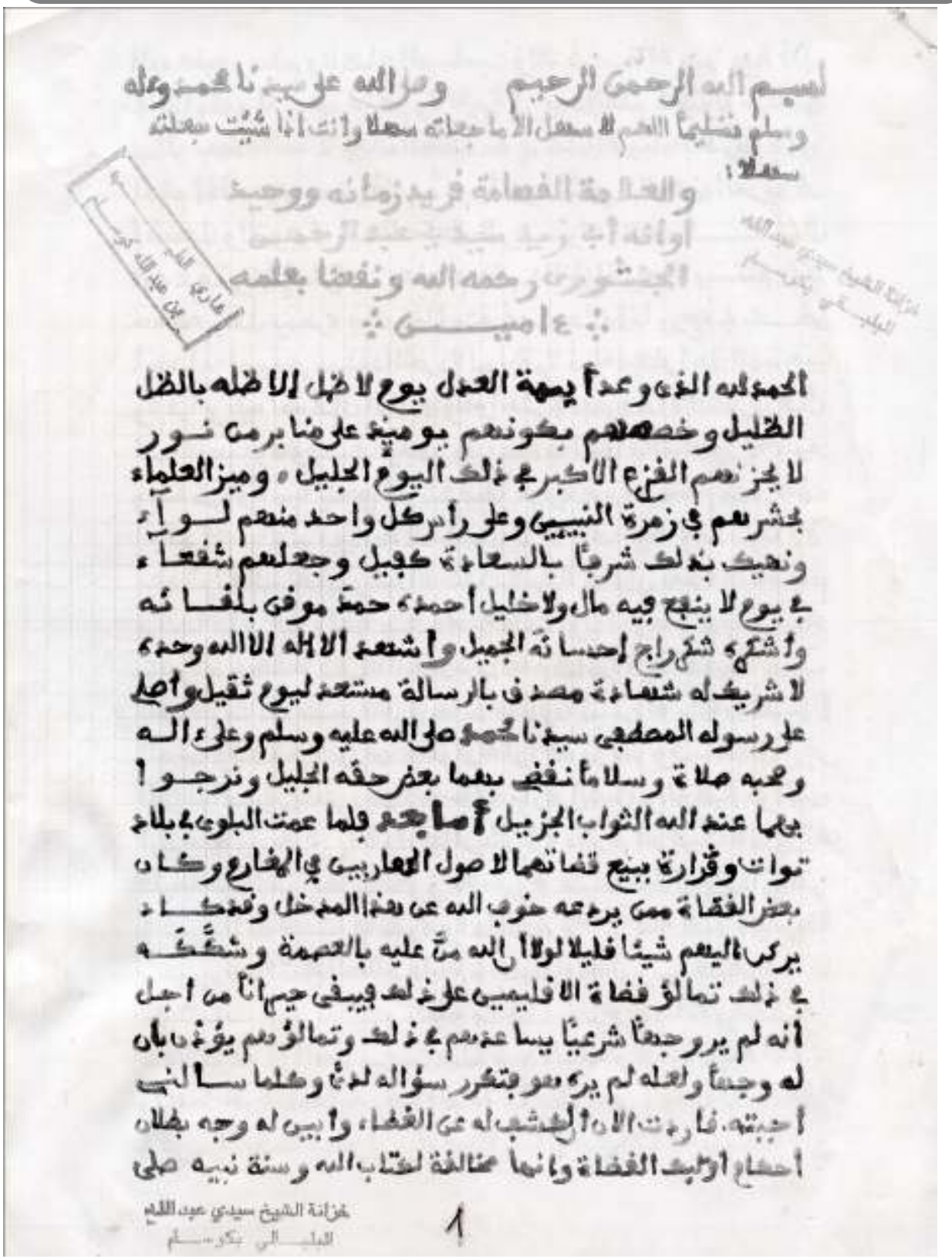

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما اللهم لا سهل الا ما جعلته سهلا وانت اذا شئت سهلته سهلا:

والعلامة الفهامة فريد زمانه ووحيد اوانه أبو زيد سيدي عبد الرحمن الجنتوري رحمه الله ونفعنا بعلمه ٭ آمين ٭

الحمد لله الذي وعد أهل العدل يوم لا ظل إلا ظله بالظل الظليل وخصهم بكونهم يومئذ على منابر من نور لا يحزنهم الفزع الأكبر في ذلك اليوم الجليل، وميز العلماء بحشرهم في زمرة النبيين وعلى رأس كل واحد منهم لواء ونهيك بذلك شرفا بالسعادة كفيل وجعلهم شفعاء في يوم لا ينفع فيه مال ولا خليل أحمده حمد موفق بلفائه وأشكره شكر راج إحسانه الجميل وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مصدق بالرسالة مستعد ليوم ثقيل وأصلي على رسوله المصطفى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه صلاة وسلاما نفوز بهما بعض حقه الجليل ونرجو بهما عند الله الثواب الجزيل أما بعد فلما عمت البلوى ببلاد توات وقرارة ببيع قضائهما لا صول الحاربين في الشارع وكان بعض القضاة ممن يرعه خوف الله عن هذا المدخل وتحكماء يركن اليهم شيئا قليلا لولا أن الله منّ عليه بالعصمة وشفّقه في ذلك تمالؤ قضاة الاقليمين على ذلك فيبقى حيرانا من أجل أنه لم ير وجها شرعيا يساعدهم في ذلك وتمالؤهم يؤذن بأن له وجها ولعله لم ير هو فتكرر سؤاله لنا وكلما سألني أجبته فأردت الآن أن أكتب له عن القضاء وأبين له وجه بطلان أحكام أولئك القضاة وأنها مخالفة لكتاب الله وسنة نبيه صلى

خزانة الشيخ سيدي عبد الله البلبالي بكوسام

1

الملحق رقم 08 : ورقة من رسالة الجنتوري لأحد القضاة

المصدر : خزانة كوسام ، أدرار

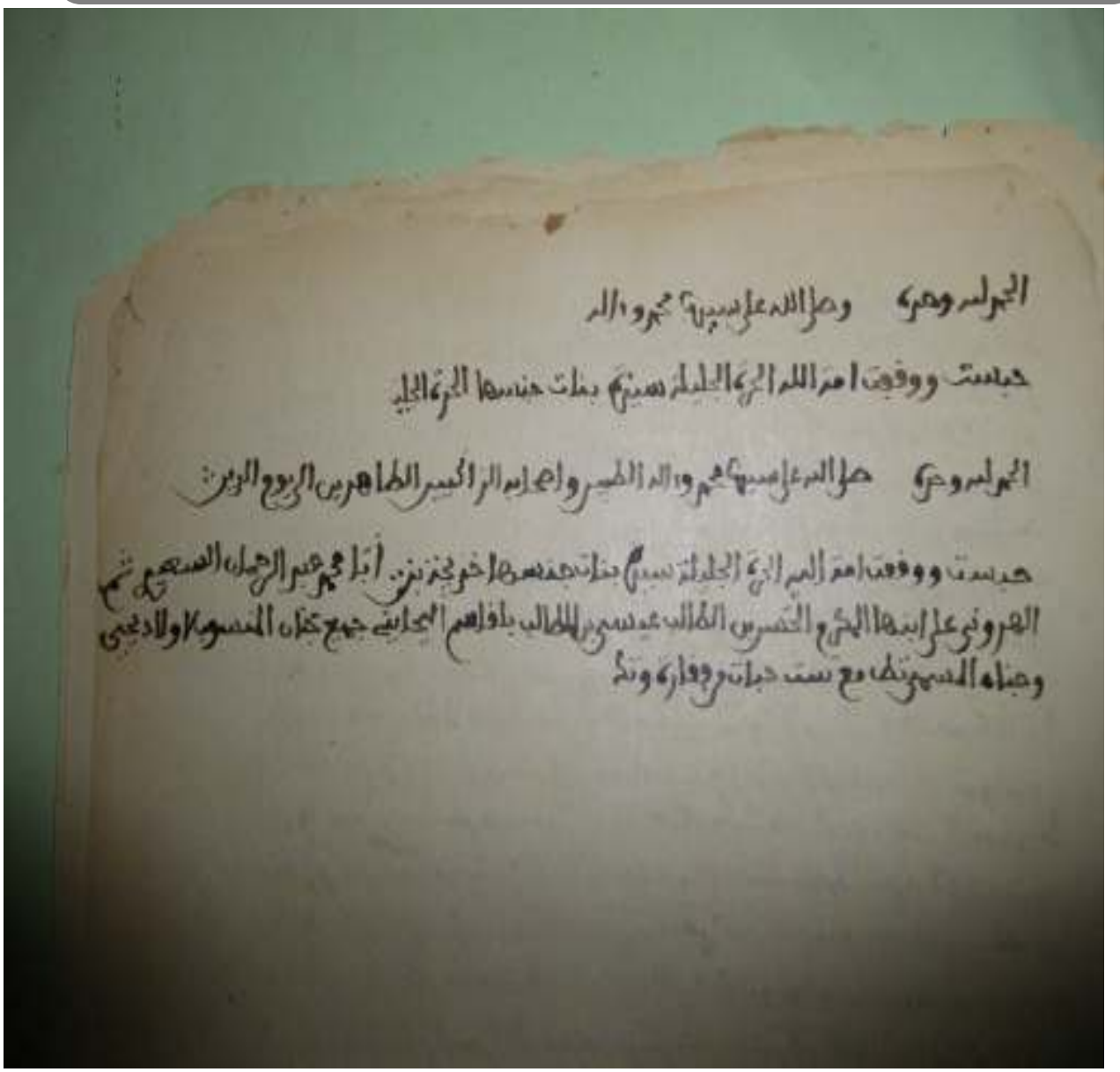

الملحق رقم 09 : وثيقة حبس من القرن 12 هـ

المصدر : خزانة المطارفة

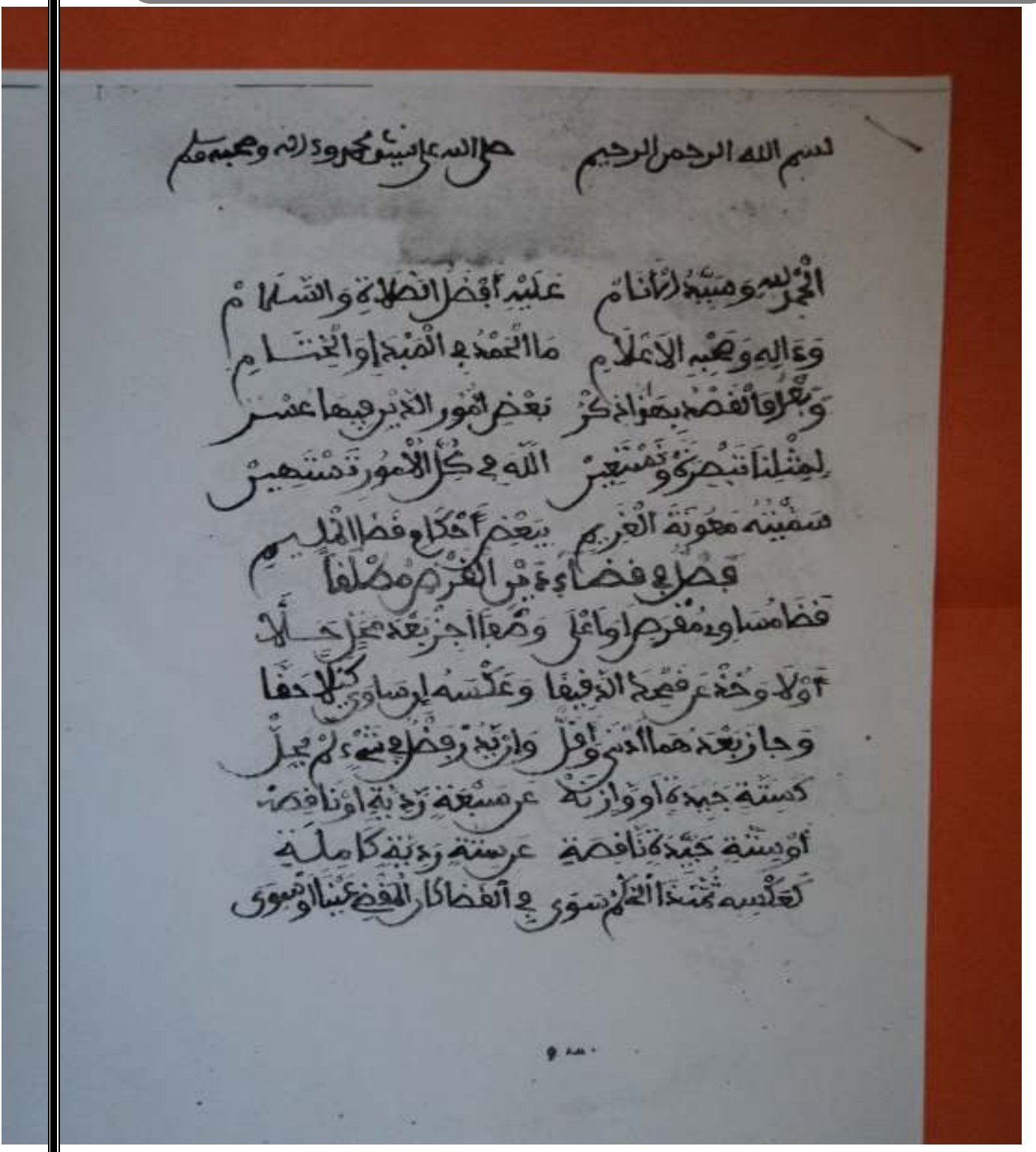

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله ومنبه الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام
وآله وصحبه الأعلام ما الحمد بالمبدإ والختام
وبعد فالقصد بهذا ذكر بعض أمور الدين فيها عسر
لمثلنا تبصرة وتذكير الله في كل الأمور تستعين
سميته معونة الغريم بعض أحكام قضاء الملئ
فصل في قضاء دين الغريم مكلفا
فقام مساو ومقرض أو عامل وصفا أجر بعد محل حالا
أولا وخذ عن فسخ الدفيفا وعكسه إن ساوى كلا حفا
وجاز بعدهما الذي وأقل وازيد زفضل في شيء لم يحل
كستة جيدة أو وازنه عن سبعة رديئة أو ناقصة
أو ستة جيدة ناقصة عن ستة رديئة كاملة
لعكسه ثمنا الخلاف سوى في القضا كان القضا عينا أو سوى

الملحق رقم 11 : الورقة الأولى من نظم معونة الغريم للجنتوري

المصدر : خزانة الشيخ باي ، أولف

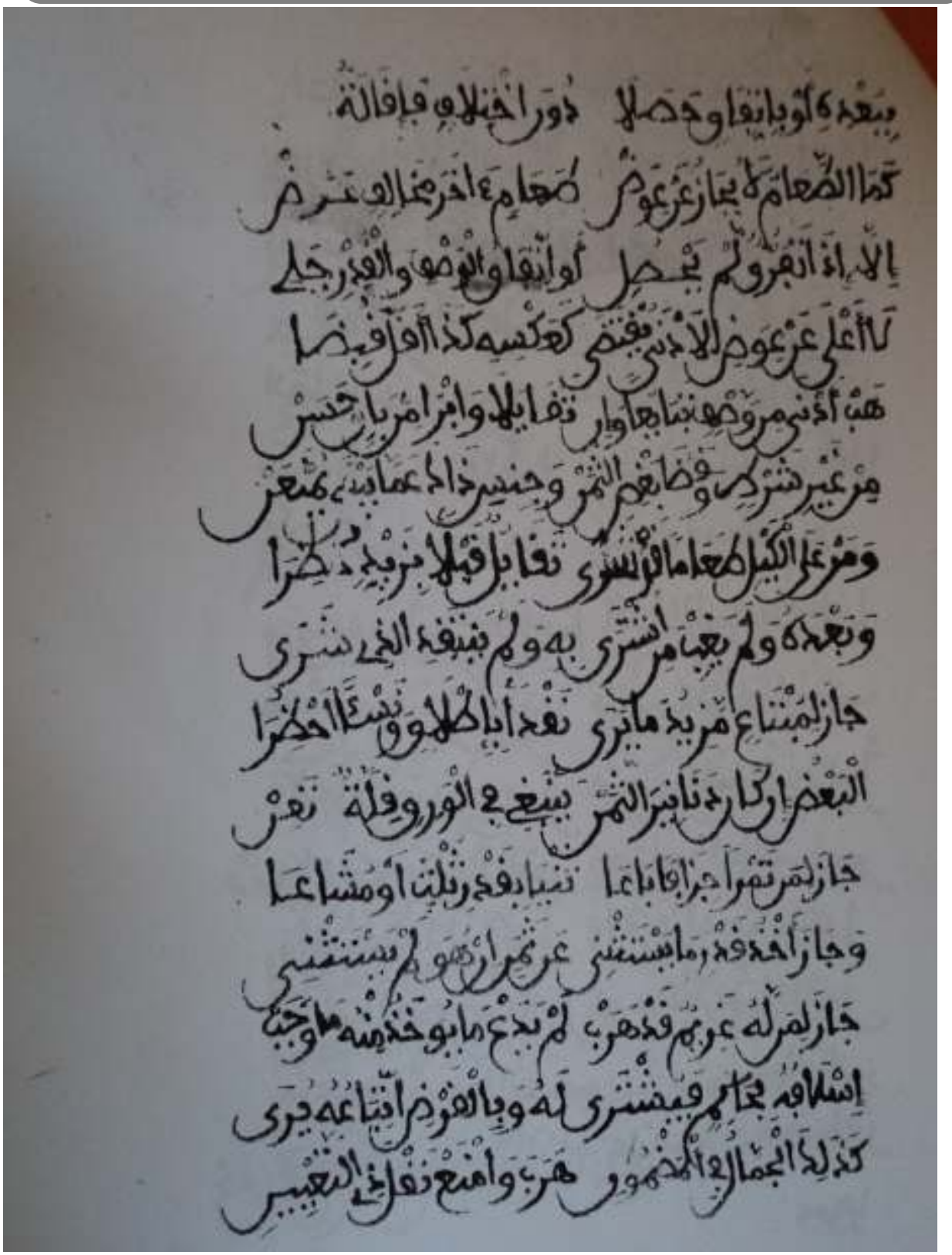

الملحق رقم 11 : الورقة الوسطى من نظم معونة الغريم للجنتوري

المصدر : خزانة الشيخ باي ، أولف

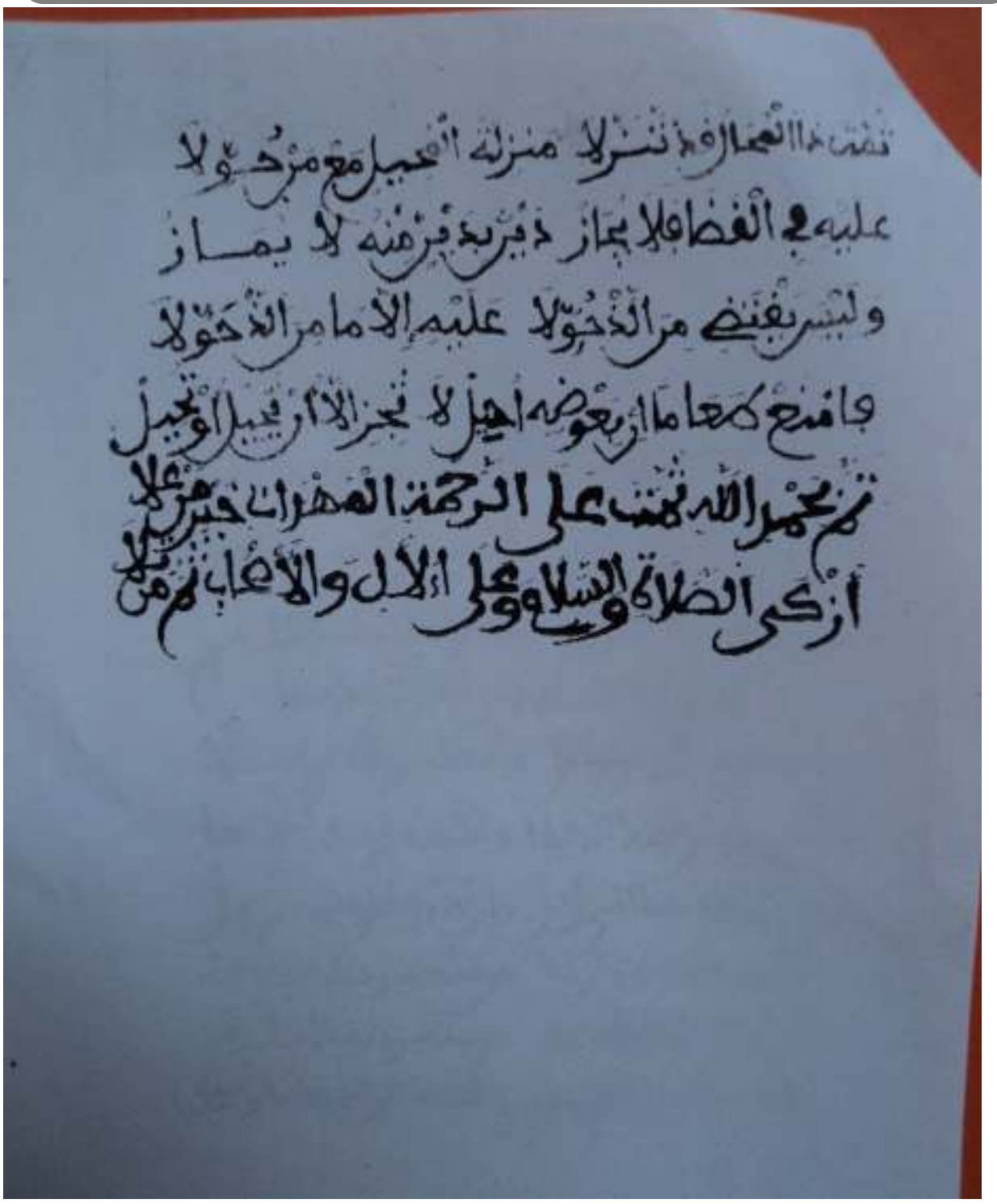

الملحق رقم 12 : الورقة الأخيرة من نظم معونة الغريم للجنتوري

المصدر : خزانة الشيخ باي ، أولف

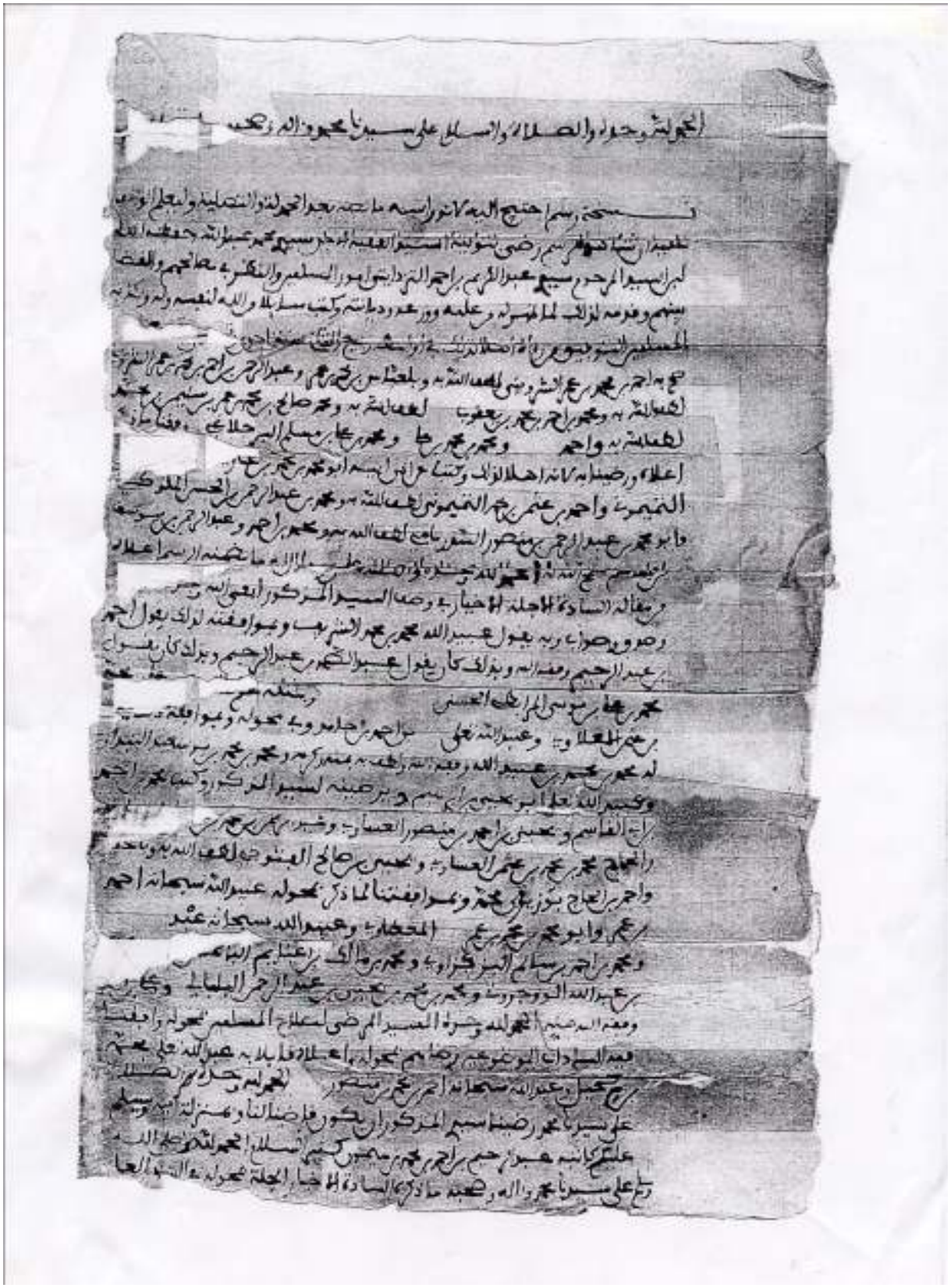

الملحق رقم 13 : وثيقة تزكية أحد القضاة

المصدر : خزانة آل الجوزي ، أولاد سعيد

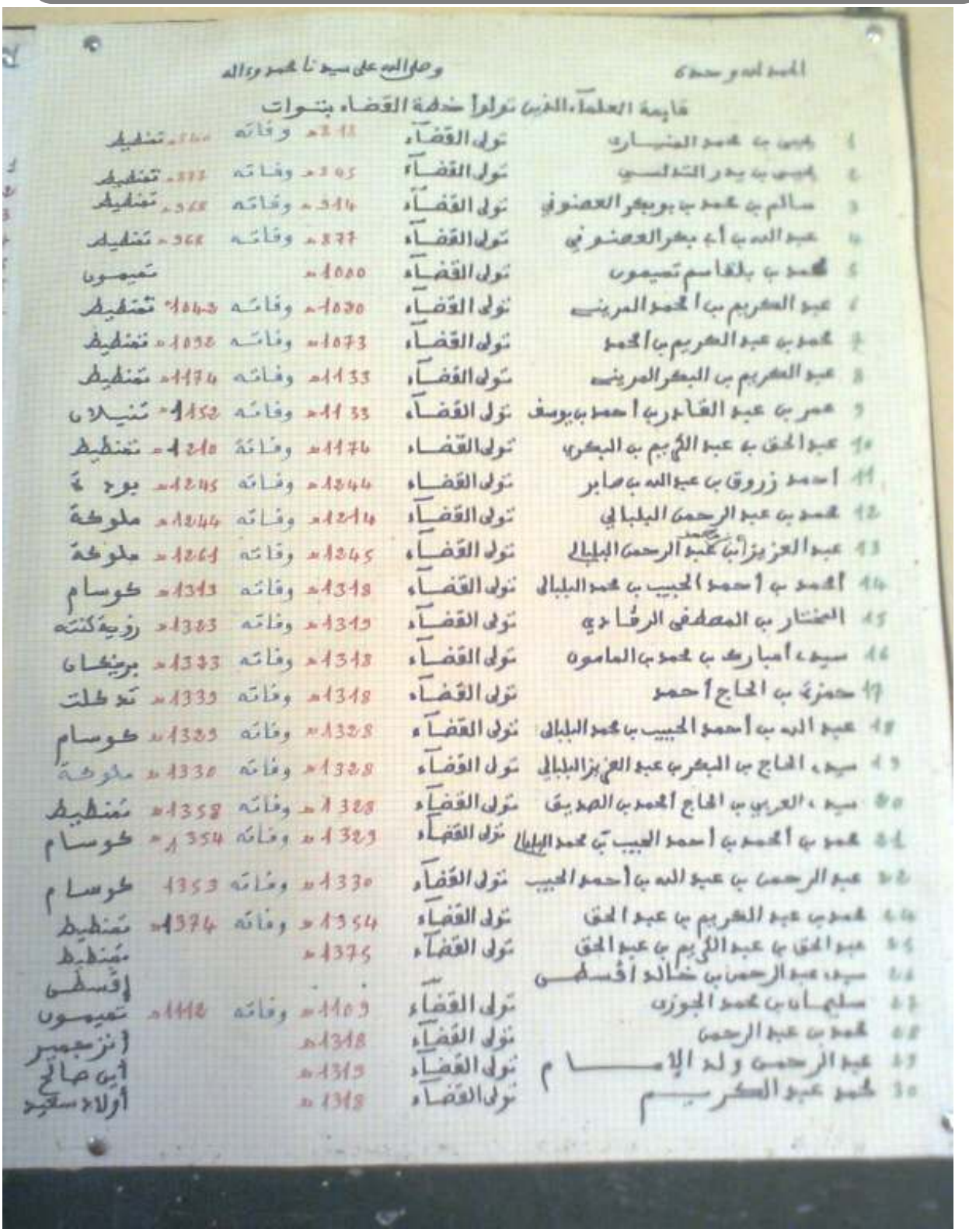

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله

قائمة العلماء الذين تولوا خطة القضاء بتوات

1	يحيى بن محمد المنياري	تولى القضاء	[illegible] هـ	وفاته [illegible] هـ تنظيط
2	يحيى بن يدر التدلسي	تولى القضاء	705 هـ	وفاته 773 هـ تنظيط
3	سالم بن محمد بن بوبكر العصنوني	تولى القضاء	744 هـ	وفاته 778 هـ تنظيط
4	عبد الله بن أبي بكر العصنوني	تولى القضاء	777 هـ	وفاته 788 هـ تنظيط
5	محمد بن بلقاسم تميمون	تولى القضاء	1050 هـ	تميمون
6	عبد الكريم بن أحمد المريني	تولى القضاء	1050 هـ	وفاته 1063 هـ تنظيط
7	محمد بن عبد الكريم بن أحمد	تولى القضاء	1073 هـ	وفاته 1092 هـ تنظيط
8	عبد الكريم بن البكر المريني	تولى القضاء	1133 هـ	وفاته 1174 هـ تنظيط
9	عمر بن عبد القادر بن أحمد بن يوسف	تولى القضاء	1133 هـ	وفاته 1152 هـ تنيلان
10	عبد الحق بن عبد الكريم بن البكري	تولى القضاء	1174 هـ	وفاته 1210 هـ تنظيط
11	أحمد زروق بن عبد الله بن صابر	تولى القضاء	1244 هـ	وفاته 1245 هـ بودة
12	محمد بن عبد الرحمن البلبالي	تولى القضاء	1244 هـ	وفاته 1244 هـ ملوكة
13	عبد العزيز بن محمد بن عبد الرحمن البلبالي	تولى القضاء	1245 هـ	وفاته 1261 هـ ملوكة
14	أحمد بن أحمد الحبيب بن محمد البلبالي	تولى القضاء	1318 هـ	وفاته 1343 هـ كوسام
15	المختار بن المصطفى الرقادي	تولى القضاء	1319 هـ	وفاته 1383 هـ زاوية كنته
16	سيد أمبارك بن محمد بن المامون	تولى القضاء	1318 هـ	وفاته 1333 هـ برينكان
17	حمزة بن الحاج أحمد	تولى القضاء	1318 هـ	وفاته 1333 هـ تدكلت
18	عبد الله بن أحمد الحبيب بن محمد البلبالي	تولى القضاء	1328 هـ	وفاته 1333 هـ كوسام
19	سيد الحاج بن البكر بن عبد العزيز البلبالي	تولى القضاء	1328 هـ	وفاته 1330 هـ ملوكة
20	سيد العربي بن الحاج أحمد بن الصديق	تولى القضاء	1328 هـ	وفاته 1358 هـ تنظيط
21	محمد بن أحمد بن أحمد الحبيب بن محمد البلبالي	تولى القضاء	1329 هـ	وفاته 1354 هـ كوسام
22	عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الحبيب	تولى القضاء	1330 هـ	وفاته 1353 كوسام
23	محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق	تولى القضاء	1354 هـ	وفاته 1374 هـ تنظيط
24	عبد الحق بن عبد الكريم بن عبد الحق	تولى القضاء	1375 هـ	تنظيط
25	سيد عبد الرحمن بن خالد أقسطي			أقسطي
26	سليمان بن محمد الجوزي	تولى القضاء	1409 هـ	وفاته 1418 هـ تميمون
27	محمد بن عبد الرحمن	تولى القضاء	1318 هـ	أنزجمير
28	عبد الرحمن ولد الإمام	تولى القضاء	1315 هـ	أبن صالح
29	محمد عبد الكريم	تولى القضاء	1318 هـ	أولاد سعيد

الملحق رقم 14 : أشهر القضاة في توات

المصدر : خزانة كوسام ، أدرار

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم برواية ورش عن نافع .**
- **البخاري محمد بن إسماعيل ، صحيح البخاري ، بيروت : دار الفكر ، 2003 م .**
- **الترمذي أبو عيسى محمد بن عيسى ، سنن الترمذي (الجامع الصحيح) ، تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر ، ط 02 ، القاهرة : مطبعة الحلبي ، 1986 م .**

ثبت المصادر والمراجع

المصادر المخطوطة

01 . ابن أبّ ضيف الله ، الرحلة إلى قبر الوالد ، مخطوط بالخزانة البكرية ، تمنطيط ، أدرار .

02 . ابن بابا حيدة ، محمد الطيب بن عبد الرحيم ، القول البسيط في أخبار تمنطيط ، مخطوط بخزانة الحاج محمد بكراوي ، زاوية سيدي البكري أدرار .

03 . البكري بن عبد الكريم بن البكري ، إعلام الإخوان بأخبار بعض السادة الأعيان ، مخطوط بالخزانة البكرية ، تمنطيط ، أدرار .

04 . البلبالي محمد بن عبد الرحمن ، غنية المقتصد السائل فيما وقع في توات من القضايا و المسائل جمع : عبد العزيز البلبالي ، مخطوط بخزانة سيدي عبد الله البلبالي ، كوسام ، أدرار .

05 . البوداوي محمد بن عمر الجعفري ، نقل الرواة عن من أبدع قصور توات ، مخطوط بخزانة بن حسان ، تنيلان أدرار .

06 . التمنطيطي محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق ، درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام ، مخطوط بخزانة سيدي عبد الله البلبالي ، كوسام ، أدرار .

07 . التمنطيطي محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق ، جوهرة المعاني فيما ثبت لدي من علماء الألف الثاني ، مخطوط بالخزانة البكرية ، تمنطيط ، أدرار .

08 . التمبكتي أحمد بابا ، معراج الصعود إلى نيل حكم مجلوب السود ، مخطوط المكتبة الوطنية بالرباط ، رقم 1029 د .

09 . التنلاني عبد الرحمن بن عمر ، رحلة حجية لعام 1188 هـ ، مخطوط بخزانة قصر باعبد الله ، تيمي ، أدرار .

10 . الجنتوري أبو زيد عبد الرحمن ، نوازل الجنتوري ، مخطوط بخزانة الوليد بن الوليد ، قصر باعبد الله ، تيمي ، أدرار .

11 . الجنتوري أبو زيد عبد الرحمن ، نوازل الجنتوري (النسخة ب) جمع وترتيب : المسعدي محمد بن عبد العزيز ، مخطوط بخزانة بن عبد الكبير ، المطارفة ، أدرار .

12 . الجنتوري أبو زيد عبد الرحمن ، رسالة حول بيع أصول الهاربين في المغارم ، مخطوط بخزانة سيدي عبد الله البلبالي ، كوسام ، أدرار .

13 . الجنتوري أبو زيد عبد الرحمن ، معونة الغريم في بعض أحكام قضاء الدَّيْن (وشرحها) ، مخطوط بخزانة الشيخ باي بلعالم ، أولف ، أدرار .

14 . الزجلاوي محمد بن محمد العالم بن حميدان ، نوازل الزجلاوي ، مخطوط بخزانة سيدي عبد الله البلبالي ، كوسام ، أدرار .

15 . الفلاني أبو عبد الله بن أحمد ، الرحلة في طلب العلم ، مخطوط بخزانة مولاي سليمان بن علي أدغاغ ، أدرار .

16 . المهداوي عبد القادر بن عمر ، الدرة الفاخرة في ذكر المشايخ التواتية ، مخطوط بخزانة الوليد بن الوليد ، قصر با عبد الله ، تيمي ، أدرار .

17 . مؤلف تواتي مجهول ، تقييد في تاريخ توات (ذكر ما وجد من الأخبار التواتية) ، مخطوط بخزانة سيدي عبد الله البلبالي ، كوسام ، أدرار .

المصادر المطبوعة

18 . الإدريسي مولاي أحمد الطاهري ، نسيم النفحات من أخبار توات ومن بها من الصالحين والعلماء الثقات ، تحقيق : مولاي عبد الله الطاهري ، الجزائر : دون دار النشر ، 2010 م .

19 . الإدريسي الشريف ، من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، ليدن : مطبعة بريل ، 1863 م .

20 . الأغواطي الحاج ابن الدين ، رحلة الأغواطي ، ترجمة : أبو القاسم سعد الله في كتابه أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ، ط 02 ، بيروت : دار الغرب الإسلامي 1990 م .

21 . الأندلسي محمد المدرع النجار ، أرجوزة في مشاهير صلحاء فاس ، تحقيق : خالد بن أحمد الصقلي ، فاس : ظهر المهراز ، بدون .

22 . ابن بطوطة محمد بن عبد الله ، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، تحقيق : عبد الهادي التازي ، الرباط : أكاديمية المملكة المغربية ، 1997 م .

23 . ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ، تحقيق : خليل شحادة ، مراجعة سهيل زكّار ، بيروت : دار الفكر ، 2001 م .

24 . ابن خلدون أبو زكريا يحيى ، بغية الروّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، الجزائر : مطبعة بيير فونتانا الشرقية ، 1903 م .

25 . البرتلي أبو عبد الله الطالب محمد ، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور ، ط 1 ، تحقيق : ابراهيم الكتاني ، محمد حجي ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، 1981 م .

26 . التلمساني ابن أبي مريم ، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ، مراجعة : محمد ابن أبي شنب ، الجزائر : المطبعة الثعالبية ، 1908 م .

27 . التليدي عبد الله بن عبد القادر ، المطرب بمشاهير أولياء المغرب ، ط 4 ، الرباط : دار الأمان ، 2003 م .

28 . الجزنائي علي ، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، تحقيق : عبد الوهاب ابن منصور ، ط 2 ، الرباط : المطبعة الملكية ، 1991 م .

29 . الحموي ياقوت ، معجم البلدان ، بيروت : دار صادر ، 1977 م .

30 . الحفناوي أبو القاسم محمد ، تعريف الخلف برجال السلف ، الجزائر : مطبعة بيير فونتانة الشرقية ، 1906 م .

31 . حجي محمد ، موسوعة أعلام المغرب ، ط 1 ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، 1996 م .

32 . الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد ، سير أعلام النبلاء ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط ، ط 11 بيروت : مؤسسة الرسالة ، 1996 م .

33 . السملالي العباس بن إبراهيم ، الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام ، مراجعة عبد الوهاب ابن منصور ، ط 2 ، الرباط : المطبعة الملكية ، 1993 م .

34 . السعدي عبد الرحمن بن عبد الله ، تاريخ السودان ، باريس : مطبعة هوداس ، 1981 م .

35 . الشفشاوني محمد بن عسكر ، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر تحقيق : محمد حجي ، ط 2 ، الرباط : مطبوعات دار المغرب ، 1977 م .

36 . الشنقيطي أحمد الأمين ، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ، ط 01 ، القاهرة : مطبعة الكتبي وشركاه ، 1920 م .

37 . العياشي أبو سالم ، الرحلة العياشية (ماء الموائد) ، تحقيق : سعيد الفاضلي و سليمان القرشي ، الإمارات : دار السويدي للنشر والتوزيع ، 2006 م .

38 . الفاسي ابن أبي زرع ، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، الرباط : دار المنصور للطباعة والوراقة ، 1972 م .

39 . الفكون عبد الكريم ، منشور الهداية في كشف حال من ادّعى العلم والولاية ، تحقيق : أبو القاسم سعد الله ، ط 01 ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، 1987 م .

40 . الفشتالي أبو فارس عبد العزيز ، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا ، دراسة وتحقيق : عبد الكريم كريم ، الرباط : مطبوعات وزارة الأوقاف ، بدون .

41 . القرطبي يوسف بن عبد البر ، الكافي في فقه أهل المدينة المالكي ، ط 2 ، بيروت : دار الكتب العلمية ، 1992 م .

42 . القيرواني محمد بن أبي القاسم (ابن أبي دينار) ، المؤنس في أخبار إفريقيّة وتونس ، ط 1 ، تونس : المطبعة التونسية ، 1869 م .

43 . الكتاني أبو عبد الله محمد بن جعفر ، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس ، تحقيق : محمد حمزة بن علي الكتاني ، ط 4 ، الموسوعة الكتانية لتاريخ فاس ،

2005 م .

44 . الكرخي أبو اسحاق ابراهيم بن محمد ، مسالك الممالك ، ليدن : مطبعة بريل ، 1927 م .

45 . المراكشي ابن عِذاري ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، ط3 ، تحقيق : إحسان عباس ، بيروت : دار الثقافة ، 1983 م .

46 . المقرّي أحمد بن محمد ، روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس ، ط 2 ، الرباط : المطبعة الملكية ، 1983 م .

47 . المسعودي أبو عبد الله محمد الباجي ، الخلاصة النقية في أمراء أفريقية ، ط 2 ، تونس : مطبعة بيكار ، 1905 م .

48 . مجهول ، الاستبصار في عجائب الأمصار ، نشر وتعليق : سعد زغلول عبد الحميد ، بغداد : دار الشؤون الثقافية العامة ، بدون .

49 . مخلوف محمد بن محمد ، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، القاهرة : المطبعة السلفية ، 1930 م .

50 . الناصري أبو العباس أحمد بن خالد ، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري ، الدار البيضاء : دار الكتاب ، 1954 م .

51 . الوزان الحسن بن محمد ، وصف إفريقيا ، ط 2 ، ترجمة : محمد حجي و محمد الأخضر ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، 1983 م .

52 . الونشريسي أحمد بن يحي ، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل أفريقية والأندلس والمغرب ، ط 01 ، تقديم : محمد حجي ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، 1981 م .

53 . اليحصبي أبو الفضل عياض بن موسى ، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، ط 1 ، بيروت : دار الكتب العلمية ، 1998 م .

54 . اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب ، البلدان ، ليدن : مطبعة بريل ، 1890 م .

55 . اليُفراني محمد الصغير ، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي ، تحقيق : هوداس ، انجي : مطبعة بردين ، 1888 م .

56 . اليُفراني محمد الصغير ، صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر ، ط 01 ، الدار البيضاء : مركز التراث الثقافي المغربي ، 2004 م .

المراجع باللغة العربية

57 . أبّا الصافي جعفري أحمد ، محمد بن أبّ المزمّري حياته وآثاره ، ط 01 ، الجزائر : دار الكتاب العربي ، 2004 م .

58 . أبّا الصافي جعفري أحمد ، الشيخ سيدي محمد الإداوعلي حياته وشعره ، وهران : دار الغرب للنشر والتوزيع ، 2008 م .

59 . أبو مصطفى كمال ، جوانب من حضارة المغرب الإسلامي من خلال نوازل الونشريسي ، الإسكندرية : مؤسسة شباب الجامعة ، 1997 م .

60 . التِر عزيز سامح ، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية ، ترجمة : محمود علي عامر ، ط 01 بيروت : دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، 1989 م .

61 . برنشفيك روبار ، تاريخ إفريقيّة في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15 م ، ترجمة : حمادي الساحلي ، ط 1 ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، 1988 م .

62 . بكري عبد الحميد ، النبذة في تاريخ توات وأعلامها ، الجزائر : مطبعة الطباعة العصرية ، 2010 م .

63 . بلعالم محمد باي ، الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام و الآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات ، الجزائر : دار هومة ، 2005 م .

64 . بلعالم محمد باي ، الغصن الداني في ترجمة وحياة عبد الرحمان بن عمر التنلاني ، الجزائر : دار هومة ، 2004 م .

65 . بلّيل رشيد ، قصور قورارا وأولياؤها الصالحون في المأثور الشفهي والمناقب والأخبار المحلية ، ترجمة : عبد الحميد بورايو ، الجزائر: منشورات المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الإنسان والتاريخ ، 2008 م .

66 . جمال أحمد طه ، مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين ، الإسكندرية : دار الوفاء ،

2001 م .

67 . الجيدي عمر ، مباحث في المذهب المالكي بالمغرب ، ط 1 ، الرباط : مطبعة المعارف الجديدة ، 1993 م .

68 . حاج أحمد الصديق ، التاريخ الثقافي لإقليم توات بين القرنين 11 هـ و14 هـ ، ط 1 ، أدرار طبع مديرية الثقافة ، 2003 م .

69 . حجي محمد ، الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي ، الرباط : المطبعة الوطنية ، 1964 م .

70 . حركات إبراهيم ، المغرب عبر التاريخ (من بداية المرينيين إلى نهاية السعديين) ، ط 02 ، الدار البيضاء : دار الرشاد الحديثة ، 1978 م .

71 . حمدي أيمن ، قاموس المصطلحات الصوفية ، القاهرة : دار قباء للطباعة والنشر ، 2000 م

72 . حوتية محمد الصالح ، توات والأزواد خلال القرنين 12 هـ و13 هـ دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية ، الجزائر : دار الكتاب العربي ، 2007 م .

73 . الخضري محمد ، الدولة العباسية ، ط 3 ، بيروت : دار المعرفة ، 1997 م .

74 . رزوق محمد ، دراسات في تاريخ المغرب ، ط 01 ، الدار البيضاء : أفريقيا الشرق ، 1991

75 . رضا محمد رشيد ، حقوق النساء في الإسلام ، بيروت : المكتب الإسلامي ، 1984 م .

76 . الزِركلي خير الدين ، الأعلام ، ط 15 ، بيروت : دار العلم للملايين ، 2002 م .

77 . سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ط 01 ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، 1998 م .

78 . سيد عمر محمد عبد العزيز ، قطف الزهرات من أخبار علماء توات ، ط 2 ، الجزائر : دار هومة ، 2002 م .

79 . شاكر محمود ، التاريخ الإسلامي (العهد العثماني) ، ط 04 ، بيروت : المكتب الإسلامي 2000 م .

80 . الصمدي مصطفى ، فقه النوازل عند المالكية ، ط 01 ، الرباط : مكتبة الرشد ، 2007 م

81 . الصلابي علي محمد ، الحركة السنوسية في ليبيا ، ط 1 ، عمان : دار البيارق ، 1999 م .

82 . الصلابي علي محمد ، الدولة العثمانية عوامل النهضة وأسباب السقوط ، ط 1 ، القاهرة : دار التوزيع والنشر الإسلامية ، 2001 م .

83 . الصلابي علي محمد ، دولة الموحدين ، عمان : دار البيارق للنشر ، 1998 م .

84 . العماري أحمد ، توات في مشروع التوسع الفرنسي بالمغرب 1850-1902 ، فاس : منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، بدون .

85 . غالب محمد أديب ، من أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي ، ط 01 ، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، 1975 م .

86 . فارس محمد خير ، تاريخ المغرب العربي الحديث ، دمشق : الجمعية التعاونية للطباعة ، بدون

87 . كحّالة عمر رضا ، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ط 8 ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، 1997 م .

88 . كنّون عبد الله ، النبوغ المغربي في الأدب العربي ، ط 02 ، المغرب ، 1960 م .

89 . المدني أحمد توفيق ، محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766–1791 م ، الجزائر : المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1986 م .

90 . الميلي مبارك بن محمد ، تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، 1989 م .

91 . مؤنس حسين ، فتح العرب للمغرب ، القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية ، بدون .

92 . مؤنس حسين ، ابن بطوطة ورحلاته تحقيق ودراسة وتحليل ، القاهرة : دار المعارف ، 2003

93 . واصل نصر محمد ، السلطة القضائية ونظام القضاء في الإسلام ، ط 2 ، القاهرة : المكتبة التوفيقية ، 1982 م .

المراجع باللغة الفرنسية

94 . A.G.P. MARTIN, Quatre siècles d'histoire marocaine ,

France : Librairie Félix Alcan , 1923 .

95 . Bernard Saffroy , chronique du Touat , Ghardaia : C-D-S

96 . DAUMAS , Le Sahara Algérien études géographiques , statistiques et historiques , PARIS : Langlois et Leclercq , 1845

97 . Mario vivarer , Au Sujet du Touat , Alger : librairie Michel Ruff , 1896 .

الرسائل والأطروحات الجامعية

98 . أبّالصافي جعفري أحمد ، الحركة الأدبية في منطقة توات خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين ، رسالة دكتوراه في الأدب ، إشراف : أ د . محمد زمري ، جامعة تلمسان ، 2006 / 2007 م .

99 . بن عبد المؤمن بهية ، الحياة الاجتماعية بإقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين ، مذكرة ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية ، إشراف : د . محمد بن معمر ، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية ، جامعة وهران ، 2005 / 2006 م .

100 . بن سويسي محمد ، العمارة الدينية الإسلامية في منطقة توات تمنطيط نموذجا من القرن 6 هـ إلى 13 هـ ، مذكرة ماجستير في الآثار الإسلامية ، إشراف أ د . عبد العزيز محمود لعرج ، معهد الآثار ، جامعة الجزائر ، 2008/2007 م .

101 . بعثمان عبد الرحمن ، فهرسة عبد الرحمن بن عمر التنلاني تحقيق ودراسة ، مذكرة لنيل الماجستير في التاريخ الحديث ، إشراف : أ د . محمد بن معمر ، كلية الآداب واللغات والعلوم الإنسانية ، جامعة بشار ، 2009/2008 م .

102 . الحمدي أحمد ، محمد بن عبد الكريم المغيلي رائد الحركة الفكرية بتوات عصره وآثاره (870 هـ . 909 هـ) ، رسالة ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية ، إشراف : أ د . عبد المجيد بن نعمية ، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية ، جامعة وهران ، 2000/1999 م .

103 . حوتية محمد الصالح ، قبيلة كنتة بين إقليمي توات والأزواد دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية خلال القرنين 12- 13 هـ ، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر ، إشراف : أ د .

ناصر الدين سعيدوني ، معهد التاريخ ، جامعة الجزائر ، 1993 م .

104 . طموز عبد الكريم ، فهرس شيوخ سيدي عمر بن عبد القادر التنلاني (ت 1152 هـ) تحقيق ودراسة ، مذكرة ماجستير في التاريخ الوسيط ، إشراف أ د . بوبة مجاني ، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية ، جامعة منتوري قسنطينة ، 2010/2009 م .

105 . فرج محمود فرج ، إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين ، أطروحة لنيل دكتوراه الدور الثالث في التاريخ ، إشراف : أد . أبو القاسم سعد الله ، الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية ، 1977 م .

106 . مسعودي الزهرة ، الطرق الصوفية بتوات وعلاقتها بغرب إفريقيا من ق 18م إلى ق 20 م مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر ، إشراف : أ د . عبد الكريم بوالصفصاف ، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية ، جامعة أدرار ، 2010/2009 م .

القواميس والأطالس

107 . ابن منظور المصري ، لسان العرب ، تحقيق : عبد الله علي الكبير وآخرون ، القاهرة : دار المعارف ، بدون .

108 . لعروق محمد الهادي ، أطلس الجزائر والعالم ، الجزائر : دار الهدى ، 1998 م .

الملتقيات والندوات

109 . أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء ، ط 01 ، مراجعة وتقديم : عبد الحميد عبد الله الهرّامة ، طرابلس : منشورات كلية الدعوة الإسلامية 1999 م .

110 . أعمال الملتقى الدولي الحادي عشر : التصوف في الإسلام والتحديات المعاصرة ، جامعة أدرار : 11/10/09 نوفمبر 2008 م .

111 . أعمال الملتقى الوطني الأول المشترك بين جامعتي أدرار وتيارت : العلاقات الحضارية بين إقليم توات وحواضر المغرب الإسلامي، أدرار : 14 – 15 أبريل 2009 م .

112 . أعمال الملتقى الوطني الرابع : إسهامات علماء توات في الحركة الفكرية والثقافية إبان

العصر الحديث جامعة أدرار : 19 – 20 أبريل 2010 م .

المقابلات الشخصية

113 . السيد عبد الحي محمادي ، مقابلة شفوية بتاريخ : 22-03-2011 م ، في منزله بشروين المقرّ ، تيميمون ، ولاية أدرار .

114 . السيد عبد الرحمن الشيخ إبراهيم ، مقابلة شفوية بتاريخ : 23-03-2011 م ، في منزله بقصر الشيخ ، أولاد سعيد ، تيميمون ، ولاية أدرار .

115 . السيد عبد الرحمن العمّاري ، مقابلة شفوية بتاريخ : 07-07-2011 م ، في زاويته بقصر إينغر ، ولاية تمنراست .

مواقع الشبكة العنكبوتية

116 . التبيان في شرب الدخان ، مكتبة شبكة منارة الشريعة ، www.manarahnet.net

الفهـــارس

فهرس الأعلام والقبائل

أ.

إبراهيم بن عبد الرحمن 53-121
ابن الأثير 17
أحمد بن عمور 40
أكدوع 43
أولاد باجودة 49
أولاد باحمد 04
أولاد لحسن 04
أولاد محمد 41
أولاد القاضي 04
آل صوفي 05
الإدريسي 17-20
الأصطخري 17-18
الأغواطي 10-12-30
الأنصار 09
الأنصاري أبو أيوب 09

ب.

ابن بطوطة 06-17-24-25-28
بتوليمي 17
البادرياني امبارك بن أحمد 31
البرامكة 08-09-81
سيدي البكري 108-123-127-132
البكري بن عبد الكريم بن البكري 57

بلعالم محمد باي 19
البلبالي أحمد الحبيب 74
البلبالي محمد بن عبد الرحمن 73-76-112
البلبالي عبد العزيز 73
بن كيران الطيب 52
بنو عبد الواد 34
البغدادي 17
البوداوي الجعفري 04-17-18
البوداوي أحمد زروق 32
البلاذري 17
البيروني 17

- ت -

التجاني أحمد بن محمد 49
التمنطيطي الطيب بن عبد الرحيم 07
التمنطيطي محمد بن عبد الكريم 18
التميمي 52
التنلاني أبو الأنوار
التنلاني عبد الرحمن بن إدريس 05
التنلاني عبد الرحمن بن عمر 46-53-55-64-70-73-121-133-135-136-137-138-139-140-141-142-143-146-147-148-151
التنلاني عمر بن عبد القادر 46-49-55-58-75-111-120-121-127-128-141
التنلاني عمر بن عبد الرحمن 121
التنلاني محمد بن عبد الرحمن 75-76-144
التواتي أحمد أبو القاسم 49
التواتي محمد عبد الله 49
التواتي محمد بن مزيان 150

التواتي أبو الحسن 126
التواتي عبد الرحيم بن محمد 128
التواتي الكوش 126
التواتي معاذ 126
التوات 22

- ج -

الجازوليون 04
الجبرتي 51
جعفر باشا 31
الجعفري عبد السلام بن محمد 126
الجنتوري عبد الرحمن 12-39-40-41-42-44-45-49-50-51-53-54-55-56-57-58-59-60-61-62-63-64-65-66-67-68-69-70-72-73-76-77-78-79-80-82-83-84-85-86-89-90-91-94-96-105-106-108-110-111-112-113-114-115-116-120-121-122-123-124-125-128-129-133-136-137-138-141-142-143-144-145-146-147-148-149-151-153
الجنيد أبو القاسم 48
الجوزي 113
الجيلاني عبد القادر 48
الجيلالي الصفار 40
جيرهارد رولف 30

- ح -

ابن حوقل 17
أبو الحسن (المريني) 33
حمدون الروندي 37
الحموي 17

الحفصيون 34

- خ -

ابن خلدون 03-07-13-15-17-22-24-26-27-29-80
خليل بن إسحاق 74
الخلط 22
الخنافسة 40-41-80

- د -

الدباغي محمد 04

- ذ -

ذوي منيع 41-43-81-

- ر -

ابن رشد 77
الرصاع 21
الرقاني مولاي عبد الله 09
الرقاني مولاي عبد المالك 130
الرقادي أحمد بن محمد 120
الرقادي عمر 130

- ز -

الزجلاوي محمد بن العالم 31-49-74-76-140
بن زكري 134
زناتة 04-09-20-22-23-79
الزواوي محمد بن راشد 150

- س -

ابن سعيد 17
أبو سفيان 42

أبو سعيد (المريني) 21-33
السنوسي محمد بن علي 49-50
السعدي 20-21
سعيد بن الحسن 36

- ش -

الشاذلي أبو الحسن علي 48-49
الشاذلي بن عمر 128
الشعانبة 05
شعيب أبو مدين 48
الشنقيطي محمد الإداوعلي 128
الشيخ بن أبي زكرياء (الوطاسي) 150

- ص -

صالح باي 31
صالح بن محمد الغماري 148
صنهاجة 09-18-20-22
الصوفي عبد الله 123

- ض -

ضيف الله بن أبّ 58-68-69-113-142

- ط -

الطاهري مولاي أحمد 19-22
الطوارق 10-20-22-29-43

- ع -

أبو عنان (المريني) 34
أبو علي (المريني) 21-33
عبد الحق بن عبد الكريم 110-111

عبد الكريم بن امحمد 118
عبد الكريم بن سيدي البكري 41-109
عبد المؤمن بن علي 19
عبد السلام بن مشيش 48
عبد العالي بن أحمد 54-121
العبدري 17
العثمانيون 31-32-33
العرب 09
العصنوني سالم 118
العصنوني عبد الله 118-134
علي بن عبد الله 31
العلويون 11-37-45
عمر بن محمد 37
العقباويون 11
عقبة بن نافع 17-18
علال بن محمد 36
العياشي أبو سالم 06-14-15-17-24-25-26-36

- غ -

الغنائمة 41-80
الغلاوي أحمد بن الحاج الأمين 29-55-124-129-145

- ف -

الفشتالي 27-35
الفكون 150
فلان 09
الفلاني 124

- ق -

القبلاوي محمد بن الحسين 55-124
القيرواني 77-139

ـ ك ـ

الكنتي المختار 48
كنتة 09-11
كنكن موسى 20

ـ ل ـ

لحسن الشريف 56-123
لمتونة 19-22
لمطة 22

ـ م ـ

مارتان 23
مالفانتي 28
مالك بن أنس 71-72-75-76
مالك بن المرحل 71
محمد الشيخ 34
محمد بن أبّ 58-59-66-67-68-70-121-124-142-143-144-151
محمد بن إسماعيل المسناوي 119
محمد بن امبارك 19
محمد بن تومرت 19
محمد بن صالح عريان الرأس 27
محمد بن عبد الوهاب 50
محمد بن علي الشريف 36
محمد بن عمر 124
محمد الصفار 40
محمد عبد العالي 65

محمد عبد الجبار 65
محمد عثمان باشا 31
محمد المحفوظ 75
محمد الهوزالي 35
المازوني 77
المحارزة 04-40-80
المراكشي 17-20
المرابطون 20-35
المنصور الذهبي 22-34-35-36-82
المعز بن باديس 71
المعقل 22-81
المغيلي محمد بن عبد الكريم 07-08-81-82-118-128-134-149
المقدسي 17
مسوفه 20
المسعودي 17
المسعدي 64-65-114-123
المنياري أبو يحي 117
المهداوي 137
مولاي إسماعيل 37-39-43-84
مولاي عبد المالك 39
مولاي العباس 37
مولاي سليمان 51
مولاي محمد بن عبد الله 39
الموحدون 18
ميمون بن عمرو البازي 118

أبو نعامة (القبلاوي) 11-29
الناصري 21-22
النفراوي سالم بن محمد 55
نابليون 32

- هـ -

الهلالي أحمد بن عبد العزيز 130
الهلاليون 11
هومير 17
هيرودوت 17

- و -

الوزان الحسن 03-06-17-24-26
الونشريسي 77
ابن الونان 127

- ي -

يحي بن يدير التدلسي 117
اليعقوبي 17-18
اليفراني 35

فهرس الأماكن والبلدان

- أ -

أجنتور 05-12-53-65-69-122-137

أروان 130

أقبلي 10-11-13-29-30-124-151

أنزجمير 09

أوقروت 06-36

أولف 10

أولاد سعيد 04

إينغر 11

- ب -

باجة 131

بجاية 62

بسكرة 18

بودة 06-07-15-22-25-26-30-124

- ت -

تافيلالت 27-28

تسابيت 03-04-06-22-26-27

بلاد التكرور 128-129-130

تلمسان 26-30-48-118-128-133-134

تمبكتو 128-129-130

تمنراست 02-10

تمنطيط 07-08-15-22-28-33-43-45-46-75-81-111-117-118-119-122-123-125
تنزروفت 02-09-15
توات 01-02-03-04-05-06-07-08-09-10-11-12-13-14-15-16-17-18-19-20-21-22-23-24-25-26-27-28-29-30-31-32-33-34-35-36-37-38-39-40-41-42-43-45-46-47-48-49-50-51-53-54-55-57-58-59-62-71-72-73-80-81-82-83-84-85-88-89-90-94-95-105-106-107-108-109-110-111-115-117-118-119-120-121-122-123-124-125-126-127-128-129-130-131-132-133-134-137-138-140-144-145-146-147-149-150-151
تونس 118-130-131-132
تيدكلت 03-09-10-11-12-15-80-129-142-145-151
تيكورارين 03-04-05-06-10-14-22-26-27-29-33-35-59-64-79-80-82-122
تيطاف 53
تيمي 07
تيميمون 05-07-29-30-35-70-123-124-143
تينركوك 04
تينلان 54-64-111-120-121-130-137-141

ـج ـ

الجزائر 31-32-37-109-
الجزيرة العربية 51

ـد ـ

درعة 17

ـر ـ

رقان 09-15-43

- ز -

بلاد الزاب 18
زاوية بادريان 123
زاوية أبي حفص 121
زاوية الرقادي 120
زاوية سيدي عبد القادر 43
زاوية كنتة 08-120-142
زويلة 18

- س -

الساحل الإفريقي 02
سالي 09-24
سجلماسة 17-18-21-25-26-28-33-37-132-133-137-143-144
بلاد السودان 02-03-07-11-12-18-20-25-26-27-28-34-81-82-84-85
بلاد السوس 19-20

- ش -

شروين 05
شنقيط 128-130

- ط -

طلمين 06

- ع -

عرق شاش 03
العرق الغربي الكبير 04
عين صالح 07-10-12-13-49-121-129

- ف -

فاس 26-54-118-125-126-127-128-134-141-143-147-148-149-150

فنوغيل 08

- ق -

القاهرة 55
قسنطينة 31
القورارة 03-05-14-38-113-142-145
القيروان 131-135

- م -

مالي 20-21-26-27-29-
مراكش 28-35
مستغانم 43
مصر 32-73-109
المطارفة 06
المغرب الأقصى 02-04-15-18-25-28-33-
المغرب الإسلامي 71-73
المغرب الأوسط 02
المنيعة 04-14

- ن -

نوميديا 26

- و -

واد امقيدن 14
واد زوزفانة 15
واد الساورة 02-04-15
واد قاريت 15
واد قير 15
واد مسعود 14-15-16

واد نون 17

- ي -

اليمن 34

فهرس المحتويات

المحتويات	الصفحة
الإهداءات	
التشكرات	
المقدمة	أ
الفصل الأول : البيئة الجغرافية والتاريخية لإقليم توات	02
المبحث الأول : الموقع والخصائص الطبيعية	02
1 / موقع إقليم توات	02
2 / الموقع الفلكي	03
3 / التقسيم الجغرافي للإقليم	03
4 / التضاريس والمناخ	13
5 / الأودية في توات	14
المبحث الثاني : روايات التسمية ونقدها	17
1 / الرواية الأولى	16
2 / الرواية الثانية	17
3 / الرواية الثالثة	19
4 / الرواية الرابعة	19

5 / الرواية الخامسة	20
6 / الرواية السادسة	21
7 / الرواية السابعة	22
المبحث الثالث : أهمية إقليم توات تاريخياً	23
1 / توات في المصادر التاريخية	23
2 / الأهمية التجارية للمقاطعات التواتية	26
3 / التطلّعات العثمانية نحو البلاد التواتية	29
4 / توات ومحاولات الاستقطاب المغربي	31
خاتمة الفصل الأول	37
الفصل الثاني : الجنتوري عصرُه ونوازلُه	39
المبحث الأول : عصر المؤلّف وخصوصياته	39
1 / الأوضاع العامة خلال القرن 12 هـ	39
2 / الهيئات والجماعات الحاكمة	45
3 / توات والصراعات المذهبية الحادة	47
أ – المد الصوفي نحو توات	47
ب – تأثير الحركة الوهابية وصداها في توات	50
المبحث الثاني : التعريف بالشيخ الجنتوري	52

1 / مولده ونسبه	52
2 / دراسته وشيوخه	53
3 / صفاته الخُلُقية ومؤهّلاته العلمية	55
4 / تصدّره للإفتاء ومكانته بين العلماء	56
5 / بعض آرائه الفقهية	58
6 / موقفُه من القُضاة	61
7 / آثار الشيخ الجنتوري	62
8 / وفاة الشيخ الجنتوري	68
المبحث الثالث : فقهُ النوازل في توات	69
1 / المذهب المالكي في إقليم توات	69
2 / أهم النوازل التواتية	71
3 / أهمية نوازل الجنتوري وقيمتها	75
خاتمة الفصل الثاني	77
الفصل الثالث : مظاهر الحياة الاجتماعية في القرن 12 هـ	79
المبحث الأول : المجتمع التواتي المكوّنات والعلاقات	79
1 / مكوّنات المجتمع وطبقاته	79
2 / العلاقات العائلية	86

3 / مظاهر التعاون والتضامن	87
4 / الأحباس وأهميتها في التكافل الاجتماعي	89
5 / العادات والتقاليد والأعراف	90
6 / بعض الآفات الاجتماعية	93
المبحث الثاني : المرأة ومكانتها في الأسرة والمجتمع	96
1 / حقوق المرأة التواتية	96
2 / مكانة المرأة في الأسرة	97
3 / المرأة وأهمّ المشاكل الأسرية	99
4 / دور المرأة في المجتمع	101
5 / بعض المفاسد الخُلُقية	102
المبحث الثالث : القضاء نظامه وقضاياه	103
1 / النظام القضائي في توات	104
2 / أشهر القضاة خلال القرن 12 هـ	107
3 / نماذج عن القضايا المعروضة	112
4 / مآخذ على القضاة	113
خاتمة الفصل الثالث	115
الفصل الرابع : التطور الفكري والثقافي خلال القرن 12 هـ	117
المبحث الأول : مواطن الفكر والتعليم ومدارسهما	117

1 / بوادر وخلفيات النهضة الثقافية الحادثة في توات	117
2 / الزوايا والمراكز العلمية خلال القرن 12 هـ	120
3 / علاقات توات الثقافية الخارجية	125
4 / العلوم والفنون المدرَّسة	134
المبحث الثاني : أشهر الأعلام من خلال النوازل	136
1 / عبد الرحمن بن عمر التنلاني	136
2 / عمر بن عبد القادر التنلاني	140
3 / محمد بن أُبَّ المزَّمّري	142
4 / محمد بن عبد الرحمن بن عمر التنلاني	144
المبحث الثالث : الرحلات والمناظرات العلمية	145
1 / الرحلات التواتية	145
أ – الرحلات الحجازية	146
ب – الرحلات العلمية	146
2 / المناظرات والمحاورات العلمية	148
أ – خصائص المحاورات التواتية	148
ب – بواكير المناظرات في توات	149
ج – أشهر المحاورات في القرن 12 هـ	150

خاتمة الفصل الرابع	153
خاتمة البحث	155
ملاحق البحث	157
الملحق رقم 01 : موقع إقليم توات وحدوده	158
الملحق رقم 02 : خريطة الخصائص الجغرافية لإقليم توات	159
الملحق رقم 03 : مناطق توات الثلاث وعواصمها	160
الملحق رقم 04 : ورقة أولى من نوازل الجنتوري	161
الملحق رقم 05 : ورقة أخيرة من نوازل الجنتوري	162
الملحق رقم 06 : ورقة أولى من نوازل الجنتوري (النسخة ب)	163
الملحق رقم 07 : ورقة وسطى من نوازل الجنتوري (النسخة ب)	164
الملحق رقم 08 : ورقة أولى من رسالة لأحد القضاة.....	165
الملحق رقم 09 : وثيقة حبس من القرن 12 هـ	166
الملحق رقم 10 : ورقة أولى من نظم معونة الغريم للجنتوري	167
الملحق رقم 11 : ورقة وسطى من نظم معونة الغريم للجنتوري	168
الملحق رقم 12 : ورقة أخيرة من نظم معونة الغريم للجنتوري	169
الملحق رقم 13 : وثيقة تزكية أحد القضاة	170
الملحق رقم 14 : أشهر القضاة في توات	171
قائمة المصادر والمراجع	173

فهرس الأعلام والقبائل	185
فهرس الأماكن والبلدان	194
فهرس المواضيع	199

ملخص الرسالة

عالجتْ هذه الرسالة موضوع " الحياة الاجتماعية والثقافية بإقليم توات من خلال نوازل الجنتوري في القرن 12 هـ / 18 م "، وهي في مجملها دراسة اجتماعية ثقافية لواقع إقليم توات (ولاية أدرار حالياً) في القرن 12 هـ / 18 م، اعتماداً على ما تضمنته نوازل الشيخ أبي زيد عبد الرحمن الجنتوري الفقهية، المتوفى سنة 1160 هـ / 1747 م، والذي أفردتُ فصلاً كاملاً للحديث عن خصائص عصره وحياته ومآثره وآثاره، وأهمية نوازله وفتاواه محلّ الدراسة .

وقد أمكنَ من خلال النوازل المذكورة رسمُ صورة واقعية عن المجتمع التواتي خلال تلك الفترة، بدءاً بالمكوّنات الرئيسة المشكّلة له، وطبيعة العلاقات البينية بين أفراد العائلة وبين أفراد المجتمع، وكذا أهم المعيقات والمشاكل التي واجهت التواتيين، ودور المرأة التواتية في محيطها العائلي والاجتماعي، وماهية القضايا التي عالجها القضاة وبعض المآخذ المسجلة عليهم .

أمّا في الجانب الثقافي فقد أظهرتْ النوازل مدى تميّز تلك الفترة حضارياً، حيث انتشرت الزوايا والمراكز العلمية في أرجاء توات، وساد التنافس العلمي بينها وبين أعلامها، كما نشطت حركة المبادلات الثقافية مع الحواضر الشمالية (فاس، تلمسان، تونس...) والجنوبية (تمبوكتو، أروان..) وازدانت الحركية العلمية الناشئة بالسجالات والمناظرات والرحلات العلمية الهادفة .

وكانت الخاتمة تتويجاً لِما أمكن استنتاجه، وعرضاً لأهم النتائج المحصّلة والتوصيات المأمولة، مدعّمة بملاحق وببليوغرافيا شاملة .